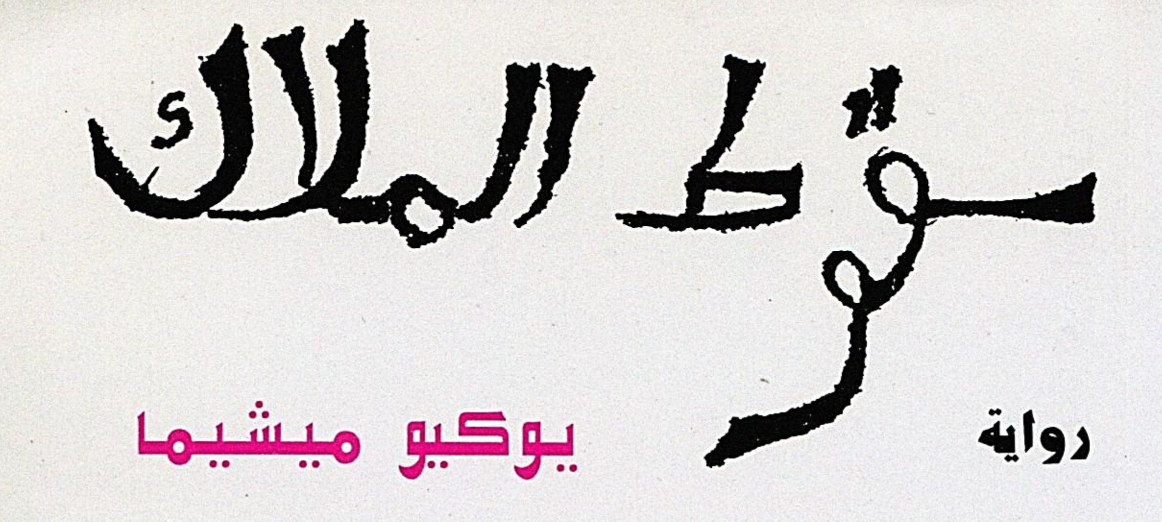


خاص



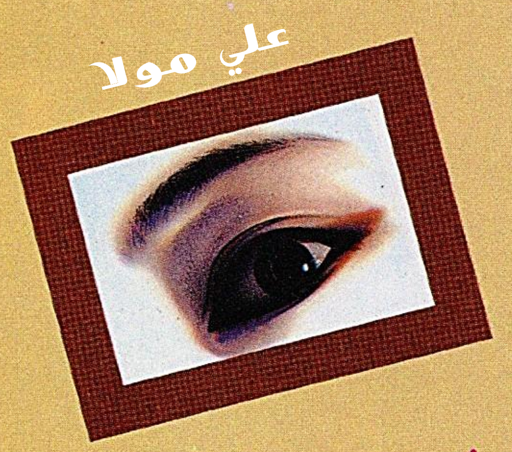


سقوط الملاك

رواية

يوكيو ميشيما





ترجمة كامل يوسف حسين

دار الآداب

سقوط الملاك

سقوط الملاك

رواية : يوكيو ميشيما

ترجمة : كامل يوسف حسين

دار الآداب - بيروت

الطبعة الأولى
١٩٩٥

- ١ -

أحالت السُّدُم، في عُرض البحر، السّفن النّائية إلى كتل سوداء، ورغم ذلك كان الجو أكثر صفاء من الأمس. وكان بمقدوره أن يتبيّن قمم جبال شبه جزيرة إيزو. وبدا بحر شهر أيّار (مايو) ساجياً. وكان ضياء الشّمس قوياً، ولا وجود إلاّ لخيط من السّحب، والزّرقة تلفّ البحر.

تكسّرت مويجات بالغة الضّآلة على الشّاطئ. وقبل تكسُّرها، لفّت سِمَةٌ تعافها النّفس الألوان العندليبيّة، القابعة عند بطونها، كأنّما هي تحتوي في جوفها كلّ النّوعيات المقيتة من الأعشاب البحرية.

وازبداد البحر، يوماً بعد يوم، ليس إلاّ التّكرار اليومي لبحر الحليب المزبد، في الأسطورة الهنديّة. وربّما لم تكن الدّنيا لتدعه وشأنه. كان ثمّة شيءٌ ما فيه يستقطب شرّ الطّبيعة بأسره.

بدا بهاء بحر شهر أيّار (مايو)، الّذي راح، بلا انتهاء، وفي قلق، يحرّك نقاط ضيائه، كحشد من المسامير الصّغيرة المستدقّة.

لاحت ثلاثة طيور، كما لو كانت قد أصبحت طائراً واحداً في سمت السّماء، ثمّ تفرّقت باضطراب. كان ثمّة أمر عجيب في الالتقاء والتفرّق. ولابدّ أنّ الأمر يعني شيئاً، هذا الاقتراب البالغ، إلى حدّ أنّها أحسّت بالرّيح المتدفّقة من جناحيْ كلّ منها، ثمّ ظهور المسافة

بينها من جديد. ولسوف تتضامّ في أفئدتنا ثلاث أفكار في بعض الأوقات.

أوحى الهيكل الأسود لسفينة شحن صغيرة، علامة مدخنتها جبل فوق ثلاثة خطوط أفقيّة، بالشّعور، من خلال تدفّق كتلتها، بالعظمة، والنّمو المفاجئ.

انسحبت الشّمس، في الثّانية من بعد الظّهر، إلى شرنقة رفيعة من السّحب، دودة متألّقة بالبياض.

كان الأفق طوقاً من الصّلب، يجمع بين اللّونين الأسود والأزرق، ويتطابق مع البحر تمام التّطابق.

تواثبت، للحظة، وعند بقعة واحدة، في عُرض البحر، موجة شهباء، كجناح أشهب، وسقطت متراجعة، مجدّداً. تُرى ما الّذي يعنيه ذلك؟ لابدّ أنّها إشارة مهيبة، أو ربّما كانت نزوة كبرى.

تدافع المدّ وئيداً، وراحت الأمواج ترتفع، وترامى البرّ أمام الهجمات الأشدّ عُتُوّاً. احتجبت الشّمس وراء السّحب، واكتست خضرة البحر بظلمة خانقة. امتدّ خطّ طويل، أبيض، عبرها من الشّرق إلى الغرب، في نوع من المثلث المقلوب العملاق الهيكل. بدا أنّه يلوي نفسه متفلّتاً من السّطح المنبسط، وغير بعيد باتّجاه القمّة تضيع خطوط تشبه الزّعنفة على نحو قاتم في البحر، الجامع بين السّواد والخضرة.

أطلّت الشّمس، من جديد. ومرّة أخرى منح البحر مستقراً ناعماً للسنى الأشهب، وتلبية لأمر من الرّيح الجنوبيّة الغربيّة، انطلقت ظلال لا حصر لها، تشبه ظهور أُسود البحر، نحو الشّمال الشّرقي،

والشّمال الغربي، واندفعت حشود لا حدّ لها من الأمواج، بعيداً عن الشّاطئ. وأحكم القمر النّائي فبضته الحازمة على دفق المياه.

غطّت صفوف السّحب شطر السّماء، وحجب خطّها العلوي، في هدوء، جانباً من الشّمس.

انطلقت سفينتا صيد صغيرتان من الشّاطئ إلى البحر، وبعيداً عنهما بمسافة، باتّجاه عُرض البحر، كانت هناك سفينة نقل صغيرة. اشتدّ ساعد الرّيح. أقبلت سفينة صيد من الغرب، كأنّما لتعطي إشارة البدء باحتفال. كانت سفينة صغيرة، بائسة، ومع ذلك تقدّمت، دونما دواليب أو سيقان، برشاقة مترعة بالكبرياء، كأنّما تُطْبِق على البرّ بكامل هيكلها.

عندما بلغت السّاعة الثّالثة، غدت صفوف السّحب أكثر نحولاً. وعند الأفق الجنوبي انتشرت السّحب وكأنّها ذيل قمريّة بيضاء، لتلقي ظلاًّ قاتماً على البحر.

البحر، بحر بلا اسم، البحر المتوسط، بحر اليابان، خليج سوروجا، المترامي هاهنا أمامه، فوضى ثَرِيّة، متجردة من الاسم، ومطلقة، تمّ الإمساك بها، عقب صراع طويل، بحسبانها شيئاً يُقال له «البحر»، وهو في حقيقة الأمر يأبى أن يكون له اسم.

فيما السّماء تلتفّ بالسّحب، تردّى البحر في وهدة تأمّل جهم، وقد حفل بنقاط بديعة، عندليبية اللّون، وعجّ بأشواك الأمواج، كغصن في شجرة ورد. وفي الأشواك ذاتها كان ثمّة برهان على صيرورة ناعمة. لقد غدت أشواك البحر ناعمة.

الثّالثة وعشر دقائق. لم تكن هناك سفن في الأفق. أمر غريب للغاية. بدا المدى الرّحب بأسره مهجوراً. لم تكن هناك حتّى أجنحة نوارس. ثمّ علت سفينة كالشّبح، واختفت باتّجاه الغرب.

لفّ سديم شبه جزيرة إيزو، فكفّت لبعض الوقت عن أن تكون ذاتها. وما عادت إلاّ شبح شبه جزيرة مفقودة، ثمّ اختفت كلّية. وأصبحت خيالاً على خريطة، وانتمت السّفن وشبه الجزيرة على السّواء إلى «عبث الوجود».

مضت جميعها تظهر وتختفي. تُرى كيف كانت تختلف بعضها عن البعض الآخر.

إذا كان الظّاهر هو خلاصة الوجود، فقد وُجد البحر إذن هنالك، مادام لم يَضِعْ في رحاب السّديم. وكان على استعداد حارّ لأن يوجد هنالك.

سفينة واحدة غيّرت الأمر بأسره.

تغيّر التّركيب بكامله. ومع تمزيق نمط الوجود بأسره استقبل الأفق سفينة. تمّ التّوقيع على تنازل عن العرش، وأُطيح بكون بأسره جانباً. بدت سفينة للعيان، لتلقي جانباً بالكون الّذي حرس غيابها.

تغيّرات متعدّدة في لون البحر، لحظة فأخرى. تغيّرات في السّحب، وظهور سفينة. ما الّذي كان يجري؟ أي أحداث كانت تقع؟

كلّ لحظة كانت تجلبها أكثر ضخامة من انفجار كراكاتوا. كلّ ما هنالك أنّ أحداً لم يلحظ الأمر، فنحن أكثر تعوّداً ممّا ينبغي على عبث الوجود. وضياع كون ليس جديراً بأن يُحمل على مَحْمَل الجِدّ.

الأحداث هي مؤشرات على عمليّة إعادة بناء وترتيب لا نهاية لها.
إشارات من جرس ناءٍ. تظهر سفينة، فتجعل الجرس يقرع، وفي لحظة يجعل الصّوت كلّ شيء ملكاً له. وعلى اليمّ لا تكفّ الأحداث عن الوقوع، ويمضي الجرس في القرع إلى الأبد.
كيان.

لا يتعيّن بالضّرورة أن يكون سفينة. برتقالة واحدة مُرّة، تظهر في موعد لا يدري به أحد، وهي كافية لكي ينطلق الجرس قارعاً.

الثّالثة والنّصف من بعد الظّهر. برتقالة واحدة مُرّة قدّمت كياناً، في خليج سوروجا.

محتجبة وراء موجة، ومعاودة الظّهور، من جديد، طافية، وغائصة، كعين لاتني تطرف أجفانها، طفت بقعة البرتقالة المتوهّجة اللّون، وئيدة، نحو الشّرق، عبر المويجات، في الشّاطئ القريب.

الثّالثة والدّقيقة الثّالثة والخمسون. لاح هيكل أسود، على نحو جهم، من الغرب، من جهة ناجويا.

كانت الشّمس وراء السّحب، مثل سمكة سلمون مدخَّنة. أبعد تورر ياسوناجا عينيه عن التّلسكوب ذي القوّة الثّلاثينيّة.

لم يكن ثمّة أثر، بعد، لسفينة الشّحن تيزو ـ مارو، المتوقَّع وصولها إلى الميناء في السّاعة الرّابعة.

عاد إلى قِمَطْره ثانية، ومضى يستعرض شارداً ملاحظات شيميزو للشحن البحري.

رحلات الوصول المتوقَّعة للسفن، غير المُدْرَجة بالجداول، في يوم السّبت، الثّاني من أيّار (مايو) ١٩٧٠.

تنرو ـ مارو، يابانيّة، السّاعة الرّابعة. شركة تايشو للشحن البحري. الوكيل، سوزويتشي. من يوكوهاما. المرسى ٤ ـ ٥، رصيف هينودي.

ـ ٢ ـ

كان شيجيكوني هوندا في السّادسة والسّبعين من العمر. وغالباً ما كان يرتحل وحيداً، بعد أن ترمّل. وكان يختار الأماكن التي يسهل الوصول إليها، والّتي لا يكلّفه بلوغها من أمره عنتاً.

وكان قد زار مرتفعات نيهونديرا، أسفل جبل فوجي، وتوقّف في طريق عودته، عند بستان ميو، ورأى كنوزاً، من قبيل الملابس، الّتي ربّما جاءت من دواخل آسيا، والّتي يقال إنّها جزء من رداء مَلاَك. وفيما هو يشرع في العودة باتّجاه شيزوكا، استشعر في نفسه رغبة في الانفراد، بعيداً عن النّاس، لبعض الوقت، على الشّاطئ. كان قطار كوداما السّريع يقوم بثلاث دورات كلّ ساعة، ولن يكون ممّا يكترث به أن يفوته اللّحاق بقطاره، فرحلة العودة إلى طوكيو لا تستغرق إلاّ ما يزيد على السّاعة بقليل.

أوقف السّيّارة المستأجَرة، وسار، مستعيناً بعصا، قاطعاً الأمتار الخمسين ـ أو نحو ذلك ـ المفضية إلى شاطئ كوماجوي. وسأل نفسه، وهو يحدّق في البحر، عمّا إذا كان هذا الشّاطئ يمكن أن يكون شاطئ أود الّذي قال عنه إتشيجو كانيرا، في القرن الرّابع عشر، إنّه على وجه الدّقّة البقعة الّتي شهدت هبوط المَلاَك. وفكّر كذلك في ساحل كاما كورا الّذي يرتبط بشبابه. انقلب على عقبيه. كان الشّاطئ هادئاً، والأطفال يلعبون، وكان هناك اثنان أو ثلاثة ممّن يصيدون الأسماك بالشصّ.

وإذ تركّز انتباهه على البحر فإنّه لم يلحظ الأمر من قبل، ولكنّ عينيه وقعتا الآن على كتلة من اللّبلاب الأحمر الوردي، موحية بأجواء الرّيف، أسفل حاجز الأمواج. في الرّمال، وعلى امتداد حاجز الأمواج ترامت كومة كبيرة من النّفايات، قلبتها رياح البحر. زجاجات كوكا كولا فارغة، علب طعام، علب طلاء، بلاستيك من النّوع الّذي لا يفنى بسهولة، حقائب، صناديق منظّفات، قطع من الآجرّ، عظام.

تهاوت البقايا الباقية من الحياة على البرّ، وجاءت إزاء اللاّمتناهي. البحر، ذلك اللاّمتناهي الّذي لم يقابله أحد من قبل. وبدت هذه البقايا الباقية، شأن الإنسان، عاجزة عن لقاء نهايتها، إلاّ على أقبح الصور وأبشعها.

نتأت براعم، تشبه قنديل البحر، من أشجار الصّنوبر المتناثرة على امتداد الضّفّة. وإلى اليسار كانت هناك بقعة مزروعة بالفجل الّذي برزت منه براعم صغيرة، بائسة، بيضاء، رباعيّة البَتّلات. واصطفّت شجيرات صنوبر، على امتداد الطّريق. وبالنّسبة إلى باقي المنطقة كان هناك امتداد متواصل من الأغطية البلاستيكيّة الّتي تكسو الفراولة. وبأعداد هائلة، وتحت أكواخ تشبه الأقماع من البلاستيك، ترامت ثمار الفراولة، فوق مدارج حجريّة، وسط وفرة من الوريقات الخضراء، وراح الذّباب يزحف على امتداد حوافّ الوريقات المشرشرة. وتزاحمت الأكواخ الّتي تشبه الأقماع على امتداد نظرة أحدها في مواجهة الآخر، وقد اكتست بلون أشهب لا يسرّ النّاظرين. ولاحظ هوندا وسطها بناء، يشبه برجاً صغيراً، لم يكن قد لفت نظره من قبل.

على مسافة قصيرة من الطّريق الرّئيسي الّذي يربط بين المقاطعات، حيث توقّفت سيّارة الأجرة، كان هناك كوخ، مؤلّف من طابقين، فوق منصّة اسمنتيّة، عالية، دون وجه للمقارنة بين حجم الكوخ الصّغير والمنصّة الهائلة. وكان الكوخ أكثر ارتفاعاً من أن يكون مأوى للمراقبة، وأشدّ بؤساً من أن يكون مقرّاً لمكاتب إداريّة، وكانت ثلاثة من جوانبه الأربعة بمثابة نافذة ذات امتدادات لا تنقطع.

ثار فضول هوندا، فمضى إلى ما بدا بمثابة فِناء. كانت أطر نوافذ بيضاء مكومة في فوضى شديدة على الرّمال. وعكست شظايا زجاجيّة السّحب بأمانة. تطلّع إلى أعلى فرأى في نافذة الطّابق الثّاني ما بدا أنّه ظلال عدسات تلسكوب. نتأت ماسورتان حديديتان هائلتان من المنصّة الإسمنتيّة، وقد احمرّتا بتأثير الصّدأ، وامتدّتا في الأرض. شقّ هوندا طريقة، غير متيقّن من موضع قَدَمَيْه، عبر الماسورتين، وارتقى درجاً من الحجر المتداعي.

كانت هناك لافتة، تحميها ظُلّة، عند أسفل درج حديديّ يفضي إلى المأوى.

وكُتب عليها بالإنجليزيّة:

محطّة إشارة تيكوكو

وكُتب عليها باليابانيّة:

مكتب شيميزو التّابع لشركة تيكوكو للإشارة والاتصالات

إخطار المغادرة والوصول والرّسوّ

رصد الحوادث في البحر ومنع وقوعها.

اتصالات من البرّ إلى البحر

معلومات بحريّة طقسيّة
استقبال السّفن وترحيلها
خدمات ملاحيّة أخرى.

داخَلَ هوندا شعورٌ بالسّرور حيال الطّلاء الأشهب المتقشّر المستخدم في رسم الحروف، وقد غدا ناصلاً هنا وهناك، وكُتب اسم الشّركة بأسلوب عتيق. تدفّقت رائحة البحر، دونما كابح، من قائمة الواجبات والوظائف التي تقوم بها الشّركة.
تطلّع إلى الدّرج، فألفى الهدوء مخيِّماً.

في الأسفل، فيما وراءه، إلى الشّمال الغربي، وفيما وراء الطّريق الرّئيسي، والبلدة، حيث تألّق الضّوء على دواليب الهواء فوق قوارب صيد أسماك الشبّوط، منعكساً على سقوف من القرميد الأزرق الجديد، امتدّ مجمّع ميناء شيميزو، وهو تقاطع من الرّوافع على الأرض، والمرافع على السّفن، ومداخن المصانع الشّهباء، وهياكل السّفن السّوداء، والحديد الّذي تلاطمته رياح البحر، والمداخن المطليّة بطبقات سميكة، كتلة تقف عند الشّاطئ، وأخرى تقبل من بحار شتّى، هنالك في البعيد ترامت آلية الميناء عارية، متلاقية في البقعة المحدّدة، متوهّجة عبر خط التّلاقي. وترامى ثعبان البحر المتفكّك، المتألّق.

شمخ جبل فوجي عالياً فوق التّلال. بدت القمّة وحدها جليّة للعيان، كأنّما أُلقيت صخرة بيضاء عالياً من خلال سحب الظّنون.
توقّف هوندا عن التطلّع.

- ٣ -

كانت المنصّة الإسمنتيّة خزّاناً للمياه.

وكان الماء يُضخّ إلى هذا الخزّان من بئر، ويُخزّن لاستخدامه في ريّ الفراولة. وقد أدركت شركة تيكوكو للإشارة الإمكانيات الكامنة في هذه المنصّة العالية، وأقامت عليها المأوى الخشبي؛ فقد كانت مثالية لرصد السّفن من ناجويا إلى الغرب، أو من يوكوهاما إلى الشّرق.

درجت العادة على أن يعمل أربعة من رجال الإشارة في نوبات عمل يستغرق كلّ منها ثماني ساعات. غير أنّ واحداً منهم لازمه المرض، منذ وقت طويل، فعمل الثّلاثة الآخرون في نوبات تغطّي اليوم بكامله. وكان الطّابق الأوّل هو مكتب المشرف الّذي اعتاد القدوم، بين الحين والآخر، من المكتب الموجود في قلب المدينة. ولم تكن لرجال الإشارة الثّلاثة إلاّ حجرة لا يكسو أرضيتها شيء، مساحتها حوالي أربعة أمتار مربّعة، تحيط بها النّوافذ من ثلاث جهات، في الطّابق الثّاني.

لصق إحدى النّوافذ، كان هناك قِمَطْر يطلّ على الحوانب الثّلاثة. وفي مواجهة الجنوب انتصب تلسكوب ثلاثيني القوّة، وبإزاء تسهيلات الميناء إلى الشّرق كان هناك منظار مكبّر بمقدار خمسة عشر مِثْلاً، وفي الرّكن الجنوبي الشّرقي كان هناك مصدر شعاع ضوئي بقوّة

كيلو وات واحد، للإشارات اللّيليّة. واكتمل الأثاث بهاتفين على القِمَطر في الرّكن الجنوبي الغربي، ورفّ للكتب، وخرائط، وأعلام إشارة رُتّبت على رفوف عالية، وإلى الجنوب الغربي مطبخ، ملحق به مرحاض، وسرير نقّال. وأمام النّافذة الشّرقيّة كان هناك برج للأسلاك الكهربائيّة من الصّلب، تعكس عوازله الكهربائيّة الخزفيّة لون السّحب. وامتدّ خطّ الطّاقة الكهربائيّة إلى الشّاطئ حيث يلتقيه برج ثانٍ، وتحمل انعطافة إلى الشّمال الشّرقي إلى برج ثالث، وهكذا حول السّاحل يمضي به قوس متقلّص من الأبراج الفضيّة إلى ميناء شيميزو. ومن هذه النّقطة المتقدمة كان البرج الثّالث بمثابة نقطة إشاريّة جيدة. فقد أقبلت سفينة إلى الميناء، وخلال عبورها للبرج الثّالث كان المرء يعرف أنّها تقترب من الحوض ٣ ـ ج الّذي يشمل أرصفة الرّسوّ.

كان تعرّف السّفن يتمّ حتّى الآن بالعين المجرّدة. ومادامت التّقلّبات في الحمولات والتّيارات تحكم حركة السّفن، فإنّها ستواصل القدوم إمّا مبكّرة أكثر ممّا يجب، وإمّا متأخرة أكثر ممّا ينبغي، ولن تختفي نزعة رومانسيّة معيّنة تنتمي إلى القرن التّاسع عشر من حفلات التّرحيب بالقدوم. وكانت هناك حاجة إلى ملاحظات أكثر دقّة لإبلاغ مسؤولي الجمارك والحجر الصّحي والقائمين بشحن السفن وتفريغها والقباطنة والقائمين بأعمال التّنظيف والإمداد بالمؤن بالموعد الّذي يتعيّن عليهم فيه رفع أعلام ترحيبهم. وكانت هناك حاجة أكبر لمحكّم عادل يقرّر أي سفينة تحظى بالأولويّة عندما تصل سفينتان معاً، وتتنافسان على المرسى الأخير.

ذلك كان العمل الّذي يقوم به تورو.

لاحت للعِيان سفينة كبيرة إلى حدٍّ ما، وكان الأفق غائماً بالفعل، واقتضى الأمر عيناً سريعة وجيدة التّدريب، لتحديد هويّتها، ومضى تورو إلى التّلسكوب.

في جو منتصف الصّيف، أو منتصف الشّتاء، الصّافي، تأتي لحظة تتحرّك فيها السّفينة بجلاء فوق أعتاب الأفق السّامقة، ولكن في سُدُم صدر الصّيف، فإنّ مثل هذا الظّهور يكون انفصالاً تدريجياً عن الاستهلال، فالأفق يكون شبيهاً بوسادة طويلة، بيضاء، نديّة.

بدا حجم سفينة الشّحن السّوداء مناسباً للسفينة تنرو ـ مارو الّتي تبلغ حمولتها ٤٧٨٠ طناً، وتطابق جسر المؤخرة كذلك مع ما علمه تورو من السجلّ. كان المرقب أبيض، نظيفاً، كما هو شأن الجسر. وكانت هناك ثلاثة مرافع صفراء. تُرى ماذا كانت العلامة الحمراء المستديرة على المداخن السّوداء؟ دقّق تورو النّظر. فتبيّن العلامة الّتي تعني «تاي» أو «كبير» في دائرة حمراء. إنّها علامة شركة تايشو للملاحة، ولا مجال للخطأ، في هذا الشّأن. وفي غضون هذا كلّه واصلت السّفينة اقترابها، بسرعة قوامها اثنتا عشْرة عقدة ونصف العقدة، وهدّدت باستباق التّلسكوب، كانت تشبه ذبابة تمضي عبر زجاج نافذة.

لم يتمكّن من تبيّن الاسم، حتّى ذلك الوقت. وكان على يقين من أنّ هناك ثلاث علامات، وأبلغه حدسه بأنّ العلامة الأولى هي «تين»، وتعني «السّماء».

عاد إلى القِمَطْر، واتّصل هاتفياً بالوكيل:

ـ مرحباً. هنا شركة تيكوكو للإشارة. يتعيّن عليكم الاستعداد لاستقبال تنرو مارو. إنّها تمضي الآن عبر البرج. الحمولة؟

استحضر في ذهنه صورةً لخطّ الماء، وهو يفصل السّفينة إلى قسمين، أحدهما أحمر والآخر أسود، أضاف:

ـ أظنّ أنّها تقلّ نصف حمولتها. متى يتلقّاها القائمون بالتفريغ؟ في حوالي الخامسة؟

ذلك سيتيح لهم ساعة. لقد تزايد عدد الأماكن الّتي يتعيّن إبلاغها.

تحرّك تورو، في انشغال، جيئة وذهاباً بين القِمَطْر والتّلسكوب، وأجرى حوالي خمس عشرة مكالمة هاتفيّة.

محطّة القباطنة. مركب القطر شونيو ـ مارو. دار القبطان، كثير من متعهّدي الأمداد. دورية خدمة الميناء. الجمارك. الوكالة مرّة أخرى. قسم إدارة الميناء التّابع لمكتب مراقبة الميناء. مكتب الإحصاءات لوزن الحمولة. مكاتب الملاحة.

ـ تنرو ـ مارو في الطريق. هينودي ٤ ـ ٥، إذا شئتم، لطفاً!

كانت تنرو ـ مارو عند البرج الثّالث بالفعل، وفيما الصّورة تتحرّك باتّجاه البرّ شوّهتها ومضات الحرارة.

ـ مرحباً، تنرو ـ مارو في طريقها إلى ٣ ـ ج.

ـ مرحباً، هنا شركة تيكوكو للإشارة، تنرو ـ مارو في ٣ ـ ج.

ـ مرحباً، الجمارك؟ الشّرطة، من فضلك. لقد وصلت تنرو ـ مارو إلى ٣ ـ ج.

ـ مرحباً، تنرو مارو في ٣ ـ ج، السّادسة وخمس عشرة دقيقة.

ـ مرحباً، وصلت تنرو ـ مارو منذ خمس دقائق.

* * *

كانت السّفن المقبلة من ناجويا أو يوكوهاما أكثر تواتراً، في نهاية الشّهر، منها في بدايته. وتقع يوكوهاما على بعد مائة وخمسة عشر ميلاً بحرياً، تقطعها السّفينة في تسع ساعات ونصف السّاعة، إذا انطلقت بسرعة اثنتي عشرة عقدة. ولم تكن هناك واجبات يتعيّن على تورو القيام بها، إلاّ الترقّب لمدّة ساعة أو نحوها، قبل الوصول المتوقّع لكلّ سفينة. ولم يكن هناك المزيد من السّفن المتوقّع وصولها اليوم، إلاّ السّفينة نيتشو - مارو، المنتظر وصولها من كيلونج، في التّاسعة مساء.

كان يساور تورو، على الدّوام، شعور بالاكتئاب لدى انتهائه من إجراء مجموعة من المكالمات الهاتفيّة. فلسوف يتدفّق الميناء بالحياة، على نحو فجائي. وسوف يشعل سيجارة فيما هو يرقب الحركة النّشطة، من قبل عزلته النّائية.

كان يتعيّن عليه في واقع الأمر ألاّ يدخن. وكان المشرف قد وجّه إليه كلمة أو كلمتين قارصتين، عندما لاحظ لأوّل مرّة فتى في السّادسة عشرة من عمره في فمه سيجارة. وفيما بعد لم يقل شيئاً، ولاشكّ في أنّه قد وصل إلى أنّ عدم إبداء اهتمام بالأمر هو السّياسة الأكثر جدوى.

كان محيّا تورو الشّاحب، البديع القسمات، يشبه الثّلج، ولم يكن بالمحيّا الّذي يعكس عاطفة، أو انفعالاً، أو دموعاً.

لكنه عرف سعادة التّأمّل فيما أمامه؛ فقد حدّثته الطّبيعة عنها، وما من عين يمكن أن ترى أوضح أو أكثر جلاء من العين الّتي ليس لديها ما تبدعه، وليس أمامها ما تقوم به، إلاّ أن تُحدِّق. كان الأفق الخفيّ

الّذي لا تستطيع العين الواعية أن تتغلغل فيما وراءه أكثر بعداً بكثير من الأفق الظّاهر للعيان، ويدركه الوعي. ولاحت كلّ أنواع الكيانات في أقانيم مرئيّة للعين، ويُدركها الوعي. البحر، السّفن، السّحب، أشباه الجزر، البرق، الشّمس، القمر، حشود النّجوم الّتي لا تُحصى. وإذا كانت الرّؤية لقاء بين عين وكيان، أي نقاء بين كيان وآخر، فلابدّ أنّها المرايا المتقابلة لكائنين، لا، بل هي أكثر من ذلك. فالرّؤية قد مضت فيما وراء الكائن، لتحلّق بجناحين، كالطّير. لقد نقلت تورو إلى عالم لا يبين لأحد. وحتّى الجمال هناك ليس إلاّ حافة فاسدة بالية. ذلك لأنّه كان يتعيّن أن يكون بحراً لم يلوّثه كائن، ولم تَلُحْ فيه سفن قطّ. كان يتعيّن أن يوجد عالم يبدو فيه مؤكّداً عند نهاية كلّ طبقات الوضوح أنّه ما من شيء على الإطلاق يلوح لِلعيان، عالم من الزّرقة القاتمة الممتدّة، والقاطعة، تتخلّص فيه الرّؤية من كلّ أغلال الوعي، وتغدو هي ذاتها شفافة، إذ تنحلّ الظّواهر والرّؤية، مثل أكسيد الرّصاص في حمض الخَلِّيك.

كانت السّعادة، بالنّسبة إلى تورو، هي أن يُسرِّح الطَرْف في مثل هذه الرِّحاب. ولم يكن هناك إلقاء للنفس بعيداً أكثر اكتمالاً، من منظوره، ممّا يحدث في غمار الرّؤية. العينان وحدهما كانتا تجلبان النّسيان ـ إلاّ بالنّسبة إلى الصّورة المتخايلة على صقال المرآة.

تورو نفسه؟

كان فتى في السّادسة عشرة من عمره، وعلى تمام اليقين من أنّه لا ينتمي إلى هذا العالم. ونصفه فقط كان في رحاب العالم. وأمّا النّصف الآخر فهو في عالم الزّرقة القاتمة ذاك، ولم تكن هناك

بالتبعية قوانين أو ضوابط تحكمه، وكلّ ما هنالك أنّه كان يتظاهر بأنّه ملتزم بقوانين هذا العالم. أين هي القوانين الّتي تحكم ملاكاً؟

مضت الحياة على نحو بسيط. ولم يُثِرْ ضيقَه، على الإطلاق، الفقرُ والحرمان وتناقضات المجتمع والسّياسة. وبين الحين والآخر، كان يَدَعُ ابتسامة رقيقة تطفو على شفتيه، ولكنّها ما كانت لتحوي شيئاً من التّعاطف. كانت تلك هي الإشارة الأخيرة الرّافضة للبشرية، سهم خفيّ أطلقه من قوس شفتيه.

عندما كان يسأم من النّظر إلى البحر، كان يلتقط مرآة صغيرة من القِمَطْر، ويتطلّع إلى نفسه. في الوجه الشّاحب، البديع التّكوين، كانت هناك عينان جميلتان، تفيضان على الدّوام بأجواء منتصف اللّيل. كان الحاجبان مستدقّين، ولكنّهما يوحيان بالكبرياء، وبدت الشّفتان ناعمتين وحازمتين. ولكن العينين كانتا الأجمل، وثمّة مفارقة في الحقيقة القائلة بأن عينيه هما الجزء الأجمل في كيانه العضوي، حقيقة أنّ العضو الّذي يؤكّد جماله هو الأكثر جمالاً.

كانت الأهداب وطفاء، والعينان شديدتي القسوة، وإن بدتا للوهلة الأولى ضائعتين في غمار حلم.

كان هذا الفتى اليتيم، الّذي يُعَدّ من المختارين، مختلفاً عن سائر النّاس، وكان على تمام اليقين من نقائه، أيّاً ما كان الشّرّ الّذي قد يقترفه. وقد توفّي أبوه في البحر، وكان قبطاناً لسفينة نقل للبضائع، وماتت أمّه عقب ذلك بوقت قصير، فرعاه عمّ فقير، وأمضى عاماً في مركز التّدريب بالمقاطعة، عقب إكماله للدراسة الإعداديّة، ومُنح ترخيصاً يخوّله العمل كرجل إشارة من الدّرجة الثّالثة، والتحق بالعمل في شركة تيكوكو للإشارة.

لم يعرف تورو شيئاً من الجُسآت الصّلبة الّتي يراكمها الحنق في مواجهة الفقر، مثل كتل من العنبر تتصلّب من النُسغ الّذي يتدفّق عبر احاء شجرة مشقوق. فقد كان لحاؤه صلباً على الدّوم، كان لحاء غليظاً، صلباً من الازدراء.

كمنت بهجة الرّؤية، حيث كلّ شيء واضح بذاته ومعطى، عند الأفق الخفي وحده، بعيداً فيما وراء البحر. لِمَ يتعيّن أن تثور الدّهشة؟ رغم الحقيقة القائلة بأنّ الخداع يوصل إلى كلّ باب، صباح كلّ يوم، دونما انقطاع، كالحليب.

كان يعرف تشكّلاته، حتّى أدقّ أجزائها، والخطأ لا يعرف سبيله إلى نظام تدقيقه، لم يكن هناك لاوعي.

ـ لو حدث أبداً أنّني تحدّثت، أو تحرّكت، انطلاقاً من أدنى دافع غير واعٍ، لحاق الدّمار توّاً بالعالم، ويتعيّن على العالم أن يشعر بالامتنان لِوَعْيي بذاتي، فليس في الوعي ما يدعو إلى الفخر إلاّ الانضباط.

في بعض الأحيان كانت خواطره تذهب به إلى أنّه ربّما كان قنبلة هيدروجينية، مزوّدة بالوعي. وكان من الواضح، على أيّة حال، أنّه ليس بالكائن البشري.

كان تورو فتى يصعب إرضاؤه، يغسل يديه مرات لا حصر لها، كلّ يوم، ولما كانتا تتعرّضان للغسيل المكثّف فقد بدتا بيضاوين، وجافّتين. وبالنّسبة إلى العالم لم يكن إلاّ فتى نظيفاً، ومرتّباً.

لم يكن على شيء من الاكتراث بالفوضى، خارج ذاته، فقد بدا بالنّسبة إليه من أعراض المرض أن يقلق على التجعّدات في سروال

شخص آخر. لقد كان سروال السّياسة شيئاً بائساً، مجعّداً، ومبتلاً.
ولكن ما أهمّية ذلك؟

***

تناهى إلى سمعه طرق رقيق على الباب، في الطّابق الأوّل. كان المشرف يفتح الباب السيّئ التّركيب، على الدّوام، وكأنّه يسحق علبة أعواد ثقاب، ويقبل لاطماً الدّرج بقدميه؛ ومن ثَمَّ فلن يكون هو الطّارق.

دسّ تورو قدميه في خفّيه، وهبط الدّرج الخشبي، وخاطب القوام المائل إلى اللّون الأحمر الوردي، عند النّافذة المتموّجة، ولكنه لم يفتح الباب:

ـ مازال الوقت مبكّراً، ربّما تأخّر المشرف حتّى السّاعة السّادسة، عودي بعد العشاء!

تجمّد القوام المتموّج للحظة، في غمرة التّأمّل، ثمّ تحرّك مبتعداً:

ـ آه، سأعود، إذن، فلديَّ الكثير للحديث عنه.

ـ نعم، عودي!

دفع تورو بالقلم الرّصاص القصير، والغليظ، الّذي أحضره معه دونما سبب محدَّد، وراء أذنه، وانطلق يرتقي الدّرج عَدْواً.

راح يحدّق في الغسق المخيّم، وكأنّما نسي زائرته.

سينداح الغروب وراء السّحب، ولكنّه لن يهلّ إلاّ في السّادسة والدّقيقة الثّالثة والثّلاثين، أي أنّ هناك ساعة كاملة حتّى ذلك الحين. راح لون البحر يضرب إلى الرّمادي، وعادت شبه جزيرة إيزو، الّتي

غابت عن العيان لبعض الوقت، لتلوح معتمة في الأفق كأنّما حُدِّدت حوافّها بالحبر.

شقّت امرأتان طريقهما وسط الأغطية البلاستيكيّة، وعلى ظهريهما سلال الفراولة. وشمل البحر كلّ شيء فيما وراء ذلك، مثل معدن غير مطاوع. وبحذاء البرج الثّاني تماماً، رست سفينة لنقل البضائع، حمولتها خمسمائة طن، طوال فترة الأصيل، وكانت قد غادرت مبكرة؛ لتوفّر تكلفة الرّسوّ على الرّصيف، فيما يبدو، ثمّ ألقت المرساة للقيام بعمليّة تنظيف على مهل. وبدا جليّاً أنّ التّنظيف قد انتهى، وراحت من جديد ترفع الهلب.

مضى تورو إلى المطبخ الّذي كان يضمّ مغسلة صغيرة، وموقداً يعمل بالغاز، وقام بتسخين عشائه. دقّ جرس الهاتف. إدارة الميناء. وصلت رسالة من نيتشو ـ مارو تؤكّد وصولها في السّاعة التّاسعة.

بعد تناول طعام العشاء طالع الصحيفة المسائيّة، وأدرك أنّه ينتظر زائرته.

السّابعة وعشر دقائق. أرخى اللّيل سدوله على البحر. وبدا بياض أغطية الفراولة البلاستيكيّة، شأن معطف من زبد، وكأنّه هو وحده الّذي يقاوم.

ترامى هدير محرّكات خفيفة، عبر النّافذة. كان أسطول الصيد قد خرج من يازو، إلى اليمين، شاقاً طريقه إلى مناطق صيد السّردين، قبالة أوكيتسو. تحرّكت أضواء خضراء وحمراء، في وسط السّفن الّتي ربّما بلغ عددها عشرين سفينة، وقد احتدم التّنافس بينها على

المقدّمة، وخلع ارتعاش الأضواء فوق البحر تجلّياً بصرياً على الهدير البدائي للمحرّكات.

بدا البحر الّذي لفّه اللّيل وكأنّه يشبه، لبعض الوقت، مهرجاناً قروياً. لاح كأنّه كتلة صاخبة من مرتادي المهرجان، وقد حمل كلّ منهم في يده قنديلاً، وراح يتدافع، في جلبة، متّجهاً إلى قرار مظلم. كان تورو يعلم أنّ القوارب سيحادث أحدها الآخر، وإذ تندفع متشاجرة على ثبج البحر، حالمة بصيد وفير، مترعة بالحيويّة وبالعدوانيّة، وتتألّق على متنها العضلات الّتي تفوح برائحة السّمك، فإنّها سيحادث أحدها الآخر، عبر مكبّرات الصّوت، هنالك بعيداً، في البحر.

في الهدوء الّذي أعقب الضّجيج والحراك، واصلت السّيّارات هديرها الثّابت على الطّريق الرّئيسي الّذي يربط المقاطعات. سمع تورو طرقاً على الباب. لسوف تكون كينوي، مرّة أخرى.

هبط الدّرج، وفتح الباب.

وقفت كينوي في الضّوء، مرتدية سترة حمراء ورديّة، وقد غرست زهرة جردينيا بيضاء في شعرها.

قال تورو، بقوّة رجوليّة:

ـ أَقبلي!

منحته كينوي ابتسامة قوامُها التّردّد الرّقيق، ممّا قد تسمح حسناء بارعة الجمال لنفسها به، ودخلت. وفي الطّابق العلوي وضع علبة شيكولاته على قِمَطْر تورو:

ـ إنّها لك.

ـ أنت بالغة الطّيبة معي.

ملأ صوت فضّ الورق الصّقيل، الشّفّاف، الغرفة، وفتح تورو العلبة الذّهبية، المستطيلة، وابتسم لكينوي، وهو يلتقط قطعة من الشّيكولاته.

كان يعاملها، على الدّوام، كما لو كانت حسناء بارعة الجمال. اقتعدت كرسياً، فيما وراء مصدر ضوء الإشارة، وجلس إلى القِمَطْر. جلسا في موضعيهما على مسافة ثابتة، ومختارة بحذر، كأنّما هما على استعداد للهرب، نزولاً على الدّرج.

عندما كان أمام التّلسكوب أطفأ كلّ الأنوار، ولكن بخلاف هذا كانت الغرفة مضاءة بأنور الفلورسنت المنهلّة من السّقف، واكتست زهرة الجردينيا، المغروسة في شعر كينوي، وهجاً أبيض متألقاً، وكان القبح تحتها بالغ الرّوعة.

كان قبحاً لا يسع أحداً أن يتركه دون أن يراه، وقد شكّل مفارقة مع القبح المتوسط الّذي يمكن أن يصبح، في الوقت والمكان المناسبين، جمالاً من نوع ما، أو قبحاً يكشف جمال الرّوح. كان قبحاً، وما كان من الممكن أن يوصف بأنّه شيء آخر، كان عطية من السّماء، قبحاً كاملاً، لا تناله غالبية الفتيات.

لكنّ جمال كينوي كان مثار قلقها، على نحو مستمرّ.

قالت، وهي تستشعر قلقاً على ركبتيها، وتجذب طرف تنورتها القصيرة إلى أسفل:

ـ الأمر الطيّب فيك، الأمر الطيّب فيك هو أنّك الوحيد الّذي لا يحوم حولي. إنّك، بالطّبع، رجل، وليس بمقدوري أبداً أن أكون

واثقة من ذلك بأكثر ممّا ينبغي. لابدّ لي أن أحذّرك، لو أنّك حمت حولي، فلن أواصل القدوم إلى هنا لرؤيتك. وستكون تلك هي النّهاية، هل تعدني بأنّك على الأقلّ لن تحوم حولي؟

ـ أقسم على ذلك.

رفع تورو كفّه، موثّقاً تعهّده؛ فقد كان عليه الالتزام بالحرص البالغ، في مثل هذه الأمور، عندما يكون مع كينوي.

كان هذا التعهّد يسبق كلّ حوار بينهما، وما إن يقوم به حتّى يتغيّر أسلوبها، فتدع جانباً الشّعور بعدم الارتياح، وينتشر الارتخاء في قوامها على المقعد، وتمسّ زهرة الجردينيا المغروسة في شعرها، كما لو كانت معرّضة للكسر، وتبتسم من بين ظلالها، وبتنهيدة عميقة، مفاجئة، تشرع في الحديث:

ـ لقد بلغت قدراً من سوء الحظ يمكن أن ألقى حتفي معه. ويساورني الشكّ في أنّ بمقدوري أن أتوقّع أن يتفهّم رجل ما الّذي يعنيه الأمر، بالنّسبة إلى المرأة، حينما تكون رائعة الجمال. فالرّجال لا يحترمون الجمال، وكلّ رجل ينظر إليَّ تدفعه أكثر الدّوافع جدارة بالازدراء. فالرّجال وحوش، ولربّما احترمتهم بشكل أكبر، لو أنّني لم أولد على هذا القدر الكبير من الجمال. ففي اللّحظة الّتي ينظر فيها رجل إليَّ يتحوّل إلى وحش. كيف يسعني أن أحترام رجلاً؟ إنّ جمال المرأة مرتبط، على نحو مباشر، بأقبح الأمور، وليست هناك، بالنّسبة إلى المرأة، إهانة أسوأ من تلك. ولم أعد أحبّ التوجّه إلى قلب المدينة، فكلّ رجل أمرّ به، الكلّ عن بكرة أبيهم، ينظر إليَّ كأنّه كلب سائل اللّعاب. هنالك أسير بهدوء في الشّارع، وكلّ رجل أصادفه ترتسم في عينيه نظرة تقول: إنّني أريدها، أريدها، أريدها.

كلّهم في عينيه نظرة لا يمكن الإفصاح عنها إلاّ بهذه الكلمات، والمعنى عبر هذا الأمر بأسره يثير ضيقي البالغ.

التقطت منديلاً صغيراً، منقوشاً بالزّهور، من سترتها، ودفعته، على نحو رائع، نحو عينيها، أضافت:

ـ في الحافلة، قبل قليل، حام حولي أحدهم، فساورني الشّعور بالمقت نحو هذا الأمر. كان فتى طيّب المظهر، يجلس إلى جواري مباشرة، من طوكيو، على ما أتصوّر. وكانت لديه حقيبة من طراز بوسطن يضعها على ركبته، ويعتمر قبعة ناتئة المقدّمة. ومن الجانب كان يشبه قليلاً...

ذكرت كينوي اسم مغنٍّ شعبيّ، واستطردت:

ـ واصل النّظر إليّ فقلت لنفسي: هوذا الأمر يحدث من جديد. كانت الحقيبة لدنة، وبيضاء، كأنّها أرنب نافق. دسّ يده تحتها، حتّى لا يراه أحد آخر، ثمّ مدَّ أصبعاً، ولمس ساقي، هنا بالضبط، على الفخذ، وفي أعلاه أيضاً، ودَعْني أقلْ لك إنّني أُخذت على غرّة، وزاد الأمر سوءاً أنّه كان فتى نظيفاً، طيّب المظهر، صرخت، ونهضت من مقعدي، قافزة. كان الرّكاب الآخرون جميعاً ينظرون إليَّ، وقد تسارعت دقّات قلبي، حتّى لم يعد بوسعي التلفّظ بشيء. سألتني سيدة طيّبة المعشر عمّا دهاني، وكنت بسبيلي إلى أن أقول لها إنّ هذا الرّجل قد تحرّش بي، لكنّه بدا مخضّباً بدمّ الخجل، وقد نكس رأسه، وأنا على قدر كبير من الطّيبة؛ فلم أستطع إبلاغهم بما حدث. لم يكن من واجبي التستّر عليه، ولكنّي قلت إنّني حسبت أنّ ثمّة مسماراً، وأنّه لابدّ للناس من الحذر فيما يتعلّق بهذا المقعد. قال

الجميع إنّ الأمر بالغ الخطورة، ولاح الضّيق على الكافّة، وشرعوا في التّحديق بالمقعد، وكان أخضر اللّون. قال أحدهم إنّ عليَّ التّقدّم بشكوى، لكنني قلت إنّ الأمر لا أهمّية له، وإنّني سأترجّل من الحافلة في المحطّة التالية. وكان مقعدي مايزال شاغراً، بعدما ترجّلت بالفعل، وانطلقت الحافلة مبتعدة، من جديد. فلم يرغب أحد في المخاطرة بالجلوس عليه. وكلّ ما رأيته كان الشّعر الأسود المتألّق تحت القبعة النّاتئة المقدّمة. تلك هي قصّتي، وبمقدوري تهنئة نفسي على عدم إلحاق الأذى بأحد. وقد كنت الطّرف الوحيد الّذي جرحت مشاعره، وإنّني لسعيدة. ذلك هو قدر الشّخص الّذي يتميّز بالجمال، أن يتقبّل كلّ قبح العالم، ويُخفي الجرح، ويموت دون أن يكشف السّرّ. ذلك يكفي. ألا تعتقد أنّ فتاة جميلة، رائعة التّكوين، أمامها أفضل الفرص لكي تكون ملاكاً؟ إنّني أقول لك إنّه ما من أحد آخر أمامه مثل هذه الفرصة. وبمقدورك أن تكتم هذا السّرّ.

نعم، هذا صحيح، بمقدور المرأة الجميلة وحدها أن تعلم حقاً، وهي ترى الأمر مرتسماً في عيني الرّجل، قبح العالم، الطّريقة الّتي يضيع بها الشّكل الحقيقي للكائن البشري.

في كلّ مرّة استخدمت فيها كينوي كلمة «جميلة» كانت تبدو كما لو كانت تستجمع كلّ ما لديها من لُعاب، وتبصق، مطلقة إيّاه بعيداً.

أضافت:

ـ إنّ المرأة الجميلة هي الّتي تُبْعِد الجحيم، إنّها تتلقّى هذه الأشياء الكريهة من الجنس الآخر، وعلى الرّغم من ذاتها فإنّها تبتسم، وتصف ذلك بأنّه قدر. هذا هو جوهر المرأة الجميلة. إنّه لَعارٌ حقّاً،

ما من أحد يعرف ما هو العار، إنّه سوء حظّ لا يمكن إلاّ لمخلوق جميل مثلها أن يفهمه، وليس هناك شخص واحد يمكنه أن يتعاطف معها، على نحو حقيقي. وإنّ جلدي ليقشعرّ حينما تقول امرأة أخرى إنّها تتمنّى أن تكون في مثل جمالي. لن يُقَدَّر لمثل هؤلاء النّاس أبداً فهم ضروب تعاستنا، لن يُقَدّر لهم ذلك أبداً. كيف يمكن توقّع فهمهم لوحدة الجوهرة؟ ولكن الماسّة تتلمّسها على الدّوام الشّراهة القذرة، وإنّني تتلمّسني، على الدّوام، الأفكار القذرة الّتي تدور حولي. ولو أنّ النّاس عرفوا حقّ المعرفة ما الّذي يعنيه أن يكون المرء جميلاً لأفلست كلّ صالونات التّجميل وكلّ عيادات جرّاحي التّجميل. إنّ من يحسبون أنّه أمر طيّب أن يكون المرء جميلاً هم أبعد النّاس عن الجمال. أليست تلك هي الحقيقة؟

كان تورو يُدير بين أصابعه قلم رصاص مثمّن الأضلاع.

كينوي هي ابنة مالك أراضٍ ثريّ، وقد غدت غريبة الأطوار، منذ قصّة حبّ واكبها فيها سوء الطّالع، وأودعت مصحّاً عقلياً، لمدّة ستّة أشهر، وقد عانت من مجموعة أعراض غريبة، وُصفت بأنّها اكتئاب هذياني، أو انزياح اكتئابي، أو شيء من هذا القبيل، ولم يحدث لها هياج خطير، منذ ذلك الحين، واستقرّ الأمر متحوّلاً إلى اقتناع بأنّها أجمل فتاة في الوجود.

وبسبب هذا الوهم تمكّنت من كسر المرآة الّتي عذّبتها أشدّ العذاب، والتحليق إلى رحاب عالم يخلو من المرايا، وأصبح الواقع طيّعاً، وانتقائياً، رؤية لما هو مرغوب فيه، ورفضاً لكلّ ما عدا ذلك. وبالنّسبة إلى معظم النّاس كان حرياً بالمبدأ الموجّه للمسار أن يكون

قبلاً مشدوداً يستدعي كارثة مؤكّدة، على وجه التّقريب، ولكنه لم يجلب لها أيّة تعقيدات ولا شعوراً بالخطر. وبعد أن ألقت بلعبة الوعي بالذّات العتيقة في سلّة المهملات، شرعت في صنع لعبة جديدة، قوامها الإبداع العجيب والتداخل، وتبنّتها الآن، بصورة كاملة، بما يناسب احتياجاتها، وأطلقتها تعمل، كأنّها قلب اصطناعي. وعندما انتهت من تشكيلها استشعرت سعادة كاملة، أو على نحو ما كان حريّاً بها أن تعبّر عن الأمر، استشعرت تعاسة كاملة.

ربّما حلّ سوء الحظّ الرّومانسي، عندما أتى رجل على ذكر قبحها. وفي تلك اللّحظة، رأت كينوي النّور على دربها الوحيد، الشّعب الضّيّق، وقد انطلقت في العمل في الجراحة التجميليّة، السّرّيّة، الخاصّة بها، وحقّقت قلباً للأمور رأساً على عقب، فبرزت لؤلؤة متألّقة من القوقعة الرّماديّة البشعة.

وشأن جنديّ محاصر يجد مهرباً، وصلت كينوي إلى حلقة وصل أساسيّة، وإن كانت مراوغة، تربطها بالعالم. ووقفت متّخذة من ذلك نقطة ارتكاز لها في مواجهة العالم وقد قلبته رأساً على عقب، في تحوّل شديد الغرابة، وتجلّت براعة متميزة في النّظر إلى ما كانت في قرارة نفسها ترغب فيه أكثر من أي شيء آخر باعتباره قدراً تعساً.

تراجع تورو في مقعده، وقد بدت طريقته في الإمساك بالسّيجارة أكبر من سنوات عمره، ومدّ ساقيه الطّويلتين، في السّروال الجينز. لم يجد شيئاً على أدنى قدر من الجدّة في حديثها المستفيض، ولكنّه لم يفصح عن إشارة تنمّ عن ضجره؛ فقد كانت حسّاسة حيال من يَمْثُل أمامها.

لم يحدث أن سخر منها قطّ، على نحو ما كان جيرانها يفعلون، وكان ذلك هو السّبب في زيارتها له. فقد أحسّ بأنّ هذه المرأة المجنونة، القبيحة المنظر، الّتي تكبره بخمس سنوات، هي رفيقة في الانفصال والتوحّد، إذ كان يحبّ من يرفضون الاعتراف بالعالم.

إذا كانت صلابة القلبين اللّذين يحتمي أحدهما بالجنون، والآخر بالوعي، إذا كانت درجة الصلابة متساوية تقريباً، فلا حاجة، إذن، إلى الخوف من الجراح، أيّاً كان قدر احتكاك أحدهما بالآخر، كما أنّه لا حاجة للخوف من الاحتكاك الجسدي. وكانت كينوي الآن أبعد ما تكون عن التزام الحذر. وعندما نهض تورو، مُحْدِثاً قرقعة في مقعده، وتحرّك نحوها بخطى واسعة، أطلقت صرخة، واندفعت نحو الباب.

كان يمضي مسرعاً في الطّريق إلى التّلسكوب، وإذ ألصق عينيه به فقد لوّح بيده وراءه، قائلاً:

ـ لديّ عمل يتعيّن القيام به، عودي إلى الدّار!

ـ آسفة، لم أقصد ما قمت به. إنّني أعتقد حقّاً أنّك لست كالرّجال الآخرين، ولكنك أخذتني على غرّة، وقد حدثت لي أمور بالغة الفظاعة، وعندما يقف رجل فجأة، أحسب أنّ الأمر يحدث من جديد. يتعيّن أن تتفهّم أنّني أحيا في خوف دائم.

ـ لابأس، عودي إلى الدّار؛ فأنا مشغول.

ـ سأذهب، ولكن. . .

ـ ماذا هناك؟

قالها وعيناه ماتزالان على التّلسكوب، وقد استشعر أنّها وقفت متردّدة عند أعلى الدّرج.

ـ لديّ، لديَّ قدر كبير من الاحترام أكنّه لك. طيّب، إلى اللّقاء.
ـ إلى اللّقاء.

تردّد وَقْع أقدام، وصوت إغلاق الباب. ومضى تورو يتابع ضوءاً بالتلسكوب.

كان قد ألقى نظرة عجلى خارج النّافذة، وهو يصغي إلى كينوي، ولمح إشارة. وعلى الرّغم من أنّ السّحب كست السّماء فقد كانت هناك أضواء متناثرة علواً وسفلاً، إلى الغرب من تلال إيزو، وعندما لاحت إشارة سفينة تدنو وسط أضواء سفن الصّيد حدث تغيّر خفيف، مريب، مثل شرارة في الظّلام.

لم يكن من المتوقَّع وصول نيتشو ـ مارو إلاّ بعد ساعة تقريباً، ولكنْ على المرء ألاّ يثق في قدرة السّفن على الوفاء بمواعيدها.

بعيداً، في قلب الغموض، وداخل دائرة التّلسكوب بدت أضواء سفينة وهي تزحف قُدُماً مثل بقّة. أصبحت مجموعة الأضواء مجموعتين؛ فقد غيّرت السّفينة اتّجاهها، وانفصلت أضواء المقدّمة عن أضواء المؤخّرة. وإذا حكم المرء من المسافة وأضواء الجسر فإنّ هذه السّفينة لن تكون زورق صيد تبلغ حمولته مائة طنّ، وإنّما نيتشو ـ مارو الّتي تصل حمولتها إلى أربعة آلاف ومائتي طنّ كاملة. وقد اكتسبت عينا تورو خبرة في تقدير حمولة السّفن من طولها.

فيما التّلسكوب يتبع أضواءها نأت هذه الأضواء عن أنوار إيزو البعيدة، وعن زوارق الصيد. وبثقة شامخة اندفعت قُدُماً إلى الأمام، تشقّ طريقها في اليمّ.

أقبلت، مثل موت مؤتلق، ملقية أضواء الجسر على صفحة الماء. في الوقت الّذي استطاع فيه تورو أن يميّز، بوضوح، في غِمار اللّيل، هيكل السّفينة، مرسوماً بأضواء الميناء والمقدّمة والمؤخّرة، ذلك الهيكل الخاصّ بسفينة نقل البضائع، شأن قطعة عتيقة مركّبة من الخزف، كان قد بلغ مصدر ضوء الإشارة فأعدّه يدوياً. ولو أنّ إشاراته كانت أسرع ممّا ينبغي فإنّ السّفينة ستواجه المتاعب في تبيّنها، ولو أنّها كانت أكثر كمالاً ممّا ينبغي فإنّ العمود الجنوبي الشّرقي للمبنى قد يحجب جانباً منها، ولأنّ التعرّف وسرعة الاستجابة لم يكونا، فضلاً عن هذا، ممّا يَسْهُل التّنبُّؤ به فإنّ التّوقيت لم يكن بالأمر اليسير، على الإطلاق.

وضع تورو المحوِّل في وضعية تشغيل الإضاءة فتسرّب الضوء، واهناً، من مصباح الإشارة العتيق. كان هناك منظار ميداني فوقه يشبه عيني ضفدع. طفت السّفينة على فراغ دائري في اللّيل المتّشح بالسّواد.

بعث تورو بثلاث إشارات في صورة هالات ضوئيّة. نقطة ـ نقطة ـ شرطة ـ نقطة[1]. نقطة ـ نقطة ـ نقطة ـ شرطة ـ نقطة. نقطة ـ نقطة ـ نقطة ـ شرطة ـ نقطة.

لم تحدث استجابة.

أرسل الإشارة ثلاث مرّات.

شرطة. كانت مثل دفقة صادرة من جوار الجسر.

(١) مقاطع من النّظام الإشاري الّذي يستخدمه اليابانيون لمقاطع كانا. (هـ. م.).

كان بمقدوره أن يستشعر مقاومة مقبض إغلاق المصباح البعيد.

ـ اسمك؟

نقطة ـ شرطة ـ شرطة ـ نقطة، نقطة ـ شرطة ـ نقطة ـ شرطة ـ نقطة، شرطة ـ نقطة ـ نقطة ـ نقطة ـ شرطة ـ نقطة ـ شرطة، شرطة ـ نقطة ـ نقطة ـ نقطة.

بعد تلك الشّرطة الأوليّة ـ اسم السّفينة، كأنّه الشّبح.

شرطة ـ نقطة ـ شرطة ـ نقطة، نقطة ـ شرطة ـ شرطة ـ نقطة ـ نقطة ـ نقطة ـ شرطة ـ نقطة ـ شرطة ـ شرطة، نقطة ـ نقطة ـ شرطة، شرطة ـ نقطة ـ شرطة ـ شرطة ـ نقطة.

كانت السّفينة نيتشو ـ مارو دونما جدال.

ساد توتّر وحشيّ ومضات الضّوء الطّويلة والقصيرة، وكأنّما كان هناك، وسط حشود الأضواء الممتدّة، ضوء وحيد، يجنّ فرحاً. كان الصّوت الهاتف من بعيد عبر البحر الملتفّ بالظّلام يشبه صوت امرأة مجنونة. صوت معدني، يصرخ، على نحو حزين، وإن لم يكن بالصّوت الحزين، يمجّ عذاب الفرحة. ما كان إلاّ ناقلاً لاسم سفينة، ولكن صوت الضّوء المتقطّع بلا انتهاء نقل كذلك في كلّ تقطّع عدم انتظام نبض متوهّج بالانفعال.

ربّما كانت الإشارات تبعثها يد ضابط السّفينة الثّاني، خلال نوبته. وكان بمقدور تورو أن يستشعر في الإشارات، الصّادرة عن جسر، أحاسيس ضابط ثانٍ عائد إلى موطنه. في تلك الحجرة النائية، المثقلة برائحة الدّهان الأبيض، والمتوهّجة بنحاس البوصلة والدفّة، سيكون هناك الإعياء النّاجم عن الرّحلة الطّويلة وشمس الجنوب

الباقية. إنّها عودة سفينة تلاطمتها الأمواج، وأثقلتها حمولتها. نزعة حرفيّة تضمّ الاقتدار الرّجولي. سرعة توحي بالحذق، وكلّ الزّخم الّذي توحي به الأعين المحمرّة، والنّاجم عن العودة إلى الوطن. حجرتان وحيدتان، ناصعتان، واجهت إحداهما الأخرى عبر البحر المظلم، وفيما الاتصال يتمّ، كان وجود روح بشريّة أخرى في الظّلام شبيهاً بضوء شبحي في البحر ذاته.

لسوف يتعيّن على السّفينة أن ترسو خارج الميناء، وأن تدخله غداً؛ فقد أغلق الحجر الصّحي أبوابه، في الخامسة، ولن تفتح إلاَّ في السّابعة من صباح الغد. وانتظر تورو حتّى اجتازت السّفينة البرج الثّالث. وإذا حدثت استفسارات في وقت لاحق فكلّ ما عليه هو أن يحدّد السّاعة.

قال تور محدّثاً نفسه، وكان يحدِّث نفسه أحياناً:

ـ السّفن الّتي تأتي من موانئ أجنبية، مبكّرةٌ على الدّوام.

كانت السّاعة تقترب من التّاسعة. وقد سكنت الرّيح، وعمّ الهدوء البحر.

في حوالي السّاعة العاشرة خرج إلى رحاب النّسيم، ليطرد النّوم بعيداً.

كانت حركة المرور ماتزال مستمرّة على الطّريق الرّئيسي الّذي يربط ما بين المقاطعات، وراحت الأضواء المحيطة بميناء شيميزو إلى الشّمال الشّرقي تخفق في عصبية. وكان جبل أودو، الّذي يبتلع الشّمس الغاربة في الأيّام الصّيفيّة، كتلة من السّواد. وعلا غناء مخمور من مهاجع ترسانات هـ.

في الدّاخل، راح يستمع عبر المذياع إلى تقرير الطّقس. لسوف يهمي المطر، ويعلو البحر، وتسوء إمكانية الرّؤية؛ ثمّ جاء دور الأخبار. لقد أثّرت العمليات العسكريّة في كمبوديا على مقارّ القيادة ونقاط الإمداد والمستشفيات التّابعة لجبهة التّحرير، وأوقفت عملها، حتّى شهر تشرين الأوّل (أكتوبر).

العاشرة والنّصف.

تضاءل مدى الرّؤية بالفعل. واختفت أضواء إيزو، وراح تورو يحدّث نفسه، ناعساً، بأنّ ذلك أفضل ممّا يكون الحال عليه في ليل ينيره سنى البدر الوهّاج. ففي اللّيالي المقمرة يصعب تبيّن أضواء السّفن في ألق الماء.

ضبط المنبّه على الواحدة والنّصف، ورقد في السّرير النّقّال.

ـ ٤ ـ

في الوقت نفسه، على وجه التّقريب، كان هناك حلم يتراءى لهوندا خلال نومه في داره.

كان قد دلف إلى فراشه مبكّراً، ونظراً لتعبه من جرّاء الرّحلة فإنّه سرعان ما غرق في النّوم. وربّما تحت تأثير بستان الصّنوبر الّذي شاهده، في ذلك اليوم، فقد دار الحلم حول الملائكة.

لم يكن ملاك واحد هو الّذي يحلّق فوق بستان صنوبر ميو، وإنّما حشد من الملائكة، ما بين ذكور وأناث، واستغلّ الحلم ما كان هوندا يعرفه عن الكتابات البوذيّة أفضلَ استغلال.

راح هوندا، في غمار الحلم، يحدّث نفسه بأنّ ما ورد في تلك الكتابات كان حقيقيّاً، وامتلأت نفسه بسعادة صافية.

هناك ملائكة تنتمي إلى عوالم الرّغبة السّتّة، وكائنات حسّاسة منتمية إلى عوالم الشّكل العديدة. والأولى معروفة بصورة أكبر. ولمّا كانت الملائكة ترفّه عن نفسها، في الحلم الّذي تراءى لهوندا، الإناث مع الذّكور، فقد بدا محتملاً أنّها تنتمي إلى عوالم الرّغبة.

حملت الملائكة سبعة ألوان: النّاري، الذّهبي، الأزرق، الأحمر، الأبيض، الأصفر، الأسود. بدا الأمر كما لو أنّ طائراً طنّاناً، عملاقاً، له جناحان يشبهان قوس قزح، راح يمضي جيئة وذهاباً وكأنّه ينسج ثوباً.

الشّعر أزرق، الأسنان تتألّق بالبياض لدى الابتسام. الأجسام هي النّعومة ذاتها، النّظافة عينها. والنّظرات تنطلق من عيون لا يطرف لها جفن.

واصلت ملائكة عالم الرّغبة من ذكور وإناث القدوم، على الدّوام، أحدها باتّجاه الآخر، ولكنّ ملائكة العالم الثّالث اكتفت بالتّماسك بالأيدي، وملائكة العالم الرّابع بتبادل الخواطر، وملائكة العالم الخامس بتبادل النّظرات وملائكة العالم السّادس الأسمى بتبادل الكلمات.

راح هوندا يحدّث نفسه، مؤكّداً أنّه جَمْع لا نظير له. كانت هناك زهور متناثرة، وعطور فوّاحة وموسيقى. وشعر هوندا بالنّشوة لهذا الولوج إلى عوالمها العديدة. وكان يعلم أنّه على الرّغم من أنّ الملائكة كائنات حسّاسة، أسمى من البشر، إلاّ أنّها لم تفلت من حلقة الميلاد والميلاد من جديد.

بدا اللّيل كما لو كان قد ضرب أطنابه، ومع ذلك فقد كان ضياء الأصيل متألّقاً. بدا أنّ النّهار يفرض حضوره، ومع ذلك كانت هناك نجوم، وهلال مقلوب إلى أسفل. لم تكن هناك كائنات بشريّة، إذا استثنى المرء هوندا نفسه. وراح يتساءل عمّا إذا لم يكن هو نفسه صيّاد أسماك حاول، عند ميو، سرقة رداء ملاك.

ورد الأمر في النّصوص البوذيّة المقدّسة على هذا النّحو: «ولدت الملائكة الذّكور عند ركبتي كبار الملائكة من الذّكور، والملائكة من الإناث عند كتفي كبار الملائكة من الإناث، وهي تعلم بالأماكن التي ولدت فيها سابقاً، وهي تنهل من نبع القداسة السّماوي».

بدت الملائكة، وهي تحلّق عالياً، وتنقضّ هابطة، وكأنّها تلهو بهوندا. وبأقدام مقوّسة اقتربت إلى مسافة تتيح مسَّ أنفه، راح يتابع الأصابع الزّهرية الشّهباء والأزهار الماضية وراء العنق، الّذي ابتسم محيّا صاحبه له ـ كان محيّا الأميرة التّايلانديّة ينج تشان، وقد توّج بالأزهار.

كانت الملائكة أقلّ اهتماماً بهوندا. وإذ كانت تدنو من كثبان الرّمال القريبة من البحر، فإنّها أخذت تغوص تحت الفروع الأكثر انخفاضاً في أشجار الصّنوبر. وقد عجز هوندا عن استيعاب كلّ شيء، وقد خطف الألق المدوِّم ناظريه، وانهلّت أزهار سماويّة، دونما توقّف، وتناهى صوت صافرة وناي سماويين، وامتلأت السّماء بشعر أزرق وتنانير وأردان ولفاعات من الحرير الخام، تتدلّى من الأكتاف على الأذرع، وقد راح النّسيم يلهو بأطرافها. طاف صدر أبيض لا يشوب كماله نقص أمام ناظريه، لحظة، وانسحب إلى رحاب البعيد باطنُ قدم نظيف. أوشكت على الاحتكاك بعينيه ذراع بيضاء، جميلة، ينيرها قوس قزح، وكأنّها في طريقها للإمساك بشيء ما. في تلك اللّحظة رأى فراغ قوام مفتوح في رقّة، وقد مضى قمر يطفو فيه. انفتحت ذراعان مضمّختان بعبق سماوي على اتّساعهما، وحلّقتا عالياً باتّجاه السّماء. مضت الخطوط الرّهيفة لردفين، وقد تحدّدت بوضوح، في مواجهة السّماء الزّرقاء، منطلقة كأنّها خطوط سحابة، ثمّ من بعيد أقبلت عينان لا تطرفان، سوداوان، نحوه، ثمّ بتخية رقيقة لجبين أبيض عاكساً النّجوم، اندفع القوام المقبل نحوه مبتعداً، وقد ارتفع كاحلاه.

استطاع هوندا أن يميّز بجلاء، وسط الملائكة الذّكور، كيواكي،

وإيساو، وقد بدا الأخير متّجهماً. وحاول تتبّعهما بناظريه، ولكنّه في غمار نمط أضواء قوس قزح المتقلّب على الدّوام لم يستطيع أن يتابع عن يقين شكلاً بعينه أكثر من لحظة واحدة، مهما كان تمهّل الأشكال في التحوّل.

نظر إلى البقعة الّتي رأى فيها ينج تشان، وراح يتساءل عمّا إذا كان الزّمن أكثر تعقيدا في عوالم الرّغبة، وما إذا كان الماضي والحاضر، إذ يغيّران شكلهما على نحو شجيّ، قد يحتلّان مكاناً واحداً. فانداحت التّراجيديا الصّغيرة الهادئة بعيداً على مهل، فيما كانت صلات جديدة تبدو وقد أخذت بالتشكُّل.

انتمت أشجار الصّنوبر وحدها إلى هذا العالم، وقد رسمت إبرها بالتّفصيل، وكان جذع شجرة الصّنوبر الحمراء الّتي استند إليها هوندا خشن الملمس صلباً.

سرعان ما وجد هوندا الحراك الّذي لا يكفّ لحظة، مثيراً للضّيق، بل لا يطاق. وكان مايزال يراقب المشهد وكأنّما من تحت شجرة أرز هنديّة عملاقة في حديقة. حديقة إذلال. تدوّي فيها أبواق السّيارات ليلاً. ومضى يرقب المشهد، مُخضِعاً كلّ شيء لعنصر مشترك هو الأكثر قداسة، والأكثر دنساً، من الأشياء. جعل كلّ شيء سواء، كان كلّ شيء سواء، من البداية إلى النّهاية. وفي اكتئاب عميق فتح عينيه، وانتزع الحلم، مُبعِداً إيّاه، مثلما ينتزع سابحٌ في المحيط، مقبلٌ على الشّاطئ، عشباً بحريّاً متشبّثاً به، ويلقي به بعيداً على الشّاطئ.

كان بمقدوره أن يسمع ساعته وهي تواصل دقّاتها، برقّة، على وسادته. أضاء مصباح الفراش، فألفاها تشير إلى الواحدة والنّصف.

خشي أن يظلّ مسهداً إلى أن يُطلّ ضوء النّهار.

ـ ٥ ـ

استيقظ تورو على رنين المنبّه، فمضى، بحكم العادة، إلى المغسلة، وراح يغسل يديه بمزيد من التدقيق، ثمّ مضى إلى التّلسكوب.

كانت الوسادة عند المنظار رطبة، على نحو دافئ ومقزّز. أبقى عينيه على مبعدة يسيرة، فلم يستطع رؤية شيء.

كان قد ضبط المنبّه على الواحدة والنّصف تحسّباً لاحتمال أن تصل في وقت مبكّر السّفينة زوين ـ مارو، المقرّر وصولها في السّاعة الثّالثة. نظر من جديد فلم ير شيئاً. ومنذ السّاعة الثّالثة تقريباً فصاعداً تدفّق البحر بالحياة؛ فقد اقتربت من اليسار مجموعات من زوارق الصّيد، ومحرّكاتها تهدر، وأضواؤها تتسابق للوصول إلى المقدّمة. ولبعض الوقت شابه البحر في أسفله سوقاً من أسواق الشّوارع، وراحت الزّوارق تسرع عائدة للّحاق بسوق الصّباح، في يازو، مقبلة من مناطق أوكيتسو الغنيّة بالسّردين.

التقط قطعة شيكولاته، ومضى ليسخّن لنفسه طبقاً من المعكرونة. تلقّى اتصالاً من محطّة اتصالات يوكوهاما، فقد تعطّلت زوين ـ مارو، ولن تصل إلاّ في الرّابعة، وهكذا كان بمقدوره أن ينام وقتاً أطول. تثاءب مرّات عديدة، وبدا التّثاؤب كما لو كان يشقّ طريقه من أبعد الأعماق في رئتيه.

الثّالثة والنّصف. ولم يبدُ في الأفق بعد ما ينمّ عن دنوّ السّفينة،

ولكي يبعد النّعاس الّذي تفاقم إلحاحه فقط هبط الدّرج، ومضى خارجاً، وراح يعبّ من الهواء البارد. كان ينبغي أن يبزغ القمر، ولكن السّماء اتّشحت بالسّحب، واحتجبت النّجوم. لم يستطع إلاّ رؤية صفوف من الأضواء الحمراء، عند مخارج طوارئ الحريق في مجمّع سكني، وعلى مبعدة أكبر لاح وهج من الأضواء حول ميناء شيميزو. تناهى إلى سمعه نقيق ضفدع، على نحو واهن، ولمح الدّيك الأوّل تباشير الفجر، في الهواء البارد، وبدت طبقات السّحب إلى الشّمال شهباء، على نحو خفيف.

دلف إلى الغرفة مجدّداً فألفى السّاعة تشير إلى الرّابعة إلاّ خمس دقائق. طردت الإطلالة الأولى للسفينة زوين ـ مارو النّعاس بعيداً، وأقبل ضياء الفجر الواهن، ولاحت أغطية الفراولة البلاستيكيّة وكأنّها مشهد طبيعي تكسوه الثّلوج. لم يصادف كبير عناء في معرفة هويّة السّفينة. وجّه مصباح الإشارات نحو الضّوء الأحمر القريب من اتّجاه الميناء فجاءه اسم السّفينة عاجلاً في معرض الردّ. وفي سنى الفجر مضت زوين ـ مارو تنزلق، على مهل، متّجهة نحو المرسى ٣ ـ ج.

في الرّابعة والنّصف لاح ألق خافت للغاية فوق السّحب، إلى الشّرق. كان الخطّ بين البحر والبرّ جلياً، وشرع الماء وانعكاسات زوارق الصّيد عليه في التشكّل والبروز للعيان.

فوق القِمَطْر، وفي ضوء يكاد يكفي للكتابة، راح تورو، دونما هدف واضح، يكتب مراراً وتكراراً: زوين ـ مارو، زوين ـ مارو، زوين ـ مارو. واكتسب الضّوء المزيد من القوّة مع انقضاء كلّ لحظة جديدة فرفع تورو ناظريه عن القِمَطْر، واستطاع تبيُّن طيّات الأمواج.

أشرقت الشّمس، في السّاعة الرّابعة والدّقيقة الرّابعة والأربعين، فمضى تورو إلى النّافذة الشّرقيّة، واجتذب الزّجاج إلى الخلف لينهلّ إلى الدّاخل بهاء اللّحظات الأخيرة الّتي تسبق الشّروق.

فوق البقعة الّتي ستشرق منها الشّمس مباشرة اجتذبت سحب رقيقة ثنيات عميقة، بارزة، تشبه طيّات تنورة تماماً، كأنّما هناك سلسلة جبليّة فوق اليحر، انسابت طبقات من السّحب الورديّة اللّون، في الأعالي، مع لمسات تناثرت هنا وهناك من اللّون الأخضر الضّارب إلى الرّمادي، وأسفل السّلسلة الجبليّة طفت سحب ذات لون رمادي فاتح، كأنّها البحر، التقط الجبل الوهج الوردي، حتّى أدنى سفوحه. وكاد أن يكون بمقدور تورو أن يرى بقع المنازل على المنحدرات البعيدة، وفوقها تخايل ما يتراءى كتلة ورديّة تزدهر.

حدَّث نفسه بأنّه جاء من مكان بعيد عن هنا، من أرض سرابية، تلوح للعِيان بين الحين والآخر، عبر فتحات في أديم السّماء، إذ يكسوها الفجر.

كان نسيم الصّباح بارداً، وقد اكتسبت البساتين الواقعة أسفل النّافذة خضرة منعشة، وبدت المحوِّلات الخزفيّة في الأبراج بيضاء، في سنى الفجر. امتدّ خطّ الأبراج مغرقاً في الإيغال باتّجاه الشّرق، نحو نقطة شروق الشّمس. ولكن الشّمس لم تُطِلّ. وفي لحظة الشّروق، على وجه الدّقّة، توارى اللّون الوردي، وامتصّته سحب زرقاء. ومكان اللّون الوردي المختفي تناثرت السّحب وكأنّها خيوط حريريّة، ولكن لم تكن ثمّة شمس.

أطلّت الشّمس، أخيراً، في الخامسة وخمس دقائق. ومن فتحة

في السّحب الرّماديّة القاتمة، عند الأفق، فوق البرج الثّاني على وجه الدّقّة، برزت في إطلالتها الأولى، قرمزيّة كئيبة وكأنّما هي في غمرة الغروب، لا الشّروق. انقطعت القمّة عن السّفح بحاجز من السّحب يشبه شفاهاً متألّقة. وطفت لوقت قصيرة ابتسامة ساخرة ارتسمت على شفتين ناحلتين، مصطبغة باللّون القرمزي، وسط السّحب. وإذ ازدادت الشّفتان نحولاً وتهافتاً فقد تركتا ابتسامة ساخرة كانت هناك، ولم تكن في الوقت نفسه، وحملت أبعاد السّماء العليا ضوءاً أكثر دفئاً وإشراقاً.

في السّاعة السّادسة، وعندما أقبلت سفينة تقلّ حمولة من الحديد المسحوب، كانت الشّمس سامقة، على نحو مدهش، كرة من الضّوء معتمة بما يكفي لترصدها العين المجرّدة. وفي ضوء سناها الواهن، بدا البحر المترامي إلى الشّرق ثوباً من ذهب.

اتّصل تورو بسفينة القطر، وبدار القبطان.

ـ صباح الخير، نيتشو ـ مارو وزوين ـ مارو وصلتا، نعم، من فضلك!

ـ شمال فوجي؟ لقد وصلت نيتشو ـ مارو وزوين ـ مارو. نعم، في الرّابعة والثّلث. زوين ـ مارو، ٣ ـ ج.

ـ ٦ ـ

تمّ تغيير نوبة العمل في التّاسعة. تركَ تورو قطع الشّيكولاته لمن أعقبه في العمل. لقد أخطأ القائمون بالتنبّؤ بأحوال الطّقس. كان يوماً صافياً، على نحو جميل. وبدت الشّمس، فيما هو ينتظر حافلته، أكثر تألّقاً من أن تحتملها عينان لم تنالا قسطاً كافياً من النّوم.

كان الطّريق الممتدّ نحو محطّة ساكوراباشي التّابعة لسكك حديد شيميزو يخترق حقول الأرز، ولكن هذه الحقول جميعها رُدمت، وقُسمت إلى قطع صغيرة من الأرض. كانت المناطق البرّاقة خليطاً من الحوانيت الجديدة يفتقر إلى الذّوق، شأن طريق رئيسي في بلدة ريفيّة أميركيّة. ترجّل تورو من الحافلة، وانعطف يساراً عبر غدير، وفيما وراء ذلك، كان هناك مبنى من طابقين يقطنه تورو.

ارتقى الدّرج الّذي تكسوه ظُلّة زرقاء، وفتح الباب الواقع في نهاية الطّابق الثّاني.

كان الحال على نحو ما تركه.، غرفتان أنيقتان مرتبتان، أُلحق بهما مطبخ، الأولى باتّساع ستّ حُصُر، والثّانية أربع حُصُر ونصف حصير، وقد بدت كلّ منهما مُعْتِمة، إذ أُغلقت مصاريع النّوافذ. وقبل أن يفتحها مضى ليشغّل السّخّان، من أجل الحمّام. وكان له حمّام خاصّ به، وإن يكن صغيراً، يتمّ تسخين مياهه بالغاز.

سئم هوندا، الّذي لا عمل له إلاّ التطلّع، مواصلة ذلك التطلّع، واستند إلى قاعدة النّافذة المطلّة على الجانب الشّمالي الغربي، وأطلّ على نشاط صبيحة الأحد، في الدّور الجديدة الواقعة فيما وراء بستان لبرتقال. راحت الكلاب تنبح، والقبّرات تدفّ، وسط أغصان أشجار البرتقان. وفي الشّرفات الجنوبية اقتعد رجال، صارت لهم أخيراً بيوت خاصة بهم، كراسيَّ مصنوعة من الأسل الهندي، وراحوا يقرأون الصّحف. لمح داخل الدّور نساء وضعن ميدعات على صدورهن. كانت السّقوف الّتي كُسيت بالقرميد حديثاً، ذات لون أزرق صارخ. وأصوات الأطفال تحاكي نثاراً من زجاج.

أحبّ تورو التطلّع إلى النّاس وكأنّما هو يتطلّع إلى حيوانات في حديقة حيوان. أصبح الحمّام جاهزاً. وكان يحظى دائماً بحمّام يستغرق طويلاً بعد العمل، ينظّف خلاله كلّ تجويف في جسمه، ولم يكن مضطراً إلى الحلاقة إلاّ مرّة كلّ أسبوع.

وقف عارياً، وعبر منصّة الغسيل، مقرقعاً، ودلف، دون أن يغتسل. لن يستخدم أحد الحمّام بعده، وقد ضبط منظم الحرارة الآلي، ولم يتغيّر ما أعدّ له، إلاّ بدرجة أو درجتين. وإذ أحسّ بالدّفء فقد نهض، وشرع في الاغتسال، على مهل. عندما كان التّعب ينال منه، ويعوزه النّوم، كان عرق بارد ينساب على وجهه وتحت إبطيه. أحدث الكثير من فقاعات الصّابون وراح يغسل ما تحت إبطيه بمزيد من الحرص.

انهلّ الضّوء من النّافذة مكتسياً باللّون الأبيض المرقّش بالزّرقة، فوق ذراعيه المرفوعتين، وسقط على الحلمة اليسرى، إلى جوار ما

تحت إبطٍ كسته فقاعات الصّابون، الآن. ابتسم. لقد ولد بثلاث شامات، ومنذ وقت لم يدر بأمده، بدت له كما لو كانت برهاناً، من لحم ودمّ، على غنائم لا حصر لها، هي مُلْك خالص له.

- ٧ -

كان هوندا وكيكو هيسا ماتسو رفيقين كاملين، في شيخوختهما. وعندما كان يمضي معها في جولة على الأقدام، كان الجميع يحسبهما زوجاً وزوجة ثريين، يناسب كلّ منهما الآخر. وكان بمقدورهما أن يرى أحدهما الآخر مرّة كلّ ثمانٍ وأربعين ساعة، دون أن يشعر بالضّجر، وقد أبدى كلّ منهما اهتمامه بمعدل الكولسترول لدى الآخر، وإصاباته بالبواسير والتورّمات الخبيثة المحتملة، وكانا بمثابة مخلوقين طريفين، بالنّسبة إلى الأطباء. وكثيراً ما غيّرا المستشفيات الّتي يتردّدان عليها بمعدل كبير؛ إذ ساورتهما الشّكوك في الأطباء جميعاً، بل إنّهما وصلا إلى تفاهم جليّ فيما يتعلّق بالأمور الاقتصاديّة الهامشيّة. وكانا طالبين مجتهدين من طلّاب علم نفس كبار السنّ، مع تنحية ما يتعلّق بحالتيهما النّفسيّة جانباً.

بل لقد وصلا إلى حالة من التّوازن فيما يتعلّق بالقابليّة للشعور بالضّيق فيتبنّى أحدهما الموضوعيّة الحذرة، عندما يغدو الآخر ضحية لشعور عبثي بالضّيق، ويعمد إلى تغذية كبرياء الآخر. وقد عالج كلّ منهما سقطات ذاكرة الآخر. فحينما ينسى أي منهما ما قاله لتوّه، أو يقول العكس تماماً، فإنّ الآخر (باعتبار أنّ الأمر كان يمكن أن يحدث له هو نفسه) يمتنع في تهذيب عن الضّحك.

وكان الغموض يهيمن قليلاً، بالنّسبة إليهما معاً، على أمور حدثت خلال العشر سنوات، أو العشرين سنة الأخيرة. ولكنهما كانا يتنافسان في الدّقّة، فيما يتعلق بالأمور العتيقة، المتعلّقة بالعائلة،

وكأنّهما يقرآن من سجل ذهبي. وغالباً ما كانا يصبحان مدركين للحقيقة القائلة بأنّه، إذ لا يُصغي أحدهما للآخر، فإنّهما ينغمسان في أحاديث متطاولة مع الذات.

وفي إطار هذا النّوع من الحديث مع الذّات، كان هوندا ينطلق في حديث من نوعية:

ـ والد سوجي، إنّه مؤسّس شركة سوجي للكيماويات. وقد أصبحت منذ ذلك الحين تُدعى شركة نيهون للكيماويات. لقد كانت زوجته الأولى تنتمي إلى عائلة عريقة في بلدته، تحمل لقب هونجي. ولكن الزّواج لم يكلّل بالنّجاح، فاستعادت اسمها قبل الزّواج، ثمّ تزوّجت مرّة أخرى، من ابن عم بعيد لها. كانت امرأة مقيتة، وقد ابتاعت داراً إلى جوار داره مباشرة، في كاجوماتشي، ثمّ أبلغها رجل مبارك، كان الجميع يتحدّث عنه ـ ترى ماذا كان اسمه ـ على أيّة حال، أبلغها بأنّ البئر قد حفرت باتّجاه سيّىء. وهكذا فقد فعلت، على وجه الدّقّة، ما أبلغها به، وشيّدت مزاراً يُطلّ من الحديقة، وتدفّق النّاس للصّلاة فيه. ولم يدم إلاّ إلى وقوع الغارات الجويّة، ولكن. . .

وكانت تلك هي نوعية الحديث الّذي تنغمس كيكو فيه:

ـ كانت ابنة خليلةٍ، وجعلها ذلك أختاً من الأب للنبيل ماتسوداير. وقد سقطت في هوى مغنٍ أوبراليّ إيطاليّ، وحرمت من الميراث، وطاردته حتّى نابولي فتهرّب منها، وحاولت الانتحار. ونشر ذلك في الصّحف كافّة. ابن عم لزوجة النّبيل شيشيدو. كان النّبيل شيشيدو الكبير يُدْعى عمَّها. وعلى أيّة حال فقد تزوّج ابن العم ذاك فتاة من عائلة ساوادو، وولدت له صبيّين توأمين، وما إن وصلا إلى العشرين

حتّى لقيا حتفهما في حادثي مرور، أحدهما وراء الآخر، وكانا مثالين لـ «تَوْأَمَي الحزن». الأمر مشهور، قد تكون قرأت عنه.

ولم يحدث قطّ أن كان المستمع منتبهاً لهذا الكشف عن شجرات الأنساب، ولكن ذلك لم يجعل الأمر مختلفاً، فعدم الانتباه أفضل من نظرة الضّجر الّتي تُطِلّ مُصاحِبةً للانتباه.

كانا يشكوان من شيء مشترك لم يرغبا في أن يعرفه أحد غيرهما: الشّيخوخة. وكلّ إنسان يرغب في الحديث عمّا يشكو منه. وقد كان حذقاً منهما اختيار المستمعين المناسبين. وتمثّل ما جعلهما مختلفين قليلاً عن معظم أمثالهما في أنّ كيكو لم تكن تشعر بالحاجة إلى المظاهر الكاذبة، أو التشبّه بالشّباب.

إثارة الضّجيج، التحيّز، العداء للشباب، الاهتمام الزّائد بالتّفاصيل، الخوف من الموت، الشّعور بالضّيق دونما تمييز، تلك كانت أموراً يجدها هوندا وكيكو أحدهما في الآخر، ولكنه لا يجدها في نفسه. وعندما يتعلق الأمر بالعناد فإنّ لدى كلّ منهما من الرّصيد ما يعادل ما لدى الآخر.

كانا يتميّزان بالتحمّل وسعة الصّدر حيال الفتيان، ويفتقران إليهما بشدّة حيال الشّبّان، وقد أحبّا الشّكوى من الشّباب ولم يُفلت «الزّنجا كورن» والهيبيّون من لسعات لسانيهما. البشرة النّاعمة، الشّعر الأسود الغزير، النّظرة الحالمة المرحة، كلّ ذلك كان بمثابة لعنة لأنّه من سمات الشباب. وقد قالت كيكو إنّه من الخطيئة أن يكون الرّجل شاباً، فداخل السّرورُ هوندا.

إذا كانت الشّيخوخة هي الواقع الأكثر استدعاءً للبؤس في تقبّله،

والتّعايش معه، بصورة مستمرّة، فإنّ هوندا وكيكو جعل كلّ منهما الآخر ملاذاً يأوي إليه، فراراً من هذا الواقع. ولم تكن حميميّتهما تقابلاً، وإنّما كانت تماسّاً في غِمار الاندفاع بحثاً عن ملاذ. كانا يتبادلان المنازل الخاوية، ويسرعان إلى إغلاق الأبواب خلفهما. وإذ يَمْثُل كلّ منهما داخل الآخر فإنّهما يتنهّدان بارتياح.

نظرت كيكو إلى الصّداقة الّتي تربطها بهوندا، باعتبارها التزاماً أميناً بوصية رايي الأخيرة. وكانت رايي، وهي تُحتضَر، قد أمسكت بيد كيكو وناشدتها أن ترعى هوندا. وهكذا فإنّها نظرت إلى مستقبل زوجها بأكثر الطّرق حكمة.

ومن ثمار هذا التوحّد رحلة إلى أوروبّا، في العام الماضي. وقد أصبحت كيكو بديلة لرايي الّتي رفضت بعناد الذّهاب، إذ كانت تمقت فكرة السّفر إلى الخارج، وفي كلّ مرّة اقترح فيها هوندا مثل هذه الرّحلة، كانت تطلب من كيكو الذّهاب بدلاً منها؛ إذ كانت تعلم حقّ العلم أنّ زوجها لا يحبّ السّفر معها.

سافر هوندا وكيكو، في الشّتاء، إلى البندقية وبولونيا. وكان البرد مزعجاً قليلاً، ولكنهما وجدا أنّ قِدَم البندقية وهدوءها شتاءً مناسبان لهما. لم يكن هناك سيّاح، ولم يكن لدى أصحاب الزّوارق ما يقومون به، وهم يتجمّدون برداً، وراحت الجسور تتراءى أمامهما جسراً وراء الآخر، وكأنّها رماد أحلام حاق بها الدّمار. وفي البندقية، كانت النّهاية كأجمل ما يمكن أن تكون، لأنّ الجمال تنهشه أنياب البحر والطّبيعة فيغدو هيكلاً عظمياً. وأصيب هوندا بنوبة برد، وعانى من درجة حرارة مرتفعة وصلت إلى حدّ الحمّى. وأدرك هوندا بفعل

السّرعة الّتي عثرت بها كيكو على طبيب يتحدّث الإنجليزيّة، وبفعل دقّتها في تمريضها إيّاه، أنّ وجودَ رفيق في الشّيخوخة أمرٌ ضروري.

في الصّباح انحسرت الحمّى عنه، ووجد عرفانه بالجميل تعبيراً عنه في شعور صبيانيّ بالحرج:

ـ كلّ هذه الرّقّة وهذا العطف الأمومي! الآن بمقدوري فهم السّرّ في حبّ الفتيات لك.

اصطنعت كيكو الّتي كانت في حالة معنوية بديعة الغضب:

ـ ليس هذان الأمران شيئاً واحداً، على الإطلاق. إنّني رقيقة مع الأصدقاء وحدهم. أمّا لكي تحبّني النّساء، فيتعيّن أن أكون قاسية، ولو أنّ الفتاة الّتي أحبّها أكثر من غيرها قد تعرّضت للحمّى، على هذا النّحو، فإنّه سيتعيّن عليّ أن ألقي بمخاوفي جانباً وأن أبادر إلى الهرب منها، ولسوف أفضّل الموت على الأخذ بنوعيّة التّرتيب الّذي تلجأ إليه الكثيرات، أي الحياة معاً، كما لو كانا زوجاً وزوجة، ورعاية إحداهما للأخرى في الشّيخوخة. هناك كثير من البيوت تقطن فيها نساء يدّعين الرّجولة مع فتيات ناحلات، على قدر فظيع من الإخلاص. إنّ الفُطر ينمو في الرّطوبة، وهذا ما يتغذّينَ به، إنهنّ ينسجن شرنقات ليّنة، ويتضاجعن بداخلها. والمرأة الّتي تدّعي الرّجولة هي دائماً من يعمل، وهنالك يرقدنَ خداً لخد، وهنّ يحسبنَ ضرائبهنّ. لا، ليست هذه بالمغامرة العاطفيّة الّتي أرغب في أن أكون جزءاً منها.

وبفضل قبح شيخوخة الرّجال، كان هوندا ضحية مؤهّلة على نحو مناسب لهذا التّصميم الّذي لا يعرف التّراجع. وإلى هذه النّوعية تنتمي عطايا الشّيخوخة غير المتوقعة.

وربّما كنوع من التّعويض، راحت كيكو تسخر من هوندا، لحمله معه نموذجاً مصغراً لقبر أجوف من الخشب، تذكاراً لرايي. وكان قد احتفظ به سرّاً، ولكن عندما أخذت الحمّى منه كلّ مأخذ، بدأ بترك تعليمات أخيرة، واثقاً من أنّه أصبح أخيراً على أعتاب الإصابة بالسّلّ. ومن بين هذه التّعليمات حمل نموذج القبر الأجوف المصغّر إلى اليابان مجدّداً.

قالت كيكو، بلهجة أبعد ما تكون عن الرّقّة:

ـ مثل هذه النّوع من الحبّ يجعل جلد المرء يقشعرّ! إنّها لم تكن ترغب في القدوم، وهكذا فقد حملتها قسراً ضد إرادتها[1].

صبيحة تماثله للشفاء، وجد هوندا في السّماء الصّافية ما يبعث السّرور في النّفس، وأضاف إليه هذا التّفريج المزيد من الابتهاج.

لم يكن واضحاً بالنّسبة إليه، حتّى بعد الملاحظات غير الرّقيقة الّتي انهالت بها كيكو عليه، ما الّذي يريده من رايي. لقد كانت زوجة عفيفة، حتّى النّهاية. ليس لديه شكّ في ذلك. ولكن كانت هناك أشواك في كلّ التّجاويف، وفي كلّ أركان تلك العفّة، فقد كانت رايي العاقر تُعلن على الدّوام التحفّظات الّتي يشعر بها هوندا نفسه تجاه الإنسانيّة. لقد جعلت من تعاسته سعادتها. وقد أدركت، على الفور، ما الّذي يكمن وراء إظهار عَرَضيّ للرقّة والعاطفة. حتّى الفلاّحون كانوا يصحبون زوجاتهم إلى الخارج هذه الأيّام. وفي ضوء ثراء هوندا فإنّ اقتراحه كان متواضعاً للغاية. وكان رفضها عنيداً على نحو غير عادي. بل لقد كانت في بعض الأحيان تصرخ في وجهه:

(١) من الجليّ أنّ الإشارة هنا هي إلى أنّ هوندا حمل معه، في النّموذج الخشبيّ، شيئاً من رماد جثمان رايي، بعد إحراقه (هـ.م.).

ـ ما الّذي تعنيه لندن والبندقية وباريس لي؟ إنّني عجوز. فما الّذي تتوقّع مني أن أحصل عليه من وراء ذلك، من وراء الجري إلى أماكن كتلك؟

ربّما كان حريّاً بهوندا، في شبابه، أن تردّه مثل هذه الحدّة في الحديث، ولكن هوندا الّذي تقدّم به العمر راح يتساءل عمّا إذا كان اقتراحه اصطحاب زوجته إلى الخارج كان يحتوي، في قرارته، على أي اهتمام عاطفي بها على الإطلاق. وكانت رابي قد أصبحت معتادة على النّظر بتشكّك إلى أيّة أدلّة على العاطفة، وقد أصبح هوندا أسيراً للعادة ذاتها، وربّما كانت خططه للسفر قد جسّدت دافعاً للقيام بدور الزّوج الفاضل. وإذ قلب كلّ شيء إلى نقيضه، جاعلاً مقاومة زوجته من قبيل عدم الثّقة النّسائيّة بالذّات، وبرودتها حرارة محتجبة، فقد راح يبحث عن برهان على فضله. وربّما أراد أن يحوّل الرّحلة بأسرها إلى احتفال بمرور مرحلة أو أخرى من مراحل الحياة. وقد التقطت رابي على الفور الدّوافع المبتذلة وراء تفضّله المصطنع، وتعلّلت بالمرض، وفي التوّ أصبح المرض الّذي تمّ تأكيده بشدّة حقيقياً، ودفعت نفسها دفعاً نحو الألم العضوي. ولم يعد للسفر مجال.

كان جلب نموذج القبر المصغّر تكريماً، بعد الوفاة، لإخلاص رابي، ولو أنّها شاهدت زوجها وهو يدفع بالنّموذج إلى حقيبة أوراقه (هذا الفرض حمل تناقضاً بالطّبع) فما أشدّ السخريّة الّتي كان حريّاً بها أن تنطلق عبرها مُغرِية في الضّحك! وأمّا اليوم فإنّ كلّ أنواع العواطف المنطلقة مسموح لهوندا بها. وكانت رابي الجديدة هي من سمح بها.

في ليلة عودتهما إلى روما، وكأنّما في معرض تقديم مكافأة لنفسها على خدماتها، جلبت كيكو إلى جناحهما في فندق إكسلْسيور فتاة صقليّة جميلة، كانت قد التقطتها في فيا فينيتو، قرب الفندق. وعكفت الاثنتان على امتاع نفسيهما، طوال اللّيل بأسره، بحضور هوندا.

فيما بعد، قالت كيكو:

ـ كان سعالك رائعاً. ولم تكن قد تغلّبت كلّية على البرد الّذي أصبت به، ورحت تسعل، طوال اللّيل، كأغرب ما يكون السّعال. ليس بمقدوري إبلاغك كم كان رائعاً الاستماع إلى ذلك السّعال الغريب، العتيق، بينما لديَّ في الفراش المجاور ذلك الجسد المرمري للاستمتاع به. كانت موسيقى خلفيّة، تَفْضُل أي موسيقى كان يمكن أن أشتريها. أحسست كما لو أنّني كنت أفعل شيئاً أو آخر، لا أعلم ما هو، على وجه الدّقّة، في مقبرة فخمة، بديعة.

ـ لقد كنت تصغين إلى الهيكل العظميّ.

ـ أصبت. كنت بين الحياة والموت. الوسيط بينهما. ولكن لا سبيل أمامك إلى القول بأنّك لم تقضِ وقتاً ممتعاً.

كانت كيكو تدرك تمام الإدراك أنّ هوندا قد أقبل نحوهما، ومضى يتحسّس قدمي الفتاة.

في غِمار الرّحلة، علَّمت كيكو هوندا كيفيّة لعب الورق. ولدى عودتهما دعته إلى حفل للعب الورق. وبعد تناول طعام الغداء مدّت أربع مناضد للعب الورق في قاعة الاستقبال.

كانت هناك مع هوندا، كيكو وامرأتان من الرّوس البيض، إحداهما عجوز، والأخرى عسراء في الخمسينيات من عمرها. امتدّ

الأصيل كئيباً، ماطراً. ولم يستطع هوندا فهم السّرّ في أنّ كيكو، المولعة بالفتيات الشّابّات، لا تدعو إلى هذه الحفلات إلاّ النّساء العجائز، الموغلات في العمر. وإلى جانب هوندا، لم يكن هناك إلاّ رجلان، هما رجل أعمال متقاعد، ومدرّس عجوز لفنّ تنسيق الأزهار.

أمضت المرأتان الرّوسيتان عشرات السّنوات في اليابان. وكان مصدر دهشة لهوندا أنّ ما تعلمتاه من اللّغة اليابانيّة لم يتجاوز تعبيرات مبسطة، مبتذلة، ممّا يُتبادل بين ذوي اللّغات المختلفة، تنطقانها بأصوات عالية للغاية. وقد عكفتا على الورق، عقب العشاء مباشرة، وأعادتا، في عجلة من أمرهما، وضع لمسات من أحمر الشّفاه والخدود على شفاههما.

منذ وفاة زوجيهما، وهما أيضاً من الرّوس البيض، استمرّتا في إدارة مشروع عائلي لتصنيع موادّ التّجميل الأجنبية. وكانتا بخيلتين للغاية، ولكنهما لم تكترثا بإنفاق المال على نفسيهما. فلدى إصابتهما بالإسهال الشديد، في رحلة إلى أوساكا، ورغبةً منهما في تجنّب الإحراج النّاجم عن رحلات لا حصر لها إلى المرحاض في طريق العودة، قامتا باستئجار طائرة خاصّة، ولدى عودتهما إلى طوكيو نقلتا إلى مستشفى كانتا معروفتين فيه.

كانت المرأة العجوز الّتي صبغت شعرها بصبغة بنّية اللّون، ترتدي كنزة صوفيّة فيروزيّة اللّون، وسترة موشّاة بالتّرتر، وكانت قلادتها اللّؤلؤيّة أثقل ممّا ينبغي. وكانت تجلس محنية الظّهر، ولكن الأصابع الّتي التقطت العلبة المُدْمَجة وأصبع الشّفاه، كانت ماتزال قويّة، قويّة

حتّى أنّ الشّفّة السّفلى المغضّنة اجتُذبت إلى أحد الجانبين. وكانت محارباً عنيداً، على مائدة لعب الورق.

كان الموضوع الأثير لديها هو الموت. وكانت على يقين من أن حفل لعب الورق هذا هو حفلها الوحيد. وأنّها مع حلول موعد الحفل التالي ستكون قد لقيت حتفها. وهي إذ تعلن قولها هذا، فإنّها تنتظر الاحتجاجات.

خطف التّصميم المتداخل لأوراق اللّعب المتناثرة على الخشب الإيطالي المزخرف، العين. وعلى أصبع المرأة الرّوسية القوي برز حجر عين الهرة عنبريّ اللّون، فوق الوجوه المطليّة باللك، مثل زورق انطلق به صيّاد. راحت أطراف أصابع مطليّة باللّون القرمزيّ، عند نهاية يدين تشوبهما البقع اللّونيّة، مثل بطن كلب بحر جنح على شاطئ لعدّة أيّام، تدقّ المائدة بعصبيّة.

أعادت كيكو، بنشر رشيق للأوراق، ترتيب مجموعتي الورق، على نحو يوحي بالخبرة. تُركت المجموعتان وأسفلهما مواجه لسطح المنضدة، بعد أن تلقّى كلّ لاعب إحدى عشرة ورقة، وتُركت ورقة واحدة ووجهها إلى أعلى، إلى جوارهما. كانت ورقة الثّلاثة الماسّيّة، وثمّة نوع من الجدّة المجنونة في لونها الأحمر. أمسك هوندا أنفاسه، فقد رأى فيها ثلاث شامات مخضّبة بالدّم.

الأصوات الخاصّة للعب الورق. الضّحك المنطلق من نبع يشبه المائدة، التنهّدات، صيحات الدهشة المقتضبة. كانت منطقةً لا حاجة لأن تكون فيها ضوابط في مسائل كالضّحك والتشكّك وعدم الارتياح وبراعة التقدّم في العمر. كان الأمر شبيهاً باللّيل في حديقة

لحيـوانـات الانفعـالات. فقـد تنـاهـى الضّحـك والصّيحـات مـن كـلّ الحظائر والأقفاص.

ـ إنّه دورك.

ـ لا، بل دورك أنت.

ـ ألم يحصل أحد على كاناستا بعد؟

ـ ولكن اللّوم سيُوجَّه إليَّ، إذ لعبت في غير دوري.

ـ إنّها راقصة جيّدة للغاية. وهي ترقص رقصة الجوّ ـ جوّ أيضاً.

ـ لم يسسبق لي أن ذهبت إلى قاعة لرقص الجوّ ـ جوّ قطّ.

ـ لقـد ذهبـت إلـى هنـاك، مـرّة واحـدة فقـط. أَلـقِ نظـرة علـى رقصـة إفريقيّة ذات مرّة. إنّها الشيء عينه.

ـ إنّني أحبّ رقص التّانجو.

ـ أحبّ الرّقصات القديمة.

ـ الفالس والتّانجو.

ـ الرّقصات القديمة عتيقة للغاية. أمّا هذه الرّقصات الجديدة فهي تشبه رقصات الأشباح. فالرّجال والنّساء يلبسون ملابس متشابهة، من الألوان كافّة.

ـ لكن قوس قزح جميل.

ـ أقواس قزح سرعان ما تصبح حيوانات بدورها، بهذا المعدّل، حيوانات من أقواس قزح.

ـ لـم يعـد لديَّ وقـت طـويـل للغـايـة، وكـلّ مـا أريـده هـو لعبـة ورق أخـرى قبـل أن أمـوت. هـذا هـو كـلّ مـا أريـد. وتلـك هـي رغبتـي الأخيرة. لعبتُ أوراقي الأخيرة، يا سيدة هيساماتسو.

ـ لا تقولي هذا مرّة أخرى، يا جالينا!

جعل هذا الحوار العجيب هوندا، الّذي لم تصل يده إلى شيء على الإطلاق، يفكّر في الاستيقاظ صباحاً.

كان أوّل ما يراه كلّ صباح، منذ بلغ السّبعين، هو وجه الموت. فإذ يستشعر مَقْدَم الفجر في الضّوء الخافت، عند الأبواب الورقيّة، فقد كان يستيقظ على التجمّع الخانق للمخاط، إذ يتجمّع المخاط ليلاً متحوِّلاً إلى كتلة حمراء، سوداء، ويغذّي صلابته الكابوسيّة الخاصّة. وذات يوم سيؤدّي أحدهم له الخدمة المتمثّلة في انتزاع هذا المخاط بين عَصَوَيْ تناول الطّعام، ورفعه بعيداً.

ومثل كمثرى البحر فإنّ كتلة المخاط من شأنها أن تبلِّغ هوندا من جديد كلّ صباح بأنّه مازال على قيد الحياة. ومع الوعي بالحياة تجلب الخوف من الموت.

اعتاد هوندا أن يُسْلِم نفسه لدفق من الأحلام كلّ صباح. وشأن بقرة فإنّه يمضي في الاجترار.

كانت الأحلام مضيئة، ومتألّقة، وأكثر امتلاء بسعادة الحياة من الحياة نفسها. وتدريجياً انعقد لواء الغلبة لأحلام الصّبا والشّباب. وفي الحلم يتذوّق الفطائر السّاخنة الّتي كانت أمّه قد أعدّتها له ذات صباح مكسوّ بالثلج.

لماذا تتّسم بالإلحاح حادثة صغيرة لا مغزى لها؟ لاشكّ في أنّ ذلك يرجع، على وجه الدّقّة، إلى أنّها حادثة صغيرة، لا معنى لها، جرى تذكّرها مئات المرّات، على امتداد نصف قرن من الزّمان. وما كان بمقدور هوندا نفسه فهم اليد الّتي تُحْكِم قبضتها على ذاكرته.

ربّما اختفت آخر بقايا غرفة تناول طعام الإفطار، فقد أعيد بناء

الدّار الواقعة في هونجو مرّات عديدة. كان هوندا، وهو في الصّفّ الخامس من المرحلة الثانوية في مدرسة النّبلاء، قد مضى، فيما يبدو في دار تابعة لإحدى الكلّيات، وهكذا مضى باتّجاه الدّار، جائعاً، ودون أن يحمل معه مظلّة تقيه.

كان يلج الدّار، عادة، من خلال باب المطبخ. ولكنّه في ذلك اليوم دار حولها؛ ليلقي نظرة على الثّلج في الحديقة. كان غطاء الحُصُر، الّذي وضع لحماية أشجار الصّنوبر من برد الشّتاء، مرقّشاً باللّون الأبيض. وعلت الزّخرفة البيضاء القناديل الحجريّة. وراح حذاؤه يقرقع عبر الثّلج، ولمح عن بعد تنورة أمّه، عبر نافذة غرفة طعام الإفطار الّتي يبلغ ارتفاعها مستوى الرّكبة. ها قد عاد إلى الدّار.

ـ لابدّ أنّك جائع. هلمّ! ولكن عليك بنفض الثّلج عن حذائك أولاً!

أحكمت أمّه الكيمونو الّذي ترتديه، حول جسمها. خلع هوندا معطفه، وانزلق إلى الكوتاتسو. راحت أمّه تؤجّج الجمرات وكأنّها تحاول تذكّر شيء ما، ثمّ أزاحت خصلة من شعرها بعيداً عن الرّماد. قالت، فيما هي تلتقط أنفاسها:

ـ انتظر لحظة، فلديَّ شيء طيّب لك!

وضعت مقلاة صغيرة على الجمرات، وحكّتها بورق مثقل بالدّهن. وصبّت حلقات من مخيض اللّبن والبيض على الدّهن السّاخن.

كان طعم تلك الفطائر هو الّذي تذكّره هوندا مراراً، في أحلامه. :

طعم العسل والزّبد الذّائب، في ذلك الأصيل الثّلجي. وما كان بمقدوره أن يتذكّر ما هو أكثر إمتاعاً في مذاقه.

ولكن ما السّرّ في أنّ جزئية فرعيّة واحدة قد أصبحت نواة ذكرى حملها معه طوال عمره؟ ما كان يمكن أن يكون هناك شكّ في أنّ هذه النّوبة، غير المألوفة، من الرّقّة من جانب أمّه القاسية قد أضافت المزيد إلى استمتاعه بالكعك. كان هناك حزن غريب مشتبك مع الذّكرى. الملمح الجانبي لوجه أمّه وهي تؤجّج الجمرات، الوهج على وجنتيها فيما هي تؤجّج مع كلّ نفس جمرات لم يكن مسموحاً لها بأن تدفّئ غرفة الاستقبال، في هذه الدّار المقتصدة، المعتمة، حتّى في الضّوء المنعكس من الثّلج، تلاعب النّور والظّلام، الظّلال المقبلة على وجنتي أمّه، في كلّ مرّة تلتقط فيها أنفاسها. وربّما احتجب، في زخم حركاتها وهذا التجلّي النّادر للرّقّة، ألم رفضت طوال عمرها الإفصاح عنه. ربّما جاء إليه شفّافاً وفوريّاً، في المذاق الثّريّ للفطائر السّاخنة عبر اللّهاة الشّابّة الّتي لم تتدرّب، في صورة عاطفة. على هذا النّحو وحده يجد الحزن تفسيراً له.

انقضت ستون سنة وكأنّها لحظة. أقبل شيء ما نحوه ليبعد عنه الوعي بالشّيخوخة، نوع من الابتهال والمناشدة، كأنّما دفن وجهه في صدرها الدّافئ.

شيء انطلق عبر ستّين عاماً في مذاق الفطائر السّاخنة، في يوم يكلّله الثّلج، شيء جلب المعرفة له، معتمداً لا على وعي بالحياة، وإنّما بالأحرى على سعادة مؤقّتة، نائية، تطيح بظلمة الحياة، على

الأقل في تلك اللّحظة، مثلما يقضي ضوء ناءٍ، في مستنقع مظلم، على ظلام يترامى بلا انتهاء.

لحظة. كان بمقدور هوندا أن يشعر بأنّه ما من شيء على الإطلاق قد حدث في الفترة الفاصلة بين هوندا ذي السّتّة عشر وهوندا ذي السّتّة والسّبعين عاماً. برهة، وقت يتيح لطفل في لعبة الحجلة أن يَثِب متجاوزاً خطّاً فاصلاً.

لقد رأى، بما فيه الكفاية، كيف أنّ يوميات الأحلام الّتي واصل كيواكي كتابتها بإخلاص، قد تحقّقت. ولديه ما يكفي من الأدلّة على سموّ الأحلام عن اليقظة. ولكنّه لم يظنّ أنّ حياته هو ستكون مليئة، على هذا النّحو، بالأحلام. كانت هناك سعادة في الأحلام الّتي انهمرت عليه، كالفيضانات على مسطّحات الأراضي الزّراعية التّايلانديّة، ولكنّها عكست حنيناً إلى ماضٍ لن يعود أبداً، وذلك في مواجهة العبق الفوّاح لأحلام كيواكي. شابّ لم تكن تساوره الأحلام أصبح عجوزاً يحلم بين الفينة والأخرى، وذلك كلّ ما هنالك. ولم يكن إلاّ القليل ممّا يربط أحلامه بالرّمز أو بالخيال.

جاء هذا الإغراق في مضغ الأحلام، وهو يرقد في الفراش كلّ صباح، في أحد جوانبه، من خوف من آلام التهاب المفاصل الّتي من المؤكّد أنّها ستعقب ذلك. وبوجود ذكرى الألم الّذي يكاد يمكن احتماله، والّذي دبَّ أمس في وركيه، فإنّ الألم هذا الصّباح سيسري ليبلغ كتفيه وجنبيه. ولَم يكن ليدري، إلى أن يغادر فراشه، أين سيندلع الألم. لم يكن ليدري، وهو مايزال راقداً في فراشه، وقد ذوى لحمه، وراحت عظامه تقرقع في البقايا الهلاميّة لأحلامه، في أفكار يوم من المؤكّد أنّه لن يجلب معه ما يثير الاهتمام.

كان عملاً يومياً مضجّراً أن يمدّ يده ليلتقط سمّاعة الهاتف المنزلي الّذي قام بتركيبه قبل خمس سنوات أو ستّ، فلسوف يتعين عليه أن يحتمل تحيّات الصّباح الحادّة الّتي تهتف بها مدبّرة الدّار.

وكان قد أبقى طالباً للقانون معه في الدّار، بعد وفاة رايي، ولكنه سرعان ما وجد الفتى مشاكساً فأبعده، ومنذ ذلك الحين لم يبقَ في الدّار الكبيرة إلاّ هوندا وخادمتان ومدبّرة الدّار. وكانت النّساء يتغيّرْنَ على الدّوام. وإذ ضاق هوندا بقذارة الخادمات وإهمالهن وافتقار مدبّرة الدّار للأمانة، فقد أدرك أنّ مفاهيمه لا تتفّق مع العادات والألفاظ العصريّة الّتي تأخذ بها نساء اليوم. وأيّاً كان اجتهادهن في العمل فإنّ كافّة سلوكيّاتهن وأساليبهن العصريّة في الحديث، مثل قولهن «لعبة طريفة» و«طيّب، نوعاً ما» وفتح الباب دون الاستئذان المناسب، والقهقهة العالية دون وضع اليد باحترام على الفمّ، والخطأ في الألقاب، والثّرثرة عن ممثّلي التّلفزيون، كلّ ذلك جلب شعوراً عضوياً بالاشمئزاز. وعندما يحدث، في غمار عجزه عن السّيطرة على هذا الشّعور، أن تفلت منه كلمة شكوى، فإن بمقدوره الوثوق من أنّ المرأة ستغادر الدّار في اليوم التالي. وإذ يتفوّه بشكوى إلى القائمة بالتدليلك، الّتي يستدعيها كلّ ليلة تقريباً، فإنّ عاصفة منزليّة ستهبّ. فقد تكوَّن لديها ميل عصري إلى أن يطلق عليها لقب «السّيدة» وهي ترفض الرّدّ إذا لم تخاطب على هذا النّحو، ولكنّه لم يكن بوسعه الاستغناء عنها.

وأيّاً كان مدى شكواه فقد كان التّراب يتراكم على رفوف قاعة الاستقبال، ويتحدّث مدرّس فنّ تنسيق الأزهار عن الأمر بدوره.

وإذ تصافح مجاملات مدبّرة الدّار الصّباحيّة مسامعه فإنّه يجد مشقّة في حمل نفسه على طلب الإفطار، ويثير ضيقه، على نحو لا سبيل إلى وصفه، وقع الأقدام الصّفيق، على الحصر، في الدّهليز، فيما الخادمتان تفتحان مصاريع النّوافذ. وتتوقّف صنابير المياه السّاخنة عن العمل أوقاتاً لا نهاية لها، ولا يتمّ إحلال أنبوب معجون أسنان جديد محل الّذي انتهى، إلاّ بعد أن يأمر بذلك. وكانت مدبّرة الدّار ترقب، على نحو لا بأس به، غسيل ملابسه وكيّها، ولكن الأمر اقتضى احتكاك بطاقة محلّ التّنظيف بعنقه لكي يعلم بأنّ الأمر كذلك. وكانت أحذيته تُلمَّع، ولكنّ الرّمل يتمّ إبقاؤه في حرصٍ بداخلها، ويترك ما انهمر على مظلّته، دونما اهتمام. ولم يكن ليدرك هذه التّفاصيل خلال حياة رايي.

وإذ يخدش أي شيء أو يمزّق أدنى تمزيق، فإنّه يُلقى به جانباً. وقد أدّى ذلك إلى كثير من المشاهد الّتي لا تبعث على السّرور.

ـ إنّك تُبلغني ضرورة إصلاحه، ولكن ليس هناك مكان في المدينة يقوم بذلك.

ـ ليكن، هلمّي، ألقي به، إذن!

ـ إنّه ليس شيئاً ثميناً، على الإطلاق.

ـ كونه ثميناً أو غير ثمين لا علاقة له بالأمر.

وفي التوّ يطلّ ازدراء فوريّ من عيني المرأة، إزاء هذا البخل.

وجعلته مثل هذه الحوادث أكثر اعتماداً على كيكو.

كانت كيكو قد أصبحت نشطة في متابعتها للثقافة اليابانيّة. وكانت تلك هي نزعتها الغرائبيّة الجديدة. وللمرّة الأولى في حياتها شرعت

في ارتياد مسرح الكابوكي، وكانت تعمد إلى مقارنة ممثّلين غير مناسبين بممثّلين فرنسيين مشهورين، وبدأت بتعلّم الموسيقى المصاحبة لمسرحيات النّو والقيام بجولات في المعابد لتذوّق الفنّ البوذي.

طلبت منه على الدّوم الذّهاب إلى المعابد الممكن ارتيادها. وكان، ذات مرّة، على وشك اقتراح معبد جيشو، ولكنّه لم يكن بالمعبد الّذي يُزار زيارة مَنْ خلا قلبه من الهموم مع كيكيو.

لم يحدث أن قام هوندا قطّ خلال هذه العقود السّتّة بزيارة ساتوكو، رئيسة كاهنات معبد جيشو. فعلى الرّغم من أنّه سمع بأنّها ماتزال على قيد الحياة وفي صحّة جيدة، إلاّ أنّه لم يتبادل الرّسائل معها قطّ. وخلال سنوات الحرب وما بعدها، سيطر عليه مرّات عديدة دافع يحدوه إلى أن يزورها، ويعتذر لها عن إهماله، ولكنّ الشّكوك كانت، على الدّوم، أقوى فواصل صمته.

لم ينسَ معبد جيشو للحظة واحدة، ولكن مع كرّ أعوام الصّمت، ازدادت قوّة ذلك الكابح الّذي فرضه على نفسه، والّذي تمثّل في أنّ معبد جيشو غالٍ على نفسه للغاية، وأنّه يتعيّن عليه، بعد كلّ هذا الوقت، ألاّ يغزو معقلها بالذكريات، وألاّ ينظر إليها في شيخوختها. وكان قد سمع من تاديشينا، في أطلال شيبويا الّتي دمّرتها الطّائرات، أنّ ساتوكو لم تزدد إلاّ جمالاً على جمال، مثلما يزداد الرّبيع رقّة وشفافيّة، كما أنّه هو نفسه لم يعجز عن تخيّل الجمال الّذي يعلو على الزّمن، والّذي تتمتّع به الكاهنة الموغلة في العمر. وقد سمع صديقاً له من أوساكا يصف هذا الجمال بنغمة في الحديث يكسوها الذّهول والإجلال. ولكنّ هوندا كان خائفاً، كان خائفاً من رؤية بقيّة

جمال ذاهب، وكان أكثر خوفاً من جمال حاضر، فساتوكو ستكون قد بلغت الآن مستوى من الاستنارة لا يبلغه هوندا، ولو أنّه في شيخوخته زارها لما أحدث ما يزيد عن تموّج في سكونها. وكان يعلم أنّها أبعد منالاً من أن تؤثّر فيها الذّكريات. ولكنّ صورة ساتوكو، الآمنة في سربها، في درع من الزّرقة القاتمة، بعيداً عن مطالع مقاليع الذّكرى، بدت، لدى النّظر إليها من خلال عيني كيواكي الميت، بؤرة أخرى لليأس.

وناء كاهله تحت وقر التّفكير في أنّ عليه أن يزور ساتوكو، مندوباً عن كيواكي وحاملاً الذّكريات.

كانت قد قالت له، في طريق العودة من كاماكو:

ـ هذا خطيئتنا، خطيئتي وكيو. . . وليس لغيرنا شأن بها.

مرّت ستون سنة، وماتزال هذه الكلمات ملء سمعه. ولو أنّه زار ساتوكو فلربّما تحدّثت، بعد ضحكة هادئة، في يسر، عن سلسلة الذّكريات. ولكنّ الرّحلة كانت أصعب من أن يحتملها. إنّه عجوز وقبيح وملطّخٌ بالخطيئة، ولمّا كان كذلك فقد بدت له التّعقيدات بسبيلها إلى التّزايد فحسب.

وكان معبد جيشو نفسه، الملتف في رقّة بثلج الرّبيع، أكثر بعداً، طبقة وراء الأخرى، مع ذكريات ساتوكو، فيما الأعوام تواصل مرورها. أكثر بعداً، ولكن ليس كبُعد الانسحاب إلى القلب. وفيما هو يسعى إلى تذكّر معبد جيشو لاح له متربّعاً على قمّة ثلجيّة، شأن معبد في جبال الهيمالايا، وقد تحوّل جماله إلى قسوة، ورقّته إلى يوم غضب. وإذ بدا مطلقاً في وضوحه، معبدَ قمر عند أطراف

الأرض تقريباً، مرقشاً ببقعة واحدة، هي العباءة الأرجوانيّة الّتي تلتفّ بها رئيسة راهبات موغلة في العمر وما يفتأ جمالها يزداد رقّة، فقد لاح وكأنّه يصدر عنه نور كالثّلج، كأنّه يقف عند نهايات الوعي والعقل ذاتها. وكان هوندا يعلم أنّ بمقدوره أن يصل إلى هناك في وقت جدّ قصير بالطّائرة أو القطار السّريع، ولكنّ معبد جيشو لم يصبح معبداً يزوره إنسان، ويتطلّع إليه، وإنّما شعاعاً من سنى القمر ينسلّ من خلال أبعد أبعاد وعيه.

بدا له أنّه إذا كانت ساتوكو هناك فإنّها ينبغي أن تكون دوماً هناك. وإذا كان قد شُدّ بالسّلاسل إلى الحياة الخالدة، من خلال الوعي، فلابدّ أن تكون ساتوكو عالية هناك، على مسافة لامتناهية، من جحيمه. ولاشكّ أنّ بمقدورهما أن تخترق حجب هذه المسافة بنظرة واحدة. وساوره شعور بأنّ الجحيم الّتي لا تنقضي لوعي ممتدّ ومثقل بالخوف وخلودها السّماوي قد توازنا. كان بمقدوره أن ينتظر ثلاثمائة عام، ألف عام، لكي يراها.

انتحل كلّ أنواع الأعذار، وعلى مرّ الزّمن بدت كلّ أعذار العالم له وكأنّها أعذار عن عدم زيارة معبد جيشو. كان شأنه شأن من ينكر جمالاً من المؤكّد أنّه سيجلب الدّمار. وأصبح رفضه زيارة معبد جيشو أكثر من تسويف. وكان يعلم أنّ زيارته له أصبحت استحالة، وربّما أضيق البوابات في حياته. ولئن أصرّ على القيام بزيارة لمعبد جيشو أَفَلا يُحتمل أن ينسحب المعبد أمامه وأن يختفي في سديم من نور.

أيّاً كان الأمر فقد وصل إلى الاعتقاد بأنّه، إذا نُحِّيَتْ أمور الوعي الّذي لا يموت جانباً، فإنّ الشّيخوخة قد أنضجت لحظة الزّيارة،

وربّما كان سيقوم بزيارته تلك، وهو على حافة الموت. لقد كانت ساتوكو مخلوقة تعيّن على كيواكي، لكي يقابلها، أن يخاطر بحياته، وكيواكي الجميل، الّذي مايزال في ميعة الصّبا ينادي هوندا، يحظّر هذا اللّقاء، ما لم يقم هوندا، الشّاهد على الاستحالة القاسية، بالمقامرة بحياته. وقد كان بمقدوره أن يلقاها إذا لقي حتفه بدوره. وربّما كانت ساتوكو تعلم بدورها سرّاً بوقت سوف يحين، وتنتظر فيه مقدمه. وتدفّق نبع عذب، على نحو لا سبيل إلى وصفه، من ينابيع الذّكرى، مجتاحاً هوندا الموغل في العمر.

وكون كيكو معه هنا هو أمر غير متّسق قليلاً.

ساورته شكوك بالغة القوّة في فهم كيكو للثقافة اليابانيّة. ومع ذلك فقد كان ثمّة ما هو جدير بالإعجاب في أنصاف معارفها المتّسعة النّطاق. وقد تجنّبت الادّعاء تماماً. وقامت بجولاتها في معابد كيوتو. وشأن السّيدات الأجنبيات ذوات الميول الفنية الممتلئات بالمفاهيم الخاطئة النّاجمة عن زيارة أولى لليابان كانت تندفع، مُعْرِبة بصوت عالٍ عن سرورها لرؤية أشياء ما عادت تهمّ معظم اليابانيين، وترتّبها في باقة زهر صغيرة زائفة. كانت مفتونة باليابان، كما يفتن المرء بالقارّة القطبية، وترتفع بقامتها، بكلّ الارتباك الّذي تعاني منه سيّدات أجنبيات دسسن أقدامهن في الجوارب، وهي تنظر إلى حديقة صخريّة. ولم تكن قد عرفت طَوال حياتها إلاّ المقاعد الغربيّة.

كانت تخوض غمار اندفاعة ثقافيّة حقيقيّة. واعتادت التّمسّك بمفاهيمها الغربيّة، عن الفنّ والأدب اليابانيّين، وإن أهملت جزئيّة هنا وهناك.

وكان ممّا درجت على القيام به، منذ وقت طويل، أن تدعو السّفراء الأجانب، دورياً، لتناول طعام العشاء. والآن أصبحوا جمهوراً يصغي إلى محاضراتها المترعة بالفخر، عن الثّقافة اليابانيّة. ولم يكن معارفها القدامى قد حلموا بأنّها سيأتي عليها وقت تكرمهم فيه بمجادلات حول السُتُر المزخرفة بالوريقات الذّهبية.

وحذّرها هوندا من عدم جدوى ما تقوم به:

ـ لكنهم ليسوا إلاّ أناساً عابرين، في ظلمة اللّيل، دونما شعور بالامتنان، على الإطلاق، ولسوف يمضون إلى وظائفهم التالية، في دول أخرى، دون أن تبقى في أذهانهم فكرة واحدة عن وظيفتهم الحالية. ما هي جدوى رؤيتهم ذاتها؟

ـ الطّيور العابرة هي الطّيور الّتي لا يتعيّن عليك أن تلزم الحذر حيالها. ليس عليك أن تقلق على عشر سنوات مقبلة، ووجود جمهور جديد كلّ ليلة هو أمر طريف للغاية.

لكنّها كانت تحمل نفسها على محمل الجد، وتهنّئ نفسها بطريقة ساذجة على دعمها للتبادل الثّقافي الدّولي، وتتعلّم رقصة جديدة، وفي التوّ تكشف النّقاب عنها أمام ضيوفها من السّفراء. وقد منحها القوّة علمُها بأنّ جمورها لا يحتمل أن يرصد أوجه الضّعف فيما تقدّمه.

وأيّاً كان الجهد الّذي ترتقي عبره كيكو بمعرفتها، فإنّه لم يكن كافياً لسبر غور الظّلام الّذي امتدّت فيه أعمق جذور اليابانيّين. كانت ينابيع الدّم القاتم الّتي عذّبت إيساو إينوما، تمتدّ بعيداً. وقد وصف هوندا ما أودعت فيه كيكو معارفها عن الثّقافة اليابانيّة بأنّه وعاء تجميد مليء بالخُضَر.

أصبح هوندا معروفاً في السّفارات بأنّه السيّد المهذّب الّذي تصادقه كيكو، وكانت الدّعوة توجّه إليه دائماً معها لحضور مآدب العشاء.

وقد أغضبه الأمر عندما وجد في إحدى السّفارات أنّ الخدم يرتدون الزّيّ الياباني الرّسمي، فقال:

ـ إنّهم يعرضون الأهالي المحلّيين، لا شيء أكثر من ذلك، تلك إهانة.

ـ لا يساورني هذا الشّعور على الإطلاق، فالرّجال اليابانيون يبدون أفضل مظهراً في الثّياب اليابانيّة. وسترة عشائك لا تفعل لي شيئاً مطلقاً.

عندما يشرع الضّيوف، في مأدبة عشاء دبلوماسيّة، رسميّة، في الانطلاق نحو قاعة الطّعام بنشاط هادئ، وقد تصدّرت السّيّدات المسيرة، وألقت الزّهور على المنضدة ظلالاً عميقة، بتأثير غابة من الشّمعدانات الفضيّة، وراح مطر الصّيف الهادئ ينهمر في الخارج، فإنّ الحزن المتألّق، النّابع من الأمر بأسره يبدو ملائماً تماماً بالنّسبة لكيكو. ولم تكن لتسمح بلمحة من الابتسامة الموحية بنيل الحظوة الشّائعة للغاية بين اليابانيات. كان فيها تقليد شامخ، في الوهج الشّامخ الصّادر عن القوام المتراجع، بل كان لها الصّوت المبحوح المكتئب الّذي ميّز أرستقراطيات اليابان القديمة. كانت كيكو تنبض بالحياة، بصحبة السّفراء الّذين كان سأمهم يتجلّى من خلال المذهّبات والمستشارين ذوي الدّمّ البارد، الّذين ينفرد كلّ منهم باهتماماته الخاصّة.

ولمّا كانا ينفصلان على المائدة، فإن كيكو كانت تحادثه بصوت هادئ، خلال المسيرة:

ـ لقد جلبت كتاب «ثوب الرّيش»، ولكني لم أزر ميو قطّ، خذني إلي هناك يوماً ما، في وقت قريب، فهناك أماكن عديدة لم أزرها قطّ.

ـ في أي وقت تشائين. لقد ذهبت إلى مرتفعات نيهوننديرا، مؤخّراً، ولكني لن يضيرني الذّهاب إلى هناك مرّة أخرى، ولسوف يسعدني للغاية أن أصحبك.

أطبقت ياقة قميصه المتصلّبة، بإصرار، على أسفل ذقنه.

ـ ٨ ـ

في مستهلّ مسرحية «ثوب الرّيش» ينهمك صيادان، أحدهما يحظى بدور البطل الثاني، في حوار. «ينادي النوتي، فيما هم يشقّون طريقهم عبر قناة ميو الحافل بالعواصف». وهناك يَرِد وصف الرحلة «فجأة، وعلى بعد ألف فرسخ، «تلفّ السّحب التّلال الودودة». يتدلّى ثوب بديع، طويل، من الحرير على شجرة صنوبر، في وسط المؤخّرة. يشرع هاكوريو في الانطلاق بعيداً به، مُحدِّثاً نفسه بأنّه سيغدو ثوباً له. تظهر البطلة، الملاك. ويتجاهل هاكوريو توسّلاتها بأن يعيد الثّوب إليها، فتشعر بالقنوط؛ إذ تعجز عن التّحليق عائدة إلى رحاب السّماء.

«يتشبّث هاكوريو بالثّوب، ويساورها الشّعور بالعجز، تنهمر دموعها، كالنّدى في شعرها المزيّن بالجواهر. تنخرط في البكاء، فتذوي الزّهور، وتتجلّى العلامات الخمس لسقوط الملاك».

في القطار السّريع المنطلق من طوكيو، كانت كيكو، تغمغم مردّدة المدخل. سألت، بتعجّل مفاجئ:

ـ وما هي العلامات الخمس لسقوط الملاك؟

كانَ هوندا على قسط وافر من الاطّلاع. وقد راجع موضوع الملائكة، بعد ذلك الحلم. والعلامات الخمس هي خمس مؤشّرات إلى أنّ الموت قد حلّ بملاك. وهناك تنوّعات، بحسب المصدر.

هاهي الصورة، بحسب ما ترد في الكرّاسة الرّابعة والعشرين من كتاب إيكوتارا ـ أجاما: «هناك ثلاثة وثلاثون ملاكاً وكبير للملائكة، وعلامات الموت بالنسبة إليهم خماسية، فتيجانهم المضفورة من الزّهور تذبل، وثيابهم تتّسخ، وآباطهم تغدو كريهة الرائحة، ويفقدون وعيهم بأنفسهم، وتتنحّى عنهم العذراوات المتزيّنات بالجواهر».

ويَرِد في كتاب «حياة بوذا» بالكرّاسة الخامسة: «هناك خمس علامات تشير إلى أن الوقت المحدد قد نفد، فالزّهور في الشعر تذوى ويتحّدر عرق نتن من الآباط، وتتّسخ الثّياب، ويكفّ الجسم عن أن يشعّ نوراً، ويفقد وعيه بذاته».

ويَرِد في الكرّاسة الأخيرة من سوترا المهامايا: «وفي ذلك الوقت طرحتها في عليين خمس علامات على سقوطها، فتاجها من الزّهور ذوي، وتحدّر العرق من إبطيها، وانحسرت هالتها النورانية، وطَرِفت عيناها دونما توقّف، وفقدت كلّ الرّضا بمقامها المشروع».

وحتى هذا الحدّ فإن التّشابهات تبدو أكثر بروزاً من التّباينات. ويصف الأبهيدارما مهافيبهاسا ـ ساسترا العلامات الخمس الكبرى، والعلامات الخمس الصغرى، بتفصيل ملحوظ. وتَرِد العلامات الصّغرى أولاً.

وفيما الملاك يحلّق ويدور حول نفسه، تصدر عنه عادة موسيقى تبلغ من الجمال حدَّ أنه ما من موسيقي أو فرقة موسيقية أو جوقة منشدين يمكن أن تقلّدها، ولكن فيما الموت يدنو تتلاشى الموسيقى، ويغدو الصوت رفيعاً، متوتّراً.

في الأوقات العادية، ليلاً ونهاراً، يتدفّق من داخل الملاك ضوء لا يسمح بوجود الظلال، ولكن مع دنوّ الموت يتقلّص الضوء بحدّة، ويلتفّ الجسم بظلال واهنة.

بشرة الملاك ناعمة وطيبة الملمس، وحتى إذا غمس نفسه في بحيرة من الأمبروسيا، فإن بشرته تزيح السائل جانباً على نحو ما تفعل وريقة اللوتس، ولكن مع مَقْدَم الموت يتشبّث الماء بها، ولا يدعها.

في معظم الأوقات فإنّ الملاك، شأن عجلة دوّارة من نار، لا يتوقّف ولا سبيل إلى إدراكه في موضع واحد، فهو هناك عندما يكون هنا، وهو ينساب ويتحرّك وينطلق متحرِّراً، ولكنْ مع اقتراب الموت فإنّه يتوانى في موضع واحد، ولا يستطيع الانطلاق منعتقاً منه.

يفيض الملاك بقوة لا تتوقّف، ولكن مع دنوّ الموت ترحل القوة، وتطرف عيناه، على نحو متواصل.

وهاهي العلامات الخمس العظمى: تتّسخ الثّياب التي كانت طاهرة دوماً، وتذوي الزّهور في التّاج الزّهري، وتتهاوى، ويتحدّر العرق من الإبطين، وتعمّ الجسمَ رائحةٌ نتنة، ولا يعود الملاك يشعر بالسّعادة في مكانه المناسب.

ولسوف يبدو واضحاً أنّ المصادر الأخرى تعدّد العلامات العظمى. ومادامت العلامات الصغرى وحدها هي الماثلة فإنّ الموت مازال من الممكن إبعاده، ولكن ما إن تتجلّى العلامات العظمى حتّى يخسر الشكّ عن الأمر.

وفي «ثوب الرّيش»، ظهرت إحدى العلامات العظمى، بالفعل. ومع ذلك فإنّ الملاك سيتعافى إذا ما أعيد الثّوب. وقد يتصوّر أن زيامي[1] قد سمح لنفسه بتلميح شعريّ إلى السّقوط والتّحلل، ولم يكترث بالجهد الحرفيّ لما ينصّ عليه التّقليد الفكري.

تذكّر هوندا، بوضوح فذّ، علامات السّقوط الخمس الواردة في «مطويّة كيتانو» وهي كنز قومي شاهده، قبل وقت طويل، في مزار كيتانو، ولديه نسخة تصويرية تشير إلى شيء، إلى أنشودة رهيبة النذير، كان قد أصمّ أذنيه عنها، قبل ذلك.

(١) زيامي Zeami: (١٣٦٣ ـ ١٤٤٣) هو الفنّان المسرحي الياباني الّذي نستطيع حقّاً، ابتداء منه، الحديث عن مسرح النّو الياباني التّقليدي، بمعناه الحقيقي. وكثير من المؤلفين لا يتردّدون في إدراجه مع أبيه كانامي (١٣٣٣ ـ ١٣٨٤) في مرتبة واحدة، في تطوير هذا الفنّ، غير أنّ مسرح النّو خرج من تحت معطف زيامي أكثر من أي فنّان آخر، فقد كان ممثلاً وكاتباً ومنظِّراً حقيقياً لهذا الشّكل الفنّي الفريد، في المسرح العالمي بأسره. ويُعزى ثلث ريبرتوار مسرح النّو إلى زيامي وحده، وكلّ جوانب الأداء في هذا الفنّ تتّبع التّقاليد الّتي أرساها. وكان هو الّذي شدّد على الطّابع النّبيل الّذي يسود أعمال النّو، ورفض إدراج ما يخدش الآذان أو العيون فيه، وعلى الطّابع الرّفيع المستخدم في الحوار، أيّاً كانت الشّخصية الّتي تنطق بهذا الحوار، كما أنّه جعل المَعِين الأساسي لأعمال مسرح النّو يتمثّل في كلاسيكيات الأدب الياباني، كما هو الحال في المسرحية المشار إليها في المتن، وقد كتبنا عنه في أكثر من دورية عربية واحدة، في إطار اهتمامنا بالمسرح الياباني. ومن سوء الحظّ أنّ القارئ العربي لا يجد مرجعاً واحداً قيّماً بلغة الضّادّ عن زيامي. وبالنّسبة إلى القارئ المتخصّص أو الرّاغب في الاطلاع على المزيد من المعلومات، فهناك عشرات المراجع، باللّغة الإنجليزيّة، ولكنّنا نوصي بصفة خاصة بالمرجع التالي:
Yasuda, Kenneth - Masters & the No theatre - Indiana University Press - Bloomington - 1990 (هـ. م).

في حديقة تحدّها الأساسات الجميلة لسرادق صيني، تعكف جموع من الملائكة على العزف على آلات القانون وقرع الطبول. ولكن ليس هناك ما يشير إلى الحيوية، إذ تردّت الموسيقى إلى مستوى الطّنين الكئيب الصّادر عن ذبابة، في أصيل صيفي، وأيّاً كان جذبهم للأوتار أو قرعهم على الجلود، فإن الأوتار والجلود تبدو متراخية، ومتعبة، ومتهالكة. وهناك زهور، في المناطق الأمامية من الحديقة، ووسطها ملاك غارق في الحزن، يضع رُدْنَيْ ردائه على عينيه.

لقد حلّ الموت على نحو مفاجئٍ للغاية، وارتسم عدم التّصديق على وجوه الملائكة البيضاء، الجميلة التي خلت من أي تعبير آخر.

وداخل السّرادق ملائكةٌ في أوضاع توحي بالاضطراب، البعض يحاول دونما جدوى رسم أقواس رشيقة بأرادن أرديتهم، والبعض يتلوّى، ويتقلّب، وهم يمدّون أيديهم بإعياء، فوق فراغات محدودة، ولكنّهم لا يستطيعون أن يمسّوا شيئاً، وقد اتّسخت أثوابهم على نحو مجرّد من المعنى، وتحدّر العرق المتّسخ من أجسامهم.

ما الذي يجري؟ لقد حلّت العلامات الخمس. والملائكة يبدون كأميرات لا مهرب لهنَّ، أطبق عليهنّ وباء، في حديقة استوائيّة محدودة.

تدلّت الزّهور ذابلة في شعرهم، وامتلأت تجاويفهم الدّاخلة فجأة بالماء، ، حتّى الزّور. لقد تخلّل جمع الملائكة اللّدن الرّشيق، تخلّل شفافاً عند موضع من المواضع، وفي الهواء الّذي يتنفّسونَه ذاته كمنت رائحة الموت.

هـاتـه الكـائنـات الحسّـاسـة التـي اجتـذبـت البشـر مـن خـلال حقيقـة وجـودهـا ذاتـه، إلـى عـوالـم الجمـال والخيـال، لا بـدّ أنّهـا الآن تبـدو عـاجـزة، إذ جـرّدت فـي لحظـة واحـدة مـن رقيتهـا السّحـريـة، مثـل وريقـات ذهبيّـة تتهـاوى كـالقِشـر، ويكتسحهـا نسيـم المسـاء. ليسـت الحـديقـة البـديعـة علـى نحـو كـلاسيكـي إلاّ منحـدراً، والغبـار الذّهبـي للجمـال العـاتـي واللّـذة ينحـدر إلـى أسفـل، وتمـزّق الحـريّـة المطلقـة المحلّقة في الخواء، مثلما يمزّق اللّحم. وتتجمّع الظّلال، ويموت النور. وتتقاطر القوة الرّقيقة، وتتقاطر من الأصابع الجميلة. وتتوهّج النّار في أعماق اللّحم إذ ترحل الروح.

لـم يخفـت نـور أرضيّـة السّـرادق، ذات المـربّعـات المشعّـة، والدّرابزين القرمزي، على الإطلاق، وستظلّ بقايا العظمة هذه قائمة هنالك، عندما تمضي الملائكة.

تحت شعر متألّق يتحوّل خيشومان إلى أعلى، تبدو الملائكة كما لو كانت تشتـمّ البـادرة الأولى لرائحة السّقوط. ها قد ذهبت كل البَتَلات الملتوية فيما وراء السّحب، الانحسار اللاّزوردي الّذي يلوّن السّماء وكل ملذّات البصر والرّوح، كل الامتداد الممتع للكون.

هتفت كيكو مطالبة هوندا بالتوقّف:

ـ جيد. جيد. إنك متضلّع من الأمر.

أومأت بقوّة، ومسّت أذنيها بزجاجة إستي لودر عصرية. كانت ترتدي سروالاً بزخارف ثعبانية، وبلوزة من النّسيج ذاته، وحزاماً من جلـد الشّمـواه، قُلـب عنـد الوركيـن، وتعتمـر قبّعـة إسـبـانيـة عـريضـة الحوافّ سوداء اللّون.

كـان هونـدا قد دهش قليلاً لرؤيته هذا الزيّ، عندما لمحها وهي ترتديه للمرّة الأولى، في محطة طوكيو، ولكنّه امتنع عن التّعقيب على تأنّقها.

إن هي إلاّ خمس دقـائق أخرى أو ست، ويصـلان إلى شيـزوكـا. فكّر في تلك العلامة الأخيرة، فقدان الوعي بالمكان. إنّه هو الّذي لم يكن لديه مثل هذا الوعي في المقام الأوّل، وقد واصل الحياة، ذلك أنّه لم يكن ملاكاً.

تذكّر، شارداً، فكرة كانت قد خطرت له في سيارة الأجـرة التي أقلّتـه إلى المحطة. وكـان قد طلب إلى السّـائق أن يسـرع، واستقلاّ القطار السّريع من غربي كاندا. راح مطر صيفي خفيف مبكّر يتقاطر لفترة لا يستطيع تحديد امتدادهـا. شقّا طـريقهمـا وسط المصـارف ودور المضـاربـة بسـرعـة خمسيـن ميـلاً فـي السـاعـة. بـدت المبـانـي الضخمة الممتدّة، وقد ترامت أجنحتها الهائلة من الصّلب والزّجاج. قال هوندا لنفسه: «في اللّحظة التي سأموت فيها، ستختفي كلها». راودته هذه الفكرة، باعتبارها فكرة سعيدة، نوعاً من الانتقام. لن يكون أمراً شاقّاً، على الإطلاق، أن يمزّق هذا العالم من جذوره، وأن يعيـده إلى الخواء، فكـل مـا عليـه هـو أن يمـوت. وسـاوره شعـور محدود، معيّن، بالكبرياء إزّاء الفكرة القائلة بأنّ رجلاً عجوزاً سرعان مـا يعمّـه النّسيـان، مـايـزال يملـك، فـي غمـار المـوت، هـذا السّـلاح المدمِّر على نحو لا سبيل إلى مقارنته. ولم تكن العلامات الخمس تشكّل بالنّسبة إليه مصدراً للخوف.

- ٩ -

كان هناك أمر واحد يثقل على ذهن هوندا وهو يرافق كيكو إلى بستان الصّنوبر، في ميو. فقد كان يخشى الإطاحة بروحها المعنوية العالية من خلال إطلاعها على الابتذال المطلق الّذي تردّى إليه هذا المكان الأكثر جمالاً بين البقاع اليابانية الجديرة بالزّيارة.

ورغم أنّ هذا اليوم كان يوماً ماطراً، من أيام الأسبوع العادية، فإن مرأب السيارات الهائل ازدحم بها، وعكس الورق الشفّاف المتّسخ في حوانيت الهدايا - التذكارية سماء رمادية، كابية، لكنّ ذلك لم يبدُ أنّه قد ضايق كيكو على الإطلاق.

- جميل. بديع تماماً. استنشق الهواء العليل ورائحة الملح! إنّ البحر قريب جداً.

وفي حقيقة الأمر فإنّ الهواء كان مُشْبَعاً بدخان السيّارات، وكانت أشجار الصّنوبر على شفا الاختناق. وشعر هوندا بتحسُّن، إذ كان قد زار المكان قبل عدّة أيام، وكان يعلم ما ستقوله كيكو.

كانت بنارس قذارة مقدّسة. القذارة نفسها كانت مقدّسة. تلك كانت الهند.

ولكن في اليابان، فإنّ الجمال والعرف والشعر لم تمسّ أياً منها يد القداسة المتّسخة. وأولئك الذين مسّوا هذه الأشياء، وخنقوها في نهاية المطاف، كانوا مجرّدين تماماً من القداسة، كانت لهم الأيدي ذاتها وقد دُلّكت بالصّابون بقوّة.

حتّى في بستان صنوبر ميو، ردّت الملائكة في جمجمة الشّعر الخاوية على مطالب البشر التي لا سبيل إلى الإفصاح عنها، وأجبرت على أعداد لا حصر لها من الانحناءات والالتفافات، مثل لاعبي السيرك. بدت السّماء الملبّدة بالغيوم وكأنّها مرقّشة بحشد من أسلاك الضّغط العالي صنعتها رقصاتهم. وفي الأحلام لن يلتقي البشر إلاّ بآثار سقوط الملائكة.

تجاوزت العقارب السّاعة الثّالثة. «بستان صنوبر ميو. حديقة مقاطعة نيهونديرا». لفّت الأُشنّة الخضراء لحاء الشجرة الخشن. وفوق درج حجري رقيق، أرسلت أشجار الصّنوبر سهاماً خشنة من البرق عبر السّماء. وحجبت البراعم وأقنعة من الدّخان الأخضر، تنفثها حتّى الصّنوبرات المختنقة، البحرِ المتجرِّد من المياه.

قالت كيكو بابتهاج:

ـ البحر!

لم يثق هوندا بصدق هذا الابتهاج، فقد كان فيه قليل من أسلوبها الذي تعتمده في الحفلات، من الإشادة بالدّارة التي تحلّ ضيفة عليها. غير أنّ المبالغة يمكن أن تنفث السرور في شيء لا قيمة له على الإطلاق. لم يكونا على الأقلّ وحيدين.

خارج حانوتين أتخمت رفوفهما المستندة إلى دعامة من طرف واحد بصناديق الكوكاكولا الكرتونية الحمراء والهدايا التذكارية، انتصبت دميتان ممّا يحتفظ به المصوّرون، لهما فتحتان لوجهين: جيروتشو، رئيس ميناء شميزو في وسط مجموعة شاحبة من أشجار الصّنوبر، وأوتشو، صديقته. وقد كتب اسم جيروتشو على مثلّث المظلّة التي حملها برفق، وكان يرتدي ثوب سفر، ويحمل معه عصا

تساعده على السّير، ووضع قفازاً أزرق فاتحاً، ودسّ ساقيه في طماق، وارتدى كيمونو مُحكماً تميّزه خطوط زرقاء وبيضاء. وأمّا أوتشو فقد رفعت شعرها عالياً، وارتدت كيمونو من قماش حريري، أسود، لامع، وزنّاراً من قماش هاتشيجو، أصفر متصالب الخطوط.

استحثَّ هوندا كيكو على المضيّ نحو أجمة الأشجار، ولكنّها افتتنت بالدّميتين. وراحت تكرّر اسم جيروتشو مراراً لنفسها. ولم تكن تعلم شيئاً عنه، ماخلا اسمه، دون إلمام حتّى بالحقيقة الأوّلية القائلة بأنّه كان مقامراً شهيراً. وتركتها محاضرة هوندا عنه أكثر افتتاناً به.

أبهجتها الأضواء المثقلة بالحنين إلى الماضي، والسوقية الوحشية المحيطة به. وحيثما بحثت في حياتها بحصادها النّائي من الشّهوانيات فلم يكن بمقدورها الوصول إلى مثل هذا الصّوت الوحشيّ والحزين في سوقيّته. كانت فضيلتها الكبيرة هي أنّها دون أفكار مسبّقة. وكان كل ما لم تره وما لم تسمع به من قبل قطّ «يابانياً» حتّى النّخاع.

سعى هوندا، بغضب تقريباً، إلى فضّ غرامها بالدّمية.

ـ آه. كُفّي عن ذلك! إنّك تجعلين نفسك كالبلهاء.

ـ أتعتقد أننا مازلنا كلانا نملك رفاهية أن نكون أبلهين؟

باعدت ما بين ساقيها الملتفّين بالقماش ذي الزّخارف الثّعبانية، ووضعت يديها على وركيها، ووقفت في وضع الأمّ الغربيّة التي تقرّع طفلها. وتألّق الغضب في عينيها. لقد شوّه الشِعْر.

استسلم هوندا. وكانا قد شرعا في اجتذاب أنظار الجمهور. أقبل

المصوّر عَذواً بحامل الكاميرا المثلّث والقماش القطيفي الأحمر. وفيما هوندا يتوارى وراء الدّمية؛ ليتجنّب العيون الفضوليّة، ظهر وجهه عند الفتحة، الموجودة في رأس الدّمية، فضحك الجمع، وضحك المصوِّر الضّئيل الحجم، وعلى الرّغم من أنّه لم يَبْدُ من المناسب تماماً أن يضحك جيروتشو، فقد ضحك هوندا بدوره. جذبت كيكو رُدْن ردائه، واحتلّت مكانه. لقد غيّر جيروتشو جنسه، وكذلك الحال بالنّسبة لأوتشو، فعلا الصّخب والمرح على نحو أكبر. ثمل هوندا. كان قد عرف الكثير من ثقوب التلصّص، ولكنّه لم يجتز تجربة الصّعود إلى مِقصلة لجلب السّرور لجموع صاخبة.

استغرق المصوّر وقتاً طويلاً في إعداد عدساته؛ ربّما لأنه أصبح قبلة الأنظار.

ـ الصّمت، رجاء!

ساد الهدوء الجمع.

نتأ وجه هوندا الهضيم من الفتحة المائلة إلى أسفل فوق الزنّار الأصفر المتصالب الزّخارف. كان قد اتّخذ موضعه منحنياً، وقد برز ورِكاه، عند ثقب التلصّص في نينوكا. وراء مشهد هاتين الدّميتين المذلّتين الأثريتين، حدث تحوّل سريع، مراوغ، فيما هوندا يؤكّد، دون أن يأبه بضحك الجمهور أنّ عالمه بأسره قد قام على فعل الرصد والمراقبة. لقد اضطلع بهذا الدّور، وغدا النظارة هم الّذين ينظر إليهم الآخرون.

كان هناك بحر، وثمّة شجرة صنوبر هائلة، وقد لُفّ جذعها بالحبال: صنوبر الثّوب السّماوي. احتشدت المنحدرات الرّملية

الرقيقة المفضية إليها بالمشاهدين. وتحت السّماء المرقّشة بالسّحُب بدت ألوان ثيابهم العديدة كابية، وكأنّها لون زيّ رسمي، وجعلتهم الريح التي تخلّلت شعرهم يبدون وكأنّهم شجرة صنوبر مقلوبة إلى أعلى وقد دبّ إليها الفساد. كانت هناك جماعات متناثرة من النّاس، وأزواج ينطلقون كلّ اثنين معاً، وعين السّماء البيضاء الهائلة تنهلّ عليهم، وفي السّور الذي كان مرتبتهم الأرفع حُظِر الضّحك. راحوا يحدّقون في هوندا بخواء حجري.

نساء يرتدين الكيمونو، وقد أمسكن بحقائب التسوّق، رجال في أواسط العمر يرتدون حُـلـلاً سيّئة التّفصيل، صِبْية في قمصان ذات زخارف خضراء متصالبة، وفتيات سمينات السّيقان انْدَسَسْنَ في تنورات قصيرة. رآهم هوندا يحدّقون في موتهم. كانوا ينتظرون شيئاً ما، حدثاً طريفاً للغاية إلى حدّ أنّه لا بدّ أن تكون له عظمته الخاصّة. شفاه مرتخية في ابتسامات ودودة. عيون متوهّجة بهيمية مجرّدة.

ـ هدوءاً!

هتف بها المصوّر، ورفع يده عالياً.

سحبت كيكو مسرعة رأسها من الفتحة. وقفت أمام الجمع في شموخ وكأنّها قائد من النّبلاء. جيروتشو، وهي تهزّ رأسها، أصبحت شخصاً يرتدي سروالاً ثعبانياً، ويعتمر قبّعة سوداء عريضة الحوافّ. صفّق الجمهور. كتبت كيكو، بهدوء، عنوانها للمصوِّر. قرَّر كثير من الشّباب أنّها كانت ممثّلة مشهورة تنتمي إلى عهدٍ خلا؛ فهرعوا نحوها بأوتوجرافاتهم.

كان هوندا قد أخذ منه التعب لدى وصولهما إلى شجرة الصنوبر.

بدت صنوبرة عملاقة توشك على الفناء، وقد نثرت أذرعها باتّجاهات عديدة وكأنّها أخطبوط، وقد ملئت الشّقوق في الجذع بالأسمنت. كان النّاس يرفّهون عن أنفسهم حول شجرة تفتقر حتّى إلى الدّفق المناسب من إبر الصّنوبر.

ـ أتظنّ أنّ «الملاك» كانت ترتدي ثوب استحمام؟

ـ أهي شجرة مذكّرة؟ هل هذا هو السّبب في أنّ المرأة اختارتها؟

ـ لم يكن بمقدورها الوصول إلى القمّة.

ـ عندما تلقي نظرة فاحصة عليها فإنّك لا تجدها شجرة صنوبر جيدة.

ـ ولكن أليس من الجميل أنّهم أفلحوا في إبقائها على قيد الحياة؟ ما عليك إلاّ الشّعور بنسيم البحر!

وكانت شجرة الصّنوبر تميل نحو البحر، حقّاً، بعدوانية تفوق ما تفعله شجرة صنوبر درّبها البحر على ذلك. وكانت الخدوش الّتي أحدثها البحر في جذعها بلا حصر، على نحو ما يحدث لهيكل سفينة جانحة. ونحو البحر، انطلاقاً من الحاجز الرّخامي، انتصب منظار ميداني على قاعدة مزدوجة حديثة، قرمزية اللّون، وكأنّها طائر استوائي. لاحت شبه جزيرة إيدو شهباء اللّون في البعيد. ومضت سفينة نقل للبضائع تعبر البحر. وكأنّما كان البحر يعرض بضائعه للبيع، فقد اتّسم المدّ العالي بدفعه لدائرة من الأخشاب الطّافية والزّجاجات الفارغة.

ـ طيّب، ها هي ذي بين يديك، البقعة الّتي رقصت فيها «الملاك» الرّقصة السّماوية لاستعادة ثوبها المصنوع من الرّيش. هنالك الجميع

يلتقطون صوراً لأنفسهم من جديد، هكذا يتمّ إنجاز الأمر. لا تنظري حتّى إلى شجرة الصّنوبر، وإنّما دعي صورتك تُلتقط. أتحسبين أنّهم يعتقدون أنّ ثمّة كبير فارق في أنّهم في موضع حدث فيه شيء متميّز، ويبقون وقتاً كافياً لالتقاط صورة لهم؟

اقتعدت كيكو أريكة حجرية، وأشعلت سيجارة:

ـ إنّك تأخذ الأمر بجدّيّة أكثر ممّا ينبغي. إنّه مكان جميل، ولست أشعر على الإطلاق بخيبة الأمل. وقد يكون قذراً، وربّما تكون الشّجرة موشكة على الموت، ولكنّ في الأمر سحراً. ولو أنّ كلّ شيء كان جميلاً، وحالماً، على نحو ما تصوّره المسرحية، فإنّ الأمر سيكون كذبة. إنّ النّزعة الطبيعيّة يابانية للغاية. وأنا سعيدة بمقدمنا إلى هنا.

وهكذا انتزعت كيكو قصب السّباق.

لقد استمتعت بكلّ شيء. وكانت تلك هي ميزتها الّتي تجعلها شبيهة بملكة.

في غمرة السّوقية والابتذال الثّقيلين والشّاملين، كالرّيح الحارّة المثقلة بالرّمل، خلال الأمطار الصّيفيّة، رأت، بسعادة ومرح، مشاهدها، وحملت هوندا معها. ولدى عودتهما ألقيا نظرة على مزار ميو. عند طنف المزار، وعلى اللّوح الخشن المؤطر، كانت هناك لوحة مقدَّمة وفاءً لنذر، مؤلّفة من تصوير بارز قليلاً، لسفينة ركاب صُنعت حديثاً. وإذ أرخت عنانها لبحر أزرق فقد بدت مناسبة تماماً لمزار في ميناء. وفي مقابل جدار مؤخّرة المزار كان هناك لوح كبير، على شكل زعنفة، حفرت عليه الأحرف الّتي تعني «ممنوع

الأداء». وكان قد قدم قبل ستّ سنوات في سرادق الرّقص.

كان هناك إعلان عن برنامج تأثّرت به كيكو «يوم للسيدات كاميوتا، تاكاساجو، ياشيما، ثمّ ثوب الرّيش»[1].

في أعقاب هذا الانفعال التقطت ثمرة كرز، من أسفل إحدى الأشجار المصطفّة على الجانبين، وأكلتها.

ـ انظر ما أفعله، إنّني أدعو الموت.

بدأ هوندا، وقد تقلقلت خطاه بعض الشيء، بالشّعور بالندم على أنّ الغرور قد منعه من إحضار عصاه. راح يلهث، ويستاف الهواء، وكان قد تخلّف وراء كيكو، عندما هتف محذّراً.

تراقصت في النّسيم لافتات متشابهة عُلِّقت في الحبل الّذي انتظم جذوع الأشجار.

ـ خطر. مبيدات حشرية سامّة، ممنوع التقاط الثّمار أو تناولها.

كانت الأغصان المثقلة بالثّمار، من اللّون الأحمر الوردي الشّاحب، إلى الأحمر الدّموي القاتم، تحتشد بعقد صغيرة من الورق تحمل صلوات وابتهالات. وقد التهمت الطّيور بعض ثمار الكرز، تاركة البذور. وساور هوندا الشّكّ في أنّ اللاّفتات ليست إلاّ تهديدات جوفاء. وكان يعلم أنّ جرعة صغيرة من السّمّ ليست كافية لكي تودي بكيكو.

(١) هذه هي فقرات برنامج الحفل المعلن عنه. وهو، بالطّبع، لا يضمّ هذه المسرحيات كاملة وإنّما درج العرف على تقديم المقاطع الأكثر بروزاً من المسرحيات، وهي تبرز قدرات الممثلين على الأداء الخارق، في مواضع بعينها، والوقوف عند مواقف ذات شحنة انفعالية هائلة. (هـ. م.).

ـ ١٠ ـ

مضت كيكو تلحّ في السّؤال عمّا إذا لم يكن هناك المزيد ممّا يمكن مشاهدته، وعلى الرّغم من أنّ هوندا كان مرهقاً، إلاَّ أنّه أمر السّائق بالعودة إلى شيزوكا، عن طريق جبل كونو. وتوقّفوا أمام محطّة الإشارة الّتي كان هوندا قد رآها قبل أيّام.

تطلّع هوندا إلى أعلى، من وسط فيض عشب الرّجلة المترامي عند القاعدة الحجريّة، وقال:

ـ ألا يبدو لك بناء مثيراً للاهتمام للغاية؟

ـ أحسب أنّي رأيت منظاراً ميدانياً. فيمَ يُستخدم؟

ـ إنّه يداوم على مراقبة تحرّكات السّفن. هل نلقي نظرة في الدّاخل؟

كانا قد تسلّقا الدّرج الحجري الّذي يدور حول القاعدة، ووقفا عند أسفل الدّرج الحديدي، عندما احتكت فتاة بهما محدثة قعقعة حديديّة في الدّرج، وكانت من القرب بحيث هتف أحدهما محذّراً الآخر. اجتازتهما دافعة تنورتها بساقيها وكأنّها إعصار، وكان ذلك بسرعة بالغة، حتّى إنّهما لم يلمحا وجهها، ولكنّها تركت مع ذلك انطباعاً بالقبح، كذلك الّذي يتركه قبح مُصفّى انطلق مسرعاً.

لم يكن الأمر راجعاً إلى أنّ لها عيناً عوراء، أو بها أثر جرح منفر، وإنّما أنّ زايدة جلدية من قبح اعترضت، للحظة، مجال النّظر، واصطدمت بكلّ ذلك التّرتيب الرّقيق، المعتنى به، المعروف باسم

الجمال. كان الأمر شبيهاً بالذكرى الأكثر ظلاماً من بين الذّكريات الحسّيّة المظلمة، إذ تخلع القلب من موضعه. ولكن المرء إذا رغب في النّظر إليها بصورة مألوفة على نحو أكبر، فإنّه ما من حاجة تدعوه إلى الظنّ بأنّها أكثر من فتاة خجول، عائدة من لقاء عاطفي.

ارتقيا الدّرج، وتوقّفا عند الباب لالتقاط أنفاسهما، وكان مواربا، ودلف هوندا إلى الدّاخل، وبدت الغرفة خاوية، هتف منادياً، عبر الدّرج المفضي إلى الطّابق الثّاني. وفي كلّ مرّة نادى فيها أطبقت عليه نوبة من السّعال الحادّ.

تناهت قرقعة في أعلى الدّرج، وأطلّ فتى يرتدي قميصاً تحتياً:

ـ نعم.

لاحظ هوندا، مندهشاً، الزّهرة الزّرقاء المتدلّية فوق جبينه. بدا أنّها زهرة الكوبية. وفيما هو ينظر إلى أسفل سقطت الزّهرة وتدحرجت عند قدمي هوندا. فوجئ الفتى؛ إذ كان قد نسيها. وكانت زهرة ضاربة إلى اللّون البنيّ، تآكلها الدّود، وذوت على نحو سيّئ.

تفحّصت كيكو، وهي ماتزال تعتمر قبعتها العريضة الحواف، الموقف من فوق كتف هوندا.

وعلى الرّغم من أنّ الدّرج كان معتماً فقد بدا جليّاً أن للفتى محيّا وسيماً، بديعاً. لاح أنّه محيّاً جميل، على نحو يثير الاضطراب. ورغم الحقيقة القائلة بأنّ الضّوء كان خلفه فقد بدا أنّه يبعث إلى أسفل بنوره الخاصّ. اتّخذ هوندا من الحاجة إلى إعادة الزّهرة عذراً،

وشقّ طريقه بحرص، ولكن بحدّة، صاعداً الدّرج المنحدر، وقد استند بيده إلى الجدار. فقطع الفتى نصف الشّوط؛ ليأخذها.

التقت أعينهما. وعرف هوندا أنّ تروس الآلة عينها تحرّك كلاًّ منهما بالحركات الدّقيقة ذاتها، وبالسّرعة نفسها، على وجه الدّقّة. كانت نسخة طبق الأصل من هوندا، وصولاً إلى أدقّ التّفاصيل، حتّى إلى الافتقار المطلق للهدف، تقف هنالك، وكأنّما تكشفت عن خواء تجرّد من السّحب. وإذ تطابق معه في الصّلابة والشّفافية، على الرّغم من سنوات عمريهما، فإنّ الآلية الدّقيقة في أعماق هذا الفتى تطابقت، على وجه الدّقّة، مع الآلية الكامنة في هوندا، وقد غمرها الرّعب؛ خوفاً من أن يقضي عليها أحد، وكمن الرّعب في أعمق أغوارها. وفي تلك اللّحظة رأى هوندا مصنعاً خاوياً من العمّال، ملتمعاً إلى حدّ الكمال بالقتام المطلق. كان بإزاء الوعي الذّاتي لهوندا النّاضج، في صورة شابّة. وينطلق ذلك المصنع في الإنتاج، على نحو لامتناهٍ، دونما مستهلكين، مُلقياً بإنتاجه بلا انتهاء، نظيفاً، على نحو رهيب، ومنتظماً، على نحو يرقى إلى الكمال، مع الحرارة والرّطوبة، مصدراً خفيفاً للأبد، مثل فيض من الأطلس الحريري. ومع ذلك فقد كان هناك احتمال قوامه أنّ الفتى، على الرّغم من أنّه كان هوندا نفسه، قد أساء فهم هذه الآلة. ومن شأن شبابه أن يكون السّبب في ذلك. كان مصنع هوندا إنسانياً من جرّاء الافتقار المطلق إلى الإنسانيّة. وإذا رفض الفتى النّظر إلى مصنعه باعتباره إنسانياً، فلابأس بذلك. واطمأن هوندا إلى أنه على الرّغم من أنّه رأى كلّ ما في الفتى، فإنّ هذا الأخير لا يمكن أن يكون قد رأى كلّ ما بداخله. وفي الحالات المزاجيّة الغنائيّة لشبابه، كان يميل إلى التّفكير في هذه

الآلة، باعتبارها ذروة القبح، ولكن ذلك لم يكن مردّه إلاّ إلى أنّ سوء التّقدير، النّابع من الشّباب، قد خلط القبح الجسدي بقبح الآلة القابعة في أعماقه.

إنّها أقبح الآلات، موغلة في الشّباب، ومغرقة في المبالغة، رومانسيّة، ومعلنة عن نفسها. ولكن ذلك كان أمراً لابأس به. وبمقدور هوندا أن يصف تلك الآلة بأنّها كذلك اليوم أكثر الابتسامات فتوراً، تماماً كما في وسعه أن يصف صداعاً أو ألماً في الحجاب الحاجز بأنّه كذلك. كان أمراً بديعاً أن أشدّ الآلات قبحاً لها مثل هذا الوجه الجميل.

لم يكن الفتى، بالطّبع، مدركاً لما حدث في تلك اللّحظة.

عند منتصف الدّرج، أخذ الزّهرة، وسحق مصدر حرجه في يده. حدَّث نفسه، قائلاً:

ـ اللّعنة على كينوي! لقد نسيت كلّ شيء عن الزّهرة.

كان حريّاً بمعظم الفتية أن يحمرّوا خجلاً. وقد أثار اهتمام هوندا أنّ بشرة الفتى البيضاء لم يطرأ عليها أي تحوّل.

غيَّر الفتى الموضوع:

ـ هل هناك ما يمكنني القيام به من أجلكما؟

ـ ليس بصورة حقيقية، فنحن سائحان، وقد تساءلنا عمّا إذا كان بمقدورنا أن نلقي نظرة لنضيف المزيد إلى معارفنا.

ـ تفضّلا، لطفاً!

انحنى الفتى مسرعاً، انحناءة عميقة، وقدّم لهما خفّين.

كانت السّماء مرقشة بالغيوم، ولكن الفضاء المطلق في الخارج بدا

فجأة وكأنّه يكتسحهما من علّية مظلمة إلى مستنقع لا يحدّه شيء. امتدّ، على بعد خمسين متراً، شاطئ كوماجوي والبحر المتّسخ، وكان هوندا وكيكو يعرفان حقّ المعرفة أنّ الشّيخوخة والغنى يبدّدان التحفّظ. وسرعان ما جلسا، كما لو كانا في شرفة دارهما، على مقعدين قُدِّما لهما. ولكن الكلمات الّتي طاردت الفتى إلى قِمَطْرة كانت رسميّة للغاية:

ـ أرجو أن تمضي قُدُماً في عملك، كما لو نكن هنا. أتساءل عمّا إذا كان بمقدورنا أن نلقي نظرة عبر التّلسكوب.

ـ أرجو أن تقوما بذلك، فلست بحاجة إليه في الوقت الرّاهن.

ألقى الفتى بالزهرة في سلّة المهملات. وبعد غسيل لليدين علا صوت تدليكهما خلاله، بدا ملمح الفتى الجانبي الجميل مكبّاً على الكرّاسة، فوق القِمَطْر، وكأنّما لم يحدث شيء، ولكن هوندا كان بمقدوره أن يرى الفضول وقد ترك أثره على وجه الفتى.

دعا هوندا كيكو لإلقاء نظرة عبر التّلسكوب، ثمّ ألقى نظرة بدوره. لم تكن هناك سفن، وإنّما ركام من الأمواج، مثل مزرعة من البكتريا الّتي تجمع بين اللّونين الأسود والأخضر. وتتدافع، عامدة، تحت الميكروسكوب.

كانا طفلين، سرعان ما سئما لعبتهما، ولم يكن لهما اهتمام خاصّ بالبحر، وكلّ ما أراداه حقاً هو التطفّل، للحظة، على حياة غريب وعمله. نظرا حولهما إلى الأدوات العديدة الّتي تُردِّد صدى نشاط الميناء، على نحو ناءٍ، وحزين، ومخلص، إلى «مراسي شيميزو»، وإلى اسم كلّ مرسى، وقد كتب بأحرف كبيرة سوداء، إلى السّبّورة الكبيرة الّتي تضمّ قائمة السّفن الرّاسية، وإلى الكتب المرتّبة

على الرّفّ: الدّليل الجامع لشحن السّفن، سجّل حركة شحن السّفن اليابانيّة، الرّموز الدّوليّة، سجّل هيئة اللّويدز لملاّكي السّفن ١٩٦٨ ـ ١٩٦٩. وإلى أرقام الهواتف على الحائط، أرقام هواتف الوكلاء والقباطنة والجمارك والحَجْر الصّحي ووكلاء الإمداد وباقي الجهات.

كلّ هذه التّفاصيل المحيطة بهما كانت تلفّها، على نحو لا سبيل إلى الشكّ فيه، رائحة البحر، بالإضافة إلى ضوء المرفأ، على بعد ميلين أو ثلاثة أميال. من أيّ مسافة، كائنة ما كانت، يعلن الميناء اضطرابه الفاتر، بنغماته المعدنيّة الحزينة. كان بمثابة آلة قانون عملاقة، مجنونة، يمدّها البحر، فتلقي صورة متموّجة على سطحه، مرسلاً صوت الدّمار، ولبعض الوقت صداه، على الأوتار السّبعة العملاقة لمرافئه. وإذ ولج هوندا فؤاد الفتى فقد راح يحلم بالبحر.

الجذب على نحو واهن، التّقييد بالكيفيّة ذاتها، الإفراغ على النّحو عينه ـ يا له من حلّ وسط لا ينتهي، هذا التّزاوج الّذي يشبه الغيبوبة بين البرّ والبحر. اشتركا في الخداع المتبادل، سفينة تهزّ ذيلها على نحو مترع بالعفوية، وتبتعد بصورة عابثة من جديد، وقد تردّدت نغمة حافلة بالتهديد في صفيرها، تبتعد، ثمّ تجيء ثانية. يا لها من آلية عارية بعيدة عن الثّبات!

كان بمقدوره أن يرى من النّافذة الشّرقية اضطراب الميناء وقد تجمّد تحت السّديم المثقل بالدّخان. ولكنّ الميناء الّذي لا يأتلق ليس بميناء؛ ذلك أنّ الميناء صفّ من الأسنان البيضاء، كشف عنها في توتّر عند بحر مؤتلق. أسنان أبراج تآكلها البحر. لابدّ للميناء من أن يتألّق، شأن عيادة طبيب أسنان، وتلفّه رائحة المعدن والماء

والمطهِّر، فيما الرّوافع الضّارية تدفع إلى الأسفل فوق الرّؤوس، والمطهِّرات تجعل السّفن تغرق في نوم بلا حراك، وربّما بين الحين والآخر أثر من الدّماء.

الميناء وحجيرة الإشارة هذه. صورة الميناء وقد أُخذت وجُمعت في حزم وكأنّها الرّسم المالي المفروض، إلى أن استطاع أن يتخيّل، على وجه التّقريب، أنّها سفينة جنحت عالياً على الصّخور. كان هناك ما هو أكثر من أوجه شبه قليلة بعيادة طبيب الأسنان: البساطة والتأهّب الكفء الّذي وضعت به الأدوات، حدّة درجات اللّون الأبيض والألوان الأساسيّة، الاستعداد لمواجهة الأزمة الّتي قد تقع في أي لحظة، أطر النّوافذ المتنقّلة الّتي نهشتها رياح البحر، وحجيرة المراقبة، المتوحّدة في حقل الأغطية البلاستيكيّة البيضاء، إذ تواصل أخذاً وعطاءً يوشكان أن يكونا جنسيين، مع البحر، خلال النّهار، وخلال اللّيل، واقعة تحت تهديد الميناء والسّفينة، إلى أن يصبح التّحديق جنوناً خالصاً. البياض، التخلّي عن الذّات، غياب اليقين والوحدة، كلّ ذلك كان في حدّ ذاته سفينة. وساوره شعور بأنّ المرء لا يستطيع البقاء عليها طويلاً، دون أن تُطِير الخمر صوابه.

تظاهر الفتى بأنّه غارق في عمله. ولكنّ هوندا كان يعلم أنّه في حقيقة الأمر، لا يكون لديه عملٌ حينما لا تكون هناك سفن يمكن رصدها.

ـ متى تصل السّفينة المقبلة؟

ـ في حوالي التّاسعة مساء. لقد كان هذا اليوم خالياً من النّشاط.

ردّ بما يوحي بكفاءة تشوبها الرّقّة، وأطلّ ضجره وفضوله مثلما تطلّ ثمار الفراولة من جدران البلاستيك.

ربّما كانت مسألة كبرياء من جانب الفتى أنّه لم يجعل نفسه أكثر اتّساماً بالطّابع الرّسمي ـ وعلى أيّة حال فإنّه لم يرتدِ شيئاً فوق قميصه التّحتي. وفي الجو الحارّ الّذي كان مايزال كذلك، رغم فتح النّافذة، لم يكن ثمّة ما هو غير طبيعي في طريقة ارتدائه لملابسه. انسدل القميص النّظيف على الجسم الجميل الّذي لم تميّزه استدارة اللّحم، وإنّما نوع من الرّشاقة الّتي تميّز النّباتات، فهبط من الكتفين في دائرتين، ومن هناك فوق استدارة الصّدر، المندفع إلى الأمام. كان جسماً تحيطه برودة حازمة، دون مؤشر يوحي باللّيونة. كانت الصّورة الجانبية التّكوين، كما لو كانت قد نقشت على عملة فضية نالها شيء من البِلى. وبدت العينان، بأهدابهما الوطفاء، جميلتين.

استطاع هوندا إدراك ما يفكّر فيه الفتى.

كان مايزال محرجاً من جرّاء الزّهرة الّتي رُشقت في شعره. ولم يواجه مشكلة في مداراة حرجه لدى استقباله للزائريْن، ولكنّه كان مايزال يدور في غمار هذا الحرجِ وكأنّما يغزل في فيض من خيوط حمراء. ولمّا كانا قد لمحا، بالطّبع، قبح الفتاة، فقد كان عليه أن يتحمّل سوء الفهم كذلك، وابتسامات الهمّ المحتجبة. وكانت شهامته هي السّبب في هذا كلّه، وقد أحدثت في كبريائه جرحاً لا سبيل إلى البرء منه.

ما كان يمكن للمرء، بالطّبع، الاعتقاد بأنّ الفتاة القبيحة هي محبوبته، فقد كانا غير متوافقين، على الإطلاق. وما كان على المرء إلاّ أن ينظر إلى هشاشة شحمتي أذنيه، شأن الزّجاج البالغ الرّقّة في صنعه، وإلى البياض الرّقيق لعنقه، ليعلن أنّ الفتى ليس واقعاً في

الحبّ، وأنّ الحبّ غريب عنه. لقد غسل يديه بجهد فائق، بعد سحق الزّهرة، وقد وضع منشفة بيضاء على القِمَطْر، ومضى يمسح باستمرار عنقه وإبطيه. وبدت اليدان المغسولتان حديثاً مثل خُضَر معقّمة، شأن قُرَيْعات تتدلّى على بحيرة. وإذ تدرك الأصابع جمالها البديع فإنّها تنحني، في كبرياء، وقد ربطتها علاقة حميمة بما هو سماوي. لم تكن لتطبق بشدة على شيء مادّي، وبدا أنّ عملها متعلق بالفراغ. لاحت وكأنّها تمسّد ما هو خفي، ولكن بتواضع، وبروح المناشدة. وإذا كانت هناك يدان لا تستخدمان إلاّ في مخاطبة اللاّمتناهي والكون، فإنّهما يدا من يعكف على الاستمناء. وحدَّث هوندا نفسه قائلاً: لقد رأيت ما في أعماقه.

يدان جميلتان للمس القمر والنّجوم والبحر. لم يقصد بهما القيام بأداء شيء عملي. أراد رؤية وجوه من سعوا لتشغيلهما. إنّهم عندما كانوا يقومون بتشغيل رجل، فإنّهم ما كانوا يعلمون شيئاً من تفاصيل متعبة، كالعائلة والأصدقاء والإيديولوجيا ومستنسخات الدّرجات العلميّة والحالة الصّحية. لقد كان هذا الفتى نفسه هو الّذي قاموا بتشغيله دون أن يعرفوا شيئاً عن هذه الأمور، وقد كان هذا الفتى شرّاً خالصاً.

تأمَّلِ الأمرَ، إذا شئت! شرّ خالص. كان السّبب بسيطاً. فقد كانت أعماق الفتى هي، على نحو تام ومطلق، أعماق هوندا نفسه.

استند هوندا بمرفقه على المائدة، عند عتبة النّافذة، وتظاهر بأنّه يحدّق في البحر، دون أن يطرف له جفن، تحت ستار طبيعي قوامه كآبة الشّيخوخة، وراح يختلس، بين الفينة والأخرى، نظرة إلى

الملمح الجانبي للفتى، وساوره شعور بأنّه يرى حياته في تلك النّظرة.

كان الشّرّ الّذي يغمر تلك الحياة هو الوعي بالذّات. وعي بالذّات ما عرف شيئاً عن الحبّ، وراح يذبح دون أن يرفع يداً، وابتهج بالموت فيما هو يُذَبِّح عزاء نبيلاً، ودعا العالم إلى الخراب، بينما هو يسعى وراء الدّقيقة الأخيرة الممكنة لنفسه. ولكن كان هناك شعاع من النّور في النّافذة الخاوية. الهند. الهند الّتي كانت له معها مواجهته الخاصّة، عندما غدا مدركاً للشرّ وأراد الهرب منه، حتّى ولو للحظة. الهند الّتي علّمت أنّه يتعيّن أن يُوجد، استجابة للاحتياجات الأخلاقية، العالمُ الّذي كان حريصاً على إنكاره، والّذي يتضمّن في ذاته نوراً وعطراً لم تُتح له سبلُ مسهِّماً.

ولكن ميله كان، طَوال عمره المديد، إلى جعل العالم ينتهي إلى الخواء، وأن يُفضي بالبشر إلى لا شيء ـ خراب وتناهٍ تامّين. ولم يكن قد قُدِّر له النّجاح، والآن في نهاية المطاف، وفيما هو يدنو من تناهيه الخاص والمنفصل، التقى بفتى يطلق سهام شرّ مماثلة.

ربّما كان الأمر بأسره وهماً. ومع ذلك فإنّه، بعد عثرات وإخفاقات، بمقدوره أن يهنّئ نفسه على قدرته على اختراق أغوار المظاهر المدّعاة. لم تخذله رؤيته مادامت لم تعرقلها الرّغبة، وعلى نحو أكثر خصوصيّة لم تخذله فيما لا يناسب أعمق ميوله.

في بعض الأحيان يتّخذ الشّرّ شكلاً نباتياً هادئاً، فالشّرّ المتبلّر كان في جمال ذَرور أبيض نظيف. وقد كان هذا الفتى جميلاً. ربّما تمّ إيقاظ هوندا وسحره، من خلال جمال وعيه بذاته، الّذي لم يسع للاعتراف لا بالذّات ولا بالآخر.

شعرت كيكو بالضّجر، قليلاً، فمضت تجدّد طلاء شفتيها، قالت:
- ربّما كان يتعيّن علينا الذّهاب.

وإذ ووجهت بمراوغة العجوز فقد اتّخذت لوناً يحميها، مستلهَماً من لون زيّها، وشرعت في الانزلاق في أرجاء الحجرة، شأن ثعبان استوائي بطيء. وتمثّل اكتشافها في أنّ الرّفّ الأقرب إلى السّقف مقسّم إلى حوالي أربعين قسماً يضمّ كلّ منها عَلَماً صغيراً مُتْرِباً.

اجتُذبت إلى الألوان الحمراء والصّفراء والخضراء المميّزة للأعلام المطويّة، دونما إحكام، ووقفت تحدّق فيها، لبعض الوقت، وقد طوت ذراعيها على صدرها، ثمّ وضعت يدها فجأة على العاج الحادّ المؤتلق لكتف الصّبي العارية.

- ما الّذي تُستخدم فيه هذه الأعلام؟

تراجع، مندهشاً، وقال:

- إنّنا لا نستخدمها في الوقت الحالي. وهي أعلام للإشارة، ونحن نستخدم جهاز التعرّف الضّوئي، ليلاً.

أشار إلى مصدر الضّوء الإشاري القابع في ركن الغرفة. وسرعان ما عادت نظرته المحدِّقة إلى القِمَطر. تطلّعت كيكو من فوق كتفه إلى الرّسمات الإيضاحيّة لمداخن السّفن. فلم يُبْدِ اكتراثاً.

- هل بمقدوري رؤية علم منها؟

- تفضّلي!

كان منحنياً بقدر الإمكان على القِمَطر. وأمّا الآن فقد انبعث واقفاً، وانتقل إلى الرّفّ، متجنّباً كيكو، مثلما كان حرياً أن يتجنّب أعشاب الأدغال الحارّة. مرّ أمام هوندا. ووقف على أطراف أصابعه، والتقط علماً من الرّفّ.

أوغل هوندا في الغرق في أفكاره. تطلّع إلى الفتى الّذي امتدّت ذراعاه عالياً، غير بعيد عنه. غمرت رائحة عرق لطيفة، واهنة، خيشوميه. كانت هناك ثلاث شامات على الجنب الأيسر، وإن كانت أكثر بياضاً، ظلّت حتّى الآن مغطّاة بالقميص التّحتي.

قالت كيكو الّتي لم تكن ممّن يميلون إلى الإقلال من الحديث أو التحفّظ فيه:

ـ إنّك أعسر.

ألقى الفتى نظرة ضِيق عجلى عليها، وهو يُنزل العلَمَ.

كان على هوندا التّيقن من الأمر تماماً. عادت الذّراع إلى موضعها من جديد، كجناح أبيض، ولكن لدى كلّ حركة كانت شامتان تبدوان وقد احتجب جزء منهما وراء طرف القميص التّحتي، على حين بدت الثّالثة واضحة للعِيان، فتسارعت دقّات قلب هوندا.

نشرت كيكو العلم المؤلّف من مربّعات صفراء وسوداء، قائلة:

ـ يا له من تصميم جميل! ما هو؟ أتمنّى لو صنعت ثوباً منه. ما هي في رأيك المادة الّتي صُنع منها كتّان؟

قال الفتى، في جفاف:

ـ لا عِلْم لي بالمادّة الّتي صُنع منها، لكنّه مقابل لحرف اللاّم.

ـ اللاّم، كما في «ولع».

عاد الفتى إلى القِمَطْر، وقد بدا عليهه الضّيق بوضوح.

غمغم وكأنّه يُحدّث نفسه:

ـ على رسلك، ليس ثمّة ما يدعو إلى التعجّل.

ـ هكذا، هذا حرف لام. إنّه لا يشبه على الإطلاق ما أتوقّع أن

يكون عليه حرف اللاّم. الآن، دَعْنا نَرَ جلية الأمر. إنّ حرف اللاّم ينبغي أن يكون أخضر يشوب القتام خضرته. وأمّا المربّعات السّوداء والصّفراء فهي خاطئة تماماً. إنّها أقل وأقوى، شأن نبلاء يتجالدون بالسّيوف. هذه المربّعات قد تشكّل حرف جيم مثلاً؟

قال الفتى وقد داخله شيء من اليأس:

ـ حرف الجيم تمثّله خطوط رأسيّة صفراء وزرقاء.

ـ حرف الجيم تمثّله خطوط رأسيّة صفراء وزرقاء؟ هذا خطأ تماماً، فهو أبعد ما يكون عن الخطوط الرّأسيّة.

ـ أخشى أنّنا نعطّلك عن عملك. شكراً جزيلاً لك حقاً. آمل ألاّ تعارض في قيامي بإرسال حلوى، أو شيء من هذا القبيل، لك من طوكيو. هل لديك بطاقة تعريف خاصّة بك؟

دهشت كيكو حيال هذا التّهذيب المبالغ فيه من جانب هوندا، ووضعت العَلَم على القِمَطْر، ومضت لالتقاط قبعتها العريضة الحوافّ، من فوق منظار الميدان الصّغير عند النّافذة الشّرقيّة.

وضع هوندا بطاقته بتهذيب، أمام الفتى، فأبرز الأخير إحدى البطاقات الخاصّة به، وقد حملت عنوان محطّة الإشارة. وبدت كلمات «مكاتب هوندا للمحاماة» على البطاقة أمامه وكأنّها تزيل شكوكه.

قال هوندا، وكأنّما عرضاً:

ـ يبدو أنّ لديك مسؤوليات ثقيلة. هل يمكنك القيام بها كلّها وحدك. ترى كم تبلغ من العمر؟

ـ ستة عشر عاماً.

كان ردّاً عملياً، حادّاً، بدا وكأنّه يتعمّد تجاهل كيكو.

ـ عمل مفيد للغاية. واظب على القيام به!

قام هوندا الّذي نطق بكلّ مقطع من كلماتـه على نحو رسمي ودقيق، من خلال أسنانه الاصطناعية، باصطحاب كيكو، في مرح، نحو الباب، وشرع في انتعال حذائه. وودّعهما الفتى، حتى أسفل الدّرج.

في السّيّارة أحسّ هوندا بأنّه أكثر تعباً من أن ينظر أمامه، فوجَّه السّائق إلى فندق يطلّ على نيهونديرا، وكان قد حجز فيه غرفتين لقضاء اللّيل.

ـ أريد حمّاماً وتدليكاً.

قالها هوندا، ثمّ قال، على نحو عرضيّ شيئاً ترك كيكو وقد فغرت فاها، لفرط الذّهول:

ـ لسوف أتبنّى ذلك الفتى.

- ١١ -

كان الضّيق والقلق يخامران تورو.

غالباً ما كان لديه زوّار ليس وراءهم ما يشغلهم؛ فقد بدا أنّ المبنى يثير الفضول، وكان لمعظهم أطفال، وقد أقبلوا بناء على إلحاف هؤلاء الأطفال. وكان تورو يرفعهم إلى التّلسكوب، ويقتصر الأمر على ذلك. وأمّا هذا الثّنائي فقد كان مختلفاً؛ إذ أقبلا وكأنّهما يحاولان انتزاع شيء ما، وغادرا المكان وكأنّما اختلسا شيئاً لم يدركه تورو نفسه.

حلّت الخامسة عصراً. وبدا المطر مهدِّداً بالانهمار، وأقبل الظّلام مبكّراً عن موعده.

كان الخطّ الطّويل من الزّرقة القاتمة عبر البحر شبيهاً بشارة حدّاد هائلة. وخلق مناخاً من السّكينة. ولاحت للعِيان سفينة واحدة لنقل البضائع، بعيداً في أقصى اليمين.

حان وقت العشاء، ولكنّه لم يشعر بالجوع. أضاء مصباح القَمِطْر، وراح يتصفّح صفحات مداخن السّفن، فقد كانت جيّدة في دفع الضّجر بعيداً.

كان هناك البعض ممّا يفضّله منها، وكانت لديه أحلامه الّتي تدور حولها. فقد أحبّ العلامة المميّزة للخطّ السّويدي لشرقي آسيا، وقد

تمثّلت في ثلاثة تيجان صفراء على دائرة بيضاء، وأحبّ فيل مراسي أوساكا.

بمتوسّطٍ قوامُه مرّة كلّ شهر، كانت سفينة تحمل ذلك الفيل تقبل إلى شيميزو. وكان الفيل الأبيض فوق هلال أصفر على أرضية سوداء يبدو واضحاً من مسافة يُعتَدّ بها. وقد أحبّ ذلك الفيل الأبيض الّذي يقبل من البحر، على متن هلاله.

أحبّ خطّ الأمير اللّندني الّذي تمثّلت علامته في إكليل مع ثلاث ريشات أنيقة. وعندما تُقبل ناقلة كندية، كان يبدو له أنّ السّفينة البيضاء هدية، وأنّ هذه العلامة هي بطاقة تحية مصقولة الحوافّ.

لم يشكّل أي من هذه العلامات جزءاً متواصلاً من وعي تورو. فعندما كانت كلّ واحدة منها تصبح في مدى التلسكوب، كانت تبدو له وكأنّه يراها للمرّة الأولى، وشأن أوراق متألّقة متناثرة فوق العالم، كانت جزءاً من لعبة هائلة لم يكن هو أحد المشاركين فيها.

أحبّ الصّور النّائية وحدها الّتي لم تكن انعكاساً لذاته، وبتعبير آخر فقد أحبّ كلّ شيء.

تُرى من كان ذلك العجوز، وما الّذي يقف وراءه؟

ها هنا في الحجرة لم يكن إلاّ شخصاً تضايقه تلك العجوز المدلّلة، المبالغة في ارتداء الثّياب. ولكن الآن ثمّة حضور منفصل خلّفه وراءه، هو حضور عجوز هادئ.

عينان متعبتان، واسعتا المعرفة، ذكيّتان، أوغلتا في العمر، وصوتٌ خفيض للغاية، حتّى إنّ تورو واجه صعوبة في تبيّنه،

وتهذيبٌ بدا وكأنّه يقف على حافة السّخرية، على وجه التّقريب. تُرى ما الّذي كان يثبته؟

لم يسبق لتورو أنّ رأى قطّ من قبل أي شخص مثله. ولم يقدَّر له أن رأى إرادة السّيطرة تتّخذ مثل هذا الشّكل الهادئ.

كان ينبغي لكلّ شيء أن يكون معرفة عتيقة، ومع ذلك كان هناك شيء ما في العجوز اشتبك مع ركن من وعي تورو، مثل عائق صخري، رافضاً التّراخي. تُرى ماذا عساه أن يكون؟

ولكن في التوّ عاد صلف بارد، وكفّ عن التكهّن. كان محامياً متقاعداً. في ذلك الكفاية. وما التّهذيب إلاّ من عادات المهنة، لا أكثر. رصد تورو في نفسه ميلاً نحو الحذر الرّيفي، فساوره شعور بالخجل من ذلك.

نهض لتسخين طعام العشاء. وألقى بلفيفة ورق في سلّة المهملات، ولمح زهرة الكوبية الذّاوية.

ـ اليوم كانت زهرة كوبية، دسّتها في شعري لدى مغادرتها الحجرة. أمّا بالأمس فقد كانت زهرة قنطريون عنبري. وفي المرّة السّابقة للأمس كانت زهرة جردينيا. أهذه تحوّلات عقل ملتاث؟ أم أنّ لها معنى؟ ربّما لم تكن تلك فكرتها وحدها. ربّما كان شخص ما يضع زهرة في شعرها كلّ يوم، وهي تحمل رسالة من نوع ما دون معرفة منها بذلك؟ إنّها تختصّ نفسها بالحديث على الدّوام، ولكن يتعيّن عليَّ أن أسألها في المرّة المقبلة.

ربّما لم يكن ثمّة ما هو عرضي، أو بمحض المصادفة، في الأحداث الّتي وقعت حول تورو. بدا، فجأة، أنّ ثمّة نمطاً عجيباً من الشّرّ يتشكّل حوله.

ـ ١٢ ـ

لزم هوندا الصّمت طَوال العشاء، وكانت كيكو أكثر انزعاجاً من أن تتحدّث.

تساءلت، فيما هما يتركان المائدة:

ـ أتراك ستأتي إلى غرفتي؟ أم أذهب إلى غرفتك؟

كانا يمضيان، دائماً، خلال سفرهما معاً، إلى غرفة أحدهما، عقب تناول طعام العشاء، ويتحدّثان، وهما يشربان الويسكي، وإذا تعلّل أحدهما بالتعب فإنّ الآخر يتفهّم موقفه.

ـ لست أشعر بتعب يتكافأ مع ما نالني من نَصَب بالفعل. سألحق بك، ربّما في غضون نصف ساعة.

أمسك بمعصمها، وتطلّع إلى الرّقم المكتوب على مفتاحها، وقد ساورها الشّعور بالفخار الّذي يستشعره حيال هذا الإفصاح العلني، المحدود عن الحميميّة، شيئاً مسلّياً بلا انتهاء. إنّه من الممكن أن يكون مقرَّباً على نحو مسلّ، في لحظة، وفي اللّحظة التالية ينقلب إلى شخص محايد، على نحو كئيب، موحٍ بوجود تهديد كامن في الأفق.

بدّلت ثيابها. لسوف تسخر منه، ولكنها أعادت النّظر فيما عزمت عليه. أدركت أنّ بمقدورها أن تعبث به، دونما كوابح، عندما يكون

الموضوع جاداً، ولكنّه كان بمثابة قانون بينهما أنّ العابث ينبغي دائماً أن يكون جادّاً.

جلسا إلى المائدة الصّغيرة، بجوار النّافذة. وطلب هوندا زجاجة «الكتي سارك» المعتادة. وراحت كيكو تنظر إلى تموّجات السّديم في الخارج. التقطت سيجارة. وفيما أمسكتها ارتسم على محيّاها تعبير أكثر توتّراً وحدّة من المعتاد. وكانت قد تخلّت، منذ وقت طويل، عن إيماءة التّدليل العاطفي، المتمثّلة في انتظار قيامه بإشعال سيجارتها، فقد كره ذلك، على الدّوام.

تحدّثت بحدّة فجأة، قائلة:

ـ إنّني أشعر بالصّدمة، على نحو مطلق. فكرة تبنّي طفل لا تعرف عنه شيئاً!

ليس بمقدوري إلاّ التّفكير في تفسير واحد فقط. وهو أنّك حجبت عني ميولك. كم كنت عمياء! لقد عرف أحدنا الآخر طَوال ثمانية عشر عاماً، ولم أشكّ في الأمر قطّ. والآن يتّضح لي الأمر. لاشكّ في ذلك. لقد كانت لدينا الدّوافع ذاتها، طَوال الوقت، وقد قرّبت أحدنا من الآخر طَوال الوقت، وجعلتنا نشعر بالأمن، وبأنّنا رفيقان وحليفان. ولم تكن ينج تشان إلاّ ملكية مسرحية. وكنت على علم بأمرنا، ورحت تؤدّي دورك، ليس بمقدور المرء أن يكون بالغ الحرص.

ـ ليس الأمر كذلك، على الإطلاق، فهي والفتى متطابقان.

قالها هوندا، بمزيد من الحزم.

راحت تتساءل مراراً وتكراراً. كيف كانا متطابقين؟

ـ سأحدّثك بجليّة الأمر لدى جلب الويسكي.

ثمّ جُلب الويسكي. ولم يكن أمامها خيار إلاّ انتظار كلماته، فقد ضاع منها زمام المبادرة.

حدَّثها هوندا بكلّ شيء.

سرَّه أنّها أصغت بمثل هذا القدر من الحرص، وامتنعت عن الاستجابة المعتادة، المغرِقة في التّعميم.

أدَّى الويسكي إلى صدور صوت قوامُه الرّوح الخيّرة والمتسامحة:
ـ لقد كنتَ حكيماً في عدم قول أي شيء عن الأمر أو كتابته، فقد كان حرياً بالنّاس أن يعتقدوا أنّك جننت، والثّقة الّتي شِدْتَ صرحها كانت ستنهار.

ـ لم تَعُدِ الثّقة تعني شيئاً، بالنّسبة إليَّ.

ـ ليس ذلك لبّ الموضوع. إنّ حكمتك هي شيء آخر، أخفيته عني. لا، إنّه سرّ رهيب، كأشدّ السّموم فتكاً، قادر على تفجير كلّ ما هو فظيع، سرّ يجعل أي نوع من الأسرار الاجتماعيّة يبدو وكأنّه لا شيء على الإطلاق. كان بمقدورك إبلاغي بأنّ هنالك ثلاثة من المجانين في عائلتك، وبإمكانك إخطاري بأنّ لك ميولاً جنسية من أغرب الأنواع، وبوسعك أن تحدّثني بالأمور الّتي يخجل معظم النّاس من الحديث عنها أمامي. ولن يكون ذلك إلاّ سرّاً اجتماعياً، لا شيء على الإطلاق. ما إنّ تعرف الحقيقة حتّى يغدو القتل العمد والانتحار والاغتصاب والتّزوير أموراً سهلة، موحِلة. ويا لها من مفارقة أن يكون المعنيّ بالأمر قاضياً، إذ تجد نفسك مشتبكاً في حلقة أوسع نطاقاً من السّماء، وكلّ شيء آخر ليس إلاّ أمراً عادياً.

لقد اكتشفت أنّنا أطلقنا لنرعى الكلأ، حيوانات جاهلة، أُرخي لها العنان، وهي مقيدة بحبل ممتدّ

تنهّدت كيكو، وأضافت:

ـ لقد شَفَتْني قصّتك ممّا كنت أَجِدُ. أحسب أنّني كنت قد أبليت بلاءً حسناً. ولكن لم يكن ثمّة ما يدعو للقتال؛ فنحن جميعاً أسماك في شبكة واحدة.

ـ لكنّها الضّربة القاصمة، بالنّسبة إلى امرأة. فالشّخص الّذي يعرف ما تعرفين، لا يمكن أبداً أن يكون جميلاً، من جديد. وإذا ما كنت في هذه المرحلة من عمرك لاتزالين تريدين أن تكوني مخلوقاً جميلاً، فإنّه كان ينبغي عليك أن تضعي يديك فوق أذنيك.

هناك علامات خفية للجذام على وجه من يعرف. وإذا كان جذام الأعصاب وجذام المفاصل جذاماً واضحاً للعِيان، فادْعُه، إذن، جذاماً شفّافاً، ففي أعقاب المعرفة، على الفور، يحلّ الجذام، وفي اللّحظة الّتي وضعتُ فيها قدمي على أرض الهند، أصبحت مجذوماً روحياً، وقد كنت كذلك، بالطّبع، طَوال عشرات السّنوات، دون أن أحيط بذلك علماً.

إنّك تعرفين بدورك، الآن، وبوسعك أن تضعي كلّ طبقاتك من موادّ التّجميل، ولكنّ شخصاً عارفاً آخر سيرى خلال هذه الطّبقات، وصولاً إلى البشرة، ولسوف أحدّثك بما سيرى. بشرة شفّافة بأكثر ممّا ينبغي، روح تقف ميتة، ساكنة بلا حراك، لحم يثير التّقزّز بطبيعته كلحم؛ إذ تجرّد من كلّ ما يتمتّع به اللّحم من جمال، صوت يتّسم بالخشونة، جسم مجرّد من الشّعر، تساقط عنه الشّعر بأسره، مثلما

تتساقط وريقات الشّجر. وسرعان ما سنرى كلّ الأعراض فيك، أعراض سقوط ذلك الّذي رأى.

وحتّى إذا كنت لا تتجنّبين النّاس، فسوف تجدين، وئيداً، أنّ النّاس يتجنّبونك. فالعارفون الّذين لا يعرفون أنفسهم تصدر عنهم رائحة كريهة، مفعمة بالتحذير.

إنّ الجمال الجسدي، والجمال الرّوحي، وكلّ شيء متعلق بالجمال يولد من الجهل والظّلام، ومنهما وحدهما. وليس من المسموح به أن يعرف المرء، ويظلّ جميلاً. وإذا كان الجهل والظّلام شيئاً واحداً، فإنّ النّزاع بين الرّوح الّتي ليس لديها شيء تخفيه على الإطلاق والجسم الّذي يخفيهما وراء نوره الوهّاج، ليس نزاعاً، على الإطلاق، فالجمال هو جمال الجسم وحده(١).

ـ نعم، هذا صحيح، وقد كان صحيحاً في حالة ينج تشان.

قالتها كيكو وقد لاحت ذكرى نائية في عينيها، وهي تتطلع إلى السُّدُم، أضافت:

ـ وأحسب أنّ ذلك هو السّرّ في أنّك لم تُبلغ إيساو، الثّاني، ولا ينج تشان، الثّالثة، جليّة الأمر.

ـ أحسب أنّه نوع قاسٍ من الهموم، نابع من الخوف من الحيلولة

(١) التّشديد الوارد في العبارة ليس لنا، وإنّما هو لميشيما. وانتصاره الصّريح للجسد ليس بالفكرة الجديدة عنده، وإنّما هي فكرة تتكرّر مرّات لا حصر لها في المجلّدات السّتّة والثّلاثين الّتي تشكّل أعماله الكاملة، وقد ناقشناها مطولاً في المقدّمة الّتي كتبناها لترجمتنا لمسرحية «السّيّدة دي ساد» لميشيما المنشورة في سلسلة «من المسرح العالمي» الكويتية، في شباط (فبراير) ١٩٨٨. (هـ.م.).

دون نفاذ القدر. وقد منعني من الحديث، ولكنّ الأمر كان مختلفاً، في حالة كيواكي، فلم أكن على علم بالحقيقة، آنذاك.

نظرت إليه نظرة ساخرة، من قمّة رأسه إلى أخمص قدمه، وقالت:

ـ تريد القول بأنّك كنت جميلاً.

ـ لا، فقد كنت عاكفاً باجتهاد على تلميع الأدوات الّتي ستتيح لي أن أعرف.

ـ فمهت. يتعيّن عليّ الاحتفاظ بالأمر سرّاً، بصورة مطلقة، وحجبه عن الفتى إلى أن يبلغ العشرين من عمره، ويغدو متأهّباً للموت.

ـ أصبت. ما عليك إلاّ الانتظار أربعة أعوام. أواثق أنت من أنّك لن تموت أولاً؟

ـ لم أفكّر في ذلك.

ـ علينا أن نحدّد موعداً آخر مع معهد أبحاث السّرطان.

ألقت كيكو نظرة على ساعتها، وأخرجت علبة صغيرة، مليئة بالأقراص المتعدّدة الألوان، واختارت ثلاثة بأطراف أظافرها، وتناولتها مبتلعة إياها بالويسكي.

كان هوندا قد حجب شيئاً واحداً عن كيكو: أنّ الفتى الّذي التقياه اليوم كان مختلفاً، على نحو جلّي، عن سابقيه، فآلية وعيه الذّاتي كانت واضحة، وكأنّما وضعت وراء نافذة. ولم يكن قد رأى شيئاً من هذا النّوع، في سابقيه الثّلاثة الآخرين. بدا له أن التّفاعلات الدّاخلية للفتى تشبه تفاعلاته هو، كما تشبه حبّة البازلاء حبّة أخرى. كان من المستحيل أن يكون الأمر على هذا النّحو، ولكن هل يمكن أن يكون

الفتى تلك الحالة النّادرة الّتي يعرف فيها شخص ما ويزداد جمالاً مع اطّراد زيادة معرفته؟ ولكن ذلك مستحيل. وإذا كان مستحيلاً، وإذ يحمل الفتى كلّ العلامات الملائمة، السنّ المناسبة، والشّامات الثّلاث، أفلا يمكن أن يكون المثال الأوّل لوضعٍ مضادّ صِيغ بمهارة بالغة ووُضع أمام هوندا؟

كان قد بدأ بالشعور بالنعاس، فانتقل الحديث إلى الأحلام. قالت كيكو:

ـ نادراً ما أحلم، ورغم ذلك تتراءى لي حتّى الآن أحلام عن الامتحانات.

ـ يقولون إنّ المرء يستمرّ في الحلم بالامتحانات طَوال عمره. ولم يتراءَ لي حلم من هذا النّوع في عشر سنوات.

ـ ذلك لأنّك كنت طالباً جيّداً.

ولكن بدا من غير المناسب، على الإطلاق، التحدّث عن الأحلام مع كيكو، وكان ذلك شبيهاً بالتحدّث مع أحد رجال المصارف عن نسج الصّوف يدوياً.

وأخيراً انصرف كلّ منهما إلى غرفته، وتراءى لهوندا ذلك النّوع من الأحلام الّذي أنكر أنّه تراءى له من قبل قطّ، أي حلم بامتحان.

في الطّابق الثّاني من مدرسة ذات أعمدة من كتل خشبية، تهتزّ بعنف بالغ كما لو كانت تتدلّى من غصن شجرة، التقط هوندا الّذي بدا في الحلم في سنوات المراهقة، أوراق الإجابة الّتي كانت تُدفع بحدّة على صفوف القِمَطْرات. كان يعلم أنّ كيواكي سيكون على بعد مقعديْن أو ثلاثة خلفه. وأحسّ، وهو ينظر من الأسئلة المكتوبة على

السّبورة إلى أوراق الإجابة، باليقين البالغ بقدرته على الإجابة. راح يدبّب أطراف أقلامه، فواتته الإجابات في التوّ. ولم يكن ثمّة ما يدعو إلى التعجّل. وراحت أشجار الحور بالخارج تتمايل مع الرّيح.

نهض ليلاً فعادت إلى ذهنه تفاصيل الحلم كافّة.

لقد كان، دونما شكّ، حلماً بامتحان، ومع ذلك فإنّ هوندا لم يساوره أي من المشاعر المترعة بالضيق، الّتي يتعيّن أن تصاحب مثل هذه الأحلام. ما الّذي جعله يحلم؟

لما كان هو وكيكو وحدهما يعلمان بأمر حوارهما، ولم يكن الأمر راجعاً إلى كيكو، فلابدّ أنّه راجع إليه هو نفسه. ولكنه لم تواتِه أدنى رغبة في الحلم، وما كان ليجعل نفسه منغمساً في الأحلام دون أن يراجع رغباته الخاصّة في هذا الشّأن.

لقد قرأ هوندا، بالطبع، كثيراً من الكتب عن التّحليل النّفسي الفيني، ولكنه لم يستطع قبول المبدأ القائل بأنّ رغبة المرء تخونه. لا، فالأمر الطّبيعي بصورة أكبر هو الاعتقاد بأنّ أحدهم في الخارج يراقب مراقبة وثيقة، ويلحّ على نحو مزعج.

وإذ استيقظ فقد غدت له إرادة، وسواء شاء الأمر أم لا، فإنّه كان يحيا في رحاب التّاريخ، ولكن في مكانٍ ما في الظّلام كان ثمّة شخص، تاريخيّ ربّما، وربّما لم يكن تاريخياً، يضعه في مواجهة الأحلام.

لسوف تبدو السُّدُم وكأنّها انجابت، والقمر وكأنّما بزغ، وكانت النّافذة، وهي أكثر طولاً من أن تنسدل عليها ستارة، متألّقة عند أسفلها بلون أزرق فضّي، خافت، مثل ظلّ شبه الجزيرة العملاقة

القابعة فيما وراء الأمواج. حدَّث هوندا نفسه بأنّ الهنـد من شأنها أن تبدو كذلك، بالنّسبة إلى سفينة تقترب من المحيط الهندي، ليلاً.
ومضى عائداً لينال قسطاً من النّوم.

- ١٣ -

العاشر من آب (أغسطس).

لدى بدء تورو نوبتَه في العمل، في التّاسعة صباحاً، فتح الصّحيفة بمجرّد انفراده بنفسه. ولم يكن من المتوقَّع وصول سفن قبل الأصيل.

كانت الصّحيفة حافلة بالتّقارير عن النّفايات الصّناعيّة الّتي طفت إلى الشّاطئ، عند تاجو. وكان هناك خمسون مصنعاً للورق في تاجو، ولكنّ شيميزو ليس لها إلاّ مصنع واحد، وكان ذلك المصنع صغيراً، وفضلاً عن ذلك، فإنّ التّيارات السّائدة كانت تمضي باتّجاه الشّرق، ونادراً ما كانت النّفايات الصّناعيّة تجيء إلى ميناء شيميزو.

بدا أنّ «الزّنجاكورين» قد جاءوا، بأعداد كبيرة، للقيام بمظاهرات مناهضة للتلوّث. وكانوا أبعد حتّى من مدى التّلسكوب الثّلاثيني بكثير. وكانت الأشياء الخارجة عن نطاق التّلسكوب بعيدة عن اهتمام تورو.

كان صيفاً بارداً.

كانت نادرة تلك النّوعية من الأيام الصّيفيّة الّتي تدنو فيها شبه جزيرة إيدو بجلاء، وتغتلي السّحب الرّعدية في سماء صافية. كانت شبه الجزيرة في السُّدُم، وبدا نور النّهار كابياً. وقد سبق له أن شاهد صوراً التقطت حديثاً من قمر صناعي لرصد الأحوال الجوية. بدا

خليج سوروجا وكأنّه شبه مختفٍ، على الدّوام، في مزيج من الدّخان والضّباب.

أقبلت كينوي، في الصّباح، وهو وقت غير مألوف. وسألت عمّا إذا كان من المناسب أن تدخل الحجرة.

ـ إنّني وحدي، وقد مضى المشرف إلى المكتب الرّئيسي في يوكوهاما.

كان الخوف مرتسماً في عينيها.

سبق له، خلال أمطار الصّيف الباكرة، أن أثقل عليها كثيراً، فيما يتعلق بإحضارها الزّهور لوضعها في شعره، ولبعض الوقت كفّت عن المجيء. أمّا الآن فقد تواترت زياراتها من جديد، ولكنّ الخوف والشّعور بعدم الأمان، اللّذين شكّلا العذر لزياراتها، تفاقمت المبالغات فيهما.

ـ إنّها المرّة الثّانية. إنّها المرّة الثّانية، وثمّة رجل جديد، في كلّ مرّة.

بدأت القصّة، في اللّحظة الّتي جلست فيها. وقد بدا تنفسها ثقيلاً.

ـ ما الّذي حدث؟

ـ أحدهم يطاردك. عندما أجيء لزيارتك أحرص دوماً على ألاّ يراني أحد. وإذا لم أقم بذلك فربّما أتسبّب في تعقيدات. وإذا قدّر لهم قتلك فإنّ ذلك سيكون خطأ اقترفته يداي، ولن يكون أمامي خيار إلاّ الانتحار.

ـ عمّ تتحدّثين؟

ـ أقول لك إنّها المرّة الثّانية. وهذا هو السّبب في قلقي الشّديد. لقد حدّثتك بأمر المرّة الماضية. أتذكر ذلك؟ وقد كان الأمر على النّحو ذاته هذه المرّة، ولكن مع اختلاف يسير. لقد مضيت في نزهة، على شاطئ كوما جوي، هذا الصّباح، واقتطفت بعضاً من زنابق الشّاطئ، ثمّ انحدرت إلى الماء، ورحت أحدّق في البحر، دون أن يدور بخلدي الكثير.

ليس هناك الكثيرون على شاطئ كوما جوي، وقد سئمت من تحديق النّاس فيَّ. إنّني أحبّ التطلّع إلى البحر، وأشعر من جرّاء ذلك بالاسترخاء البالغ. وفي بعض الأحيان، أعتقد أنّني إذا وضعت جمالي في كفّة والبحر في كفّة أخرى، تعادلت الكفتان تماماً. وهكذا فإنّ الأمر يبدو كما لو أنّني أسلمت جمالي للبحر، ولم يعد لديَّ ما يثير القلق.

لم يكن هناك أحد، مجرّد شخصين أو ثلاثة يصيدون السّمك. وربّما لأنّ أحدهم لم يوفّق في صيد شيء ظلّ يحدّق فيَّ، فتظاهرت بعدم ملاحظة ذلك، ولكن تلك النّظرة المحدِّقة استقرّت على وجنتي وكأنّها ذبابة.

أشكّ في قدرتك على فهم مدى فظاعة الشّعور الّذي يثيره ذلك فيَّ. أقول لنفسي: هوذا الأمر يحدث مرّة أخرى. ينطلق جمالي محلّقاً بذاته، مجرِّداً إياي من حريتي، ويبدو وكأنّه شيء منفصل عني يتجاوز سيطرتي. ها أنا هنالك، لا أضايق أحداً، وكلّ ما أريده أن أُترك وشأني، وهوذا جمالي ينطلق ليخلق المتاعب. إنّني أعرف أنّ تلك إحدى علامات الجمال الحقّ. ولكن الجمال يغدو أسوأ أنواع مصادر الضّيق، عندما ينطلق بعيداً، معتمداً على ذاته.

أقول لنفسي إنّ هذا الجمال أثار رجلاً من جديد. لا يكاد يتاح لي وقت للتفكير في مدى كرهي له، وها هوذا، يعكف على تقييد رجل بالأغلال، مرّة أخرى. لقد كان من المارّة الأبرياء، والآن أصبح، على حين غرّة، وحشاً قبيحاً.

لقد كففت عن جلب الزّهور لك، ولكني أحبّ غرسها في شعري، عندما أنفرد بنفسي. كنت أغني، وقد وضعت زنبقة حمراء وردية في شعري.

لست أذكر ما الّذي كنت أغنيه. أليس الأمر غريباً، حينما يحدث ذلك، والواقعة لم يبعد بها العهد. ولكني أعتقد أنّها كانت حتماً أغنية نائية، حزينة، من النّوع المناسب لصوتي الجميل، إنّه لأمر مضجر للغاية، فأسخف الأغاني في أرجاء الدّنيا تصبح جميلة، عندما أغنيها.

أخيراً، أقبل الرّجل نحوي. كان شابّاً، وبالغ التّهذيب، بحيث دفعني إلى الرّغبة في الضّحك. ولكن كان في عينه شيء دنس، لم يكن بوسعه أن يخفيه. كانت عيناه كالصّمغ على تنورتي، وراح يتحدّث عن أنواع الأمور كافّة. ولكني تمكّنت من حماية نفسي. إنّني قلقة عليك.

حاول إرباكي بالحديث عن أنواع الأمور الأخرى كافّة، لكنه واصل الدّوران حولك. سأل عن نوعية شخصيتك، ومدى جدّيتك في العمل، وما إذا كنت ودوداً مع النّاس. وبالطّبع قلت له. قلت له إنّك أرقّ الأشخاص وأكثرهم اجتهاداً في الدّنيا. ثمّة شيء واحد بدا وكأنّه أثار دهشته، وذلك عندما قلت له إنّك إنسان فائق.

عرفت بغريزتي. إنّها المرّة الثانية. أتذكر؟ فقد حدث الشيء نفسه، على وجه التّقريب، منذ أسبوع أو عشرة أيام. أحدهم يتشكّل في شيء ما، فيما يتعلق بنا. شخص فظيع، لم يكشف النّقاب عن نفسه، سمع بي، أو ربّما رآني عن بعد، وجنَّ بي جنوناً، وقد كلّف شخصاً بالتجسّس فأكثر. إنّني خائفة. ماذا عساني أصنع إذا لحق ضرر بك دون ذنب جنته يداي إلاّ كَوْني بارعة الجمال؟ إنّني أعرف أنّ هناك مؤامرة من نوع ما. مؤامرة دبّرها العشق اليأس. ثمّة رجل ما طائل الثّراء، وبالغ القوّة، إلى حدٍّ يُثير الفزع، وبشع، كأنّه ضفدع الطّين، وهو يتربّص بي، متقفياً أثري من بعيد، وقد انطلق لاقتناصك.

راحت ترتجف، كوريقة شجر في مهبّ الرّيح، دون أن تتوقّف لالتقاط أنفاسها.

مضى تورو، وقد وضع ساقيه المكسوّتين بقماش أزرق متين، إحداهما على الأخرى، يدخّن سيجارة. تساءل عمّا عساه يكون لبّ هذا الأمر بأسره. وبغضّ النّظر عن تخيّلات كينوي المثيرة فقد كان على يقين من أنّ أحدهم يتحرّى أمره. من عساه يكون؟ ولماذا؟ الشّرطة؟ ولكنه لم يقترف ما يزيد على التدخين، بينما لايزال حدثاً.

لسوف يمعن في بحث المشكلة بنفسه، وفي غضون ذلك سيساعد تخيّلات كينوي، بإضفاء تحوّل منطقي عليها.

تحدّث، في وقار، قائلاً:

ـ ربّما كان الأمر على نحو ما تقولين، ولكني لن أكون آسفاً، على الإطلاق، إذا ما لقيت حتفي من أجل امرأة جميلة. في مكان ما يقبع

رجل قوي وثري وقبيح، منتظراً كالنمر؛ لينقضّ على شخص نقيّ، وجميل، وقد استقرّت عيناه علينا.

يتعيّن عليك أن تعلمي ما أنت بسبيله، عندما تقاتلين شخصاً مثله، فهو ينصب شباكه في كلّ مكان، والأمر الّذي يتعيّن القيام به هو التّظاهر بأنّك لا تقاومين، وكسب الكثير من الوقت، والبحث عن نقاط ضعفه. الأمر الّذي ينبغي القيام به هو أن تستجمعي قواك، وأن توجّهي الضّربة، عندما تعلمين ما هي نقاط ضعفه.

ينبغي عليك ألاّ تنسي، أبداً، للحظة واحدة، أنّ الجمال الخالص هو عدة الجنس البشري. والميزة الكبرى لهذا الرّجل هي أنّ الجنس بأسره يقف إلى جانبه. وهو لن يكفّ عن القتال للحظة، إلى أن نجثو ونقرّ بأنّنا من البشر بدورنا، وهكذا فعندما يحين الأوان علينا أن نستسلم، وأن نبتهل لآلهته، وإذا لم نبتهل كالمجانين فسوف يقتلنا، عامداً، وعندما نقوم بذلك فإنّه سيسترخي، ويدعنا نعرف نقاط ضعفه. علينا أن نصمد إلى أن يحدث ذلك، ونتمسّك في غضون ذلك باحترامنا لأنفسنا.

ـ فهمت تماماً، سأفعل ما قلته على وجه الدّقّة، ولكن لابدّ أن تساعدني، فجمالي السامّ هذا يجعلني أشعر على الدّوام بأنّني سأتعثّر وأسقط. وإذا مضينا معاً كتفاً لكتف فإنّ بوسعنا أن نطهّر الجنس البشري بأسره، وعندئذٍ سيغدو العالم فردوساً، ولن يكون ثمّة شيء آخر نخشاه.

ـ تماماً، كلّ شيء على ما يرام.

قالت وهي تلفظ الكلمات دونما تفكير، فيما هي تتراجع خارجة من الباب.

ـ أحبّك أكثر من أي شخص آخر في الدّنيا.

استمتع تورو على الدّوام بغيابها. عندما يغيب مثل هذا القبح، كيف يختلف عن الجمال؟ ولمّا كان الجمال الّذي شكّل مقدّمة الحوار بأسره غائباً هو نفسه فإنّ كينوي واصلت التضوُّع عطراً، بعد رحيلها.

* * *

بدا له الجمال، في بعض الأحيان، منخرطاً في البكاء، بعيداً، ربّما وراء الأفق مباشرة. مضى الجمال ينادي بصوت عالٍ، كصياح طيور التمّ، فتردّد صدى الصّيحة، واختفت. ولو أنّها اتّخذت شكلاً بشرياً لما كان ذلك لأكثر من لحظة. كينوي وحدها، شَرَك القبح، اصطادت التمّ. وراحت، منذ زمن بعيد، تغذوه بالوعي الذّاتي.

أقبلت السّفينة كويو ـ مارو، في الثّالثة والدّقيقة الثّامنة عشرة عصراً، ولم يكن من المنتظر قدوم سفن أخرى، حتّى السّاعة السّابعة. كانت هناك عشرون سفينة في ميناء شيميزو، من بينها تسع سفن تنتظر المراسي.

في المنطقة السّاحلية الثّالثة كانت هناك السّفن: نيكي ـ مارو الثّانية، ميكاسا مارو، الكاميليا، رياوا ـ مارو، ليانجاباي، أومياما ـ مارو، يوكاي ـ مارو، دنمارك ـ مارو، كويو ـ مارو.

عند برج هينودي، كانت هناك كاميشيما ـ مارو، وكاراكاسو ـ مارو.

عند برج فوجيمي كانت هناك تاي ـ مارو، وهوا ـ مارو، وياماتاكا ـ مارو وأرستينيكوس.

عند عوّامات إرشادية في أوريتو، وهو مرفأ للخشب، كانت هناك سانتين ـ مارو ودونا روسانا وإيسترن ماري.

وبسبب الخطر كانت هناك ناقلة نفط واحدة، هي أوكيتاما ـ ماور، عند أنبوب النّفط في منطقة الدّولفين المخصّصة لناقلات النّفط، وكانت توشك على الإقلاع.

رست ناقلات عملاقة، محمّلة بالنّفط الخام من الخليج، في منطقة الدّولفين، وكان بمقدور ناقلات أصغر، محمّلة بمشتقّات النّفط، القدوم إلى مرسى سوديشي الّذي كانت فيه سفينة واحدة، هي نيشو ـ مارو.

امتدّ خطّ فرعيّ للسكك الحديديّة من محطّة شيميزو مارّاً بعدد من المراسي وبمخازن متوحّدة، تابعة للجمارك، تعكس الضّياء الصّيفي المتوهّج، ويوغل وسط الأعشاب الصّيفيّة، حيث يشي ضوء البحر من بين المخازن بنهاية البرّ، ولكنّ الخطّ يترامى قُدُماً وكأنّما أريد به دفع المحرّكات البخاريّة العتيقة إلى البحر، ثمّ فجأة يطلّ الخطّ الصّدئ المتعرّج على البحر المتألّق. وعند نهايته يقوم ما يدُعى بمرسى السّكك الحديديّة، ولم تكن به سفن على الإطلاق.

كان تورو قد أدرج لتوّه السّفينة كويو ـ مارو في السّجل، بالنّسبة إلى المنطقة الثّالثة.

رست بعيداً عن الشّاطئ. وسيتعيّن أن تنتظر عمليّات الشّحن إلى الغد، ولم يكن هناك ما يدعو إلى التعجّل في إرسال نبأ وصولها. وفي حوالي الرّابعة تلقّى اتّصالاً هاتفياً يتضمن الاستفسار عمّا إذا كانت قد وصلت بالفعل.

في السّاعة الرّابعة تلقّى اتّصالاً من القبطان. هناك ثمانية قباطنة يعملون في نوبات، وكان الاتّصال يتضمّن إخطاراً له بمهامّ الغد.

أثقل الوقت على كاهله فراح يحدّق في البحر، عبر التّلسكوب.

ولكن فيما هو يحدّق عاد إليه الشكّ والشّبح المجسّدان للشرّ، اللّذان جلبتهما كينوي. بدا الأمر كما لو أنّ مرشّحاً مُعْتِماً قد انزلق على العدسات.

كان الأمر حقاً كما لو أنّ مرشّحاً مُعْتِماً قد امتدّ على هذا الصّيف بأسره. كسا الشّرّ، على نحو مراوغ، النّور، ليضفي القتام على التّألّق، وليحدّ من ظلال الصّيف القوية. فقدت السّحب خطوطها الخارجيّة الحادّة، وبدا البحر كما لو كان فارغاً، واحتجبت شبه جزيرة إيزو عن العِيان، في الأفق الّذي لاح بلون الصّلب الجامع بين الزّرقة والسّواد. اكتسى البحر بلون أخضر، كئيب، مضجّر. وأقبل المدّ على مهل.

خفض تورو التّلسكوب إلى الأمواج على الشّاطئ.

فيما هي تتكسّر انزلق عن ظهورها رشاش يشبه أوشابَ البحر، وتغيّرت أهرام الخضرة القاتمة، وعلت وانداحت متحوّلة إلى لون أشهب مترع بالقلق. لقد فقد البحر جلاله.

وحتّى فيما كان البحر يعلو فقد تكسّر عند الحوافّ، وغدت بقع البياض الوعرة من بطنه المرتفع وكأنّها هتاف حزن لا سبيل إلى الإفصاح عنه، سور من زجاج ناعم الحدّة ومتشقّف بلا انتهاء، شأن رذاذ هائل. وفيما هو يعلو وينخفض مشطت الجدائل الأماميّة متحوّلة إلى بياض جميل، وفيما هو يتهاوى أفصح عن الزّرقة والبياض

المنسّقين على نحو بديع في تاجه، وغدت خطوط البياض حقلاً رحباً من البياض، وعلى هذا النّحو راح يتهاوى، كرأس أطيح به.

يا لانتشار الزّبد وانحساره! مضت بقع من الزّبد ترحل نحو البحر وكأنّها صفوف من بقّ الماء.

راح الزّبد ينداح فوق الرّمل كالعرق المتحدّر من ظهر رياضي عند انتهائه من بذل قصارى جهوده.

يا لها من تغيّرات رقيقة طرأت على حجر البحر الأبيض، المُفْرد، فيما هو يقبل على الشّاطئ وينحسر! غدت الفوضى الهائلة الّتي أحدثتها الموجات النّاحلة والانحسارات الدّقيقة للزبد، في غمار استقتال محتدم، كياناً لانهائياً من الخطوط الّتي نفثت فوق البحر، كأنّما من ديدان القزّ. أي شرّ مراوغ يقهر بالقوّة الخالصة، حتّى فيما هو يستقبل هذا البياض الرّقيق!

الرّابعة والدّقيقة الخامسة عشرة.

كانت الشّمس زرقاء في مدارجها العليا. كانت الزّرقة نوعاً مصطنعاً ومتباهياً من اللّون الأزرق. وكان قد شاهد زرقة مماثلة في المكتبة، في مجموعة لوحات تنتمي إلى مدرسة فونتنبلو. وإذ شكّلت كلّها على نحو غنائي دفاعاً عن السّحب فإنّها لم تكن سماء صيفيّة على الإطلاق. كانت مطلية بالنّفاق المعسول.

نأت العدسات عن الشّاطئ، وتحوّلت نحو السّماء، والأفق، والبحر.

التقط التّلسكوب صورة سطح من رذاذ، بدا أنّه يقذف نفسه عالياً، نحو السّماء ذاتها. ما الّذي يمكن أن تكون موشكة عليه هذه النّقطة

الواحدة من الزّبد الّتي تلقي بنفسها عالياً فوق الأخريات؟ لماذا اختيرت؟

كانت الطّبيعة دائرة، الكلّ يمضي إلى الجزء، والجزء يعدو إلى الكلّ. وإذا ما قورن الكلّ بالنّظافة المسرعة للجزء فإنّه يبدو قاتماً، كدراً.

ترى أكان الشرّ أمراً عائداً إلى الكلّ؟

أم إلى الجزء؟

الرّابعة والدّقيقة الخامسة والأربعون. ما من سفينة تبدو في الأفق.

بدا الشّاطئ خاوياً. لم يكن ثمّة أحد يسبح، وليس هناك إلاَّ صائدا أسماك أو ثلاثة صيادين بالشباك. كان البحر دونما سقف بعيداً كلّ البعد عن الدّأب والخدمة. امتدّ خليج سوروجا، جهماً، كأشدّ ما تكون الجهامة، دونما حبّ، ودونما بهجة. كان يتعيّن أن تكون هناك سفن ذاهبة وعائدة، مُحْدِثة خطوطاً قاطعة كحدّ الموسى عبر هذا الكمال الواني الّذي لا يشوبه نقص. كانت السّفينة سلاحاً قوامه الازدراء الفاتر، في مواجهة الكمال، منزلقاً فوق جلد البحر النّاحل المشدود، وجارحاً إيّاه، دون أن يوغل، مع ذلك، إلى ما يتجاوز السّطح.

الخامسة.

اكتسب بياض الأمواج، للحظة، لون وردة صفراء، معلناً عن مقدم المساء.

رأى ناقلتي نفط سوداوين، كبيرة وصغيرة، تشقّان العباب، منطلقتين نحو البحر، إلى اليسار. إنّهما أوكيتاما ـ مارو، وحمولتها

ألف وخمسمائة طن، وقد غادرت شيميزو في الرّابعة والثّلث، ونيشو ـ مارو، وحمولتها ثلاثمائة طن، وقد غادرت في الرّابعة والدّقيقة الثّالثة والعشرين.

بدتا كشبحين في السّديم، ولم تبدُ حتّى خطوط الماء واضحة في أعقابهما.

خفض العدسات نحو الشّاطئ.

فيما اكتست الأمواج بلون المساء، بدت جهمة وثقيلة، اكتسب الضّوء، على نحو متزايد، لون الشّرّ، وغدت بطون الأمواج أشدّ قبحاً.

نعم. كانت الأمواج وهي تنحسر، رؤيةً متجلّية للشرّ. لاح له أنّها لابدّ أن تكون كذلك. كانت تبدو كأفواه فاغرة، في لحظة الموت.

إذ يدوّي اللّهاث، في غِمار المعاناة، تجرّ الأمواج خيوطاً لا حصر لها من اللّعاب. غدا اللّون الأرجواني الأرضي في الغسق فماً مزرقّاً، شاحباً.

وفي فمّ البحر الفاغر اندفع الموت. وإذ أفصح الموت عن الموت بجلاء مراراً وتكراراً، بدا وكأنّه مركز للشرطة يتخلّص من الجثث سريعاً، مخفياً إيّاها عن أعين الرّأي العامّ المُحدِّقة.

التقط تلسكوب تورو شيئاً ما كان ينبغي له التقاطه.

ساوره، فجأة، شعور بأنّ عالماً مختلفاً كان يُجتذب من هذه الفكوك الفاغرة. ولمّا لم يكن بالّذي تتراءى له الأشباح، فلا سبيل إلى الشكّ في أنّه موجود. ولكنّه لم يعرف طبيعته. وربّما كان شكلاً

رسمته الكائنات الحيّة الدّقيقة في البحر. كُشف النّقاب عن عالم مختلف في الضّوء المنبعث من الأعماق المظلمة، وعرف أنّه مكان سبق له أن رآه، ربّما كانت له علاقة بذكريات بعيدة على نحو لا سبيل إلى قياسه. ولئن كان هناك شيء من قبيل حياة سابقة، فربّما كان ذلك هو ما يجد نفسه بين يديه. وماذا يمكن أن تكون علاقة هذه الحياة السّابقة بالعالم الّذي يتطلّع إليه تورو على الدّوام؟ خطوة فيما وراء الأفق المتألّق؟ لو أنّ هذه الحياة السّابقة كانت رقصة عشب بحر اشتبك ببطن أمواج متكسّرة، فربّما كان العالم الّذي صُوِّر في تلك اللّحظة صورةً مصغّرة لأحمر وردي مخاطي ولتجعدات أرجوانية وتجاويف الأعماق المثيرة للغثيان. ولكن كانت هناك أشعّة والتماعات من بحر اخترقه البرق؟ مثل هذا الشّيء لم يكن محتملاً، في هذا البحر الهادئ الّذي غمره الغسق، لم يكن ثمّة ما يقتضي أن يكون ذلك العالم وهذا العالم متزامنين. هل كان العالم الّذي لمحه في زمن مختلف؟ أهو ينتمي إلى زمن مختلف عن الزّمن الّذي يقاس بساعته؟

هزَّ رأسه. وفيما هو يهرب من المشهد المحزن، غدا التّلسكوب مثيراً للشعور بالانقباض، انتقل إلى المنظار الميداني في ركن آخر من الحجرة. وراح يتابع هيكل السّفينة الكبير، فيما هي تغادر الميناء.

كانت السّفينة ياماتاكا ـ مارو، التّابعة لشركة ياما شيتا للملاحة، وتبلغ حمولتها ٩١٨٣ طناً، في طريقها إلى يوكوهاما.

ـ سفينة تابعة لشركة ياما شيتا غادرت الميناء لتوّها، في الطّريق إليكم. إنّها ياماتاكا. ياماتاكا. إنّها الخامسة والثّلث.

بعد أن أبلغ رسالته هاتفياً إلى المكتب الرّئيسي في يوكوهاما، عاد إلى المنظار، وراح يتابع من جديد ياماتاكا ـ مارو، وقد راح أعلاها يتداح في السّديم.

كانت العلاقة المميزة مؤلّفة من خطّ أسود، وحيد، قرب أعلى أرضية في لون البرسيمون. وقد كتب على هيكلها «خطّ ي.م» بحروف سوداء كبيرة. جسر أبيض، روافع حمراء. انطلقت السّفينة في هروب يائس من دائرة التّلسكوب. أرسلت خطوطاً بيضاء من مقدّمتها، وخرجت إلى عرض البحر.

مضت.

كانت هناك نيران احتفالية، فيما كان بقع فراولة أسفل النّافذة.

لقد نزعت كلّ الأغطية البلاستيكيّة الّتي ظلّت حتّى حوالي نهاية أمطار الصّيف تكسو المدى بأسره، فقد انقضى موسم الفراولة. لاحت في البعيد قطع منزوعة للزراعة الإجبارية، بعيداً عند محطّة فوجي الخامسة، مرحّبة بشتاء من صنع الإنسان. لسوف تعود في أواخر تشرين الأوّل (أكتوبر)، لتكون جاهزة لأسواق عيد الميلاد.

عكف النّاس على العمل وسط الأساسات، وعلى المسطحات السّوداء الّتي أزيحت منها الأساسات.

مضى تورو لتناول طعام العشاء.

كان لديه عشاء بسيط على قِمَطْره. لقد أرخى اللّيل أستاره.

الخامسة والدّقيقة الأربعون.

أطلّ قمر نصف مكتمل من السّحب، عالياً في السّماء باتّجاه

الجنوب. بعد لحظة لم يعد من الممكن تمييزه من السّحب، فكأنّه مشط عاجي أُلقي على أديم السّماء.

لاحت أشجار الصّنوبر، على امتداد البحر، سوداء. وكانت الظّلمة كافية لإبراز الأضواء الخلفيّة لسيارات الصّائدين بالشّصّ الّتي أوقفت عند الشّاطئ.

راح الأطفال يتدفّقون فوق الطّريق، عبر بقاع زراعة الفراولة. أطفال غرباء ينتمون إلى المساء. أطفال عجيبون، يقبلون إلى الغسق من لا مكان، يطفرون في جنون عبر الحقول.

أرسلت النّيران ألسنة لهيب، فيما وراء المكان.

الخامسة والدقيقة الخمسون.

ألقى تورو نظرة إلى أعلى فلمح علامة سفينة تعجز العين المجردة العادية عن تبيّنها، ومدّ يده إلى الهاتف. بلغت ثقته حداً كبيراً، بحيث أنّ يده امتدّت إلى الهاتف، قبل أن يتحقّق من العلامة.

ردّ وكيل السّفينة.

ـ مرحباً؟ هنا تيكوكو للإشارة. السّفينة دايتشو. لقد رأيتها لتوّي.

بدت وكأنّها لطخة أحدثها أصبع متسخ عبر لون أحمر وردي في الأفق الجنوبي الشّرقي. التقطها، وتعرّفها وكأنّه يفحص بصمة أصبع على الزّجاج.

علم من السجلّ أنّ دايتشو ـ مارو الّتي تبلغ حمولتها ٣٨٥٠ طناً هي سفينة نقل يبلغ طولها مائة متر، وتصل سرعتها إلى ١٢,٤ عقدة. والسّفن الوحيدة الّتي يمكن أن تتجاوز سرعتها عشرين عقدة هي سفن النّقل الدّولية. وأمّا سفن الأخشاب فهي أبطأ من ذلك.

شعر بقربه، على نحو خاص، من دايتشو ـ مارو، فقد دُشِّنت في الرّبيع قبل الماضي من ترسانات كانزاشي، هنا في شيميزو.

السّادسة.

في عُرْض البحر الأحمر الوردي، بدا الهيكل المعتم لدايتشو ـ مارو متجاوزاً لأوكتياما ـ مارو، موغلاً في المسير. كانت لحظة غريبة تنساب فيها صورة خارجة من حلم إلى رحاب الحياة اليوميّة، كياناً واقعياً انسرب من رحاب التّجريد، حيث تغدو قصيدةٌ كياناً ملموساً، ويتحوّل الخيال إلى شيء ظاهر للعِيان. إذا ما أخذ شيء عبثي، ومع ذلك حافل بالنّذر، إلى رحاب القلب، من خلال مسار بعينه، فإنّه يُولد في القلب دافع ملحّ إلى إضفاء شكل عليه، وهكذا يدخل شيء رحاب الوجود. ربّما ولدت دايتشو ـ مارو من قلب تورو. صورة تستعصي على التبيّن، فيما ضربة فرشاة غدت هيكلاً عملاقاً لسفينة تصل إلى أربعة آلاف طن، والشيء نفسه يحدث على الدّوام في مكان ما من العالم.

السّادسة وعشر دقائق.

جعلتها زاوية مقدمها تتضاءل، بدت رافعتاها كقرني خنفساء هائلة.

السّادسة وخمس عشرة دقيقة.

بدت واضحة، الآن، للعين المجرّدة، ولكنّها تردّدت، سوداء على الأفق، كشيء نُسي على رفّ. طُويت المسافة، ومكثت السّفينة، خنفساء سوداء تركت على رفّ الأفق.

السّادسة والنّصف.

كان بوسعه أن يرى خلال العدسات، شاقولياً، علامة المدخنة، حرف نون في دائرة من أرضية بيضاء. وتمكّن من تمييز أكوام من الحمولة.

السّادسة وخمسون دقيقة.

الآن وقد بدت دايتشو ـ مارو عريضة الجانب في القناة الملاحية، تبدّت أنوارها العلوية الحمراء، في مواجهة سماء اتّشحت بالغسق، وكستها السّحب، ولم يَعُدْ القمر يطلّ منها. انزلقت السّفينة متجاوزة أوكيتاما، شاقّة طريقها الشّبحي، عبر البحر. كانت هناك مسافة كبيرة بينهما، ولكن الأضواء اشتبكت في منظور ضيق، وبدا الأمر كما لو أنّه في البحر المظلم راحت مقدّمتا سيجارتين مشتعلتين تحتكّان إحداهما بالأخرى، وتنفصلان.

قدّمت دايتشو ـ مارو من ميناء أجنبي، وقد وضعت حاجزين حديديين، هائلين، لمنع الحمولة من السّقوط إلى الماء، من فوق سطحها. تكوّمت على السّطح جذوع أشجار هائلة أحرقتها الشّمس الاستوائيّة أحدها إلى جوار الآخر، وبكميّات كبيرة جعلت خطّ الماء يحتجب عن العيان، ولاحت وكأنّها الجثث الملفوفة لعبيد أقوياء، هائلين، تضرب بشرتهم إلى اللّون البنّي.

فكّر تورو في اللّوائح الجديدة الخاصة بخطوط الماء، وهي تشبه الأدغال في تفاصيلها. كانت خطوط الماء، بالنّسبة إلى السّفن ناقلة الأخشاب، تنتمي إلى ستّ نوعيات: صيفيّة، شتائيّة لشمالي الأطلسي، استوائيّة، صيفيّة في الماء العذب، استوائيّة في الماء العذب. وقسّمت الفئة الاستوائيّة فضلاً عن ذلك إلى استوائيّة بحكم

المنطقة، واستوائيّة بحكم الفصل. وكانت دايتشو ـ مارو تنتمي إلى النّوع الأوّل، وتخضع لـ «اللّوائح الخاصة بنقل الأخشاب على السّطح». وكان تورو قد استظهر بافتتان السّطور الّتي تحدّد المنطقة الاستوائيّة.

من السّاحل الشّرقي لأميركا الشّمالية على امتداد الموازي الثّالث عشر الموازي للشرق إلى خطّ الطّول ٦٠ درجة غرباً، ومن هناك مباشرة إلى ١٠ درجات شمالاً في ٥٨ درجة غرباً، ومن هناك على امتداد الموازي العاشر إلى ٢٠ درجة غرباً، ومن هناك على امتداد خطّ الطّول عشرين إلى ٣٠ درجة شمالاً، ومن هناك إلى ساحل إفريقيا الغربي... ومن هناك إلى ساحل الهند الغربي... إلى ساحل الهند الشّرقي... إلى ساحل الملايو الغربي... ومن هناك على امتداد السّاحل الجنوبي الشّرقي لآسيا إلى الموازي العاشر على ساحل فيتنام... من سانتوس... السّاحل الشّرقي لإفريقيا إلى السّاحل الغربي لمدغشقر... قناة السّويس... البحر الأحمر، عدن، الخليج.

كان خطّ خفيّ يرسم من قارّة إلى أخرى، ومن محيط إلى آخر، وما في الدّاخل سمّي «بالاستوائي»، وهكذا، فجأة، ظهر «الاستوائي» بثمار جوز هنده وجروفه القارية وبحاره الّتي تتّخذ لون الكوبالت، وسحبه العاصفة، ورياحه المصحوبة بالمطر، وصيحات ببغاواته المتعدّدة الألوان.

جذوع أشجار اللّوان، وقد تناثرت عليها الرّقاع القرمزيّة والذّهبية والخضراء، الدّالة على المناطق الاستوائية. كتل مكوّمة من اللّوان، كانت قد بلّلتها أمطار استوائيّة، وعكست سماء دافئة حافلة بالنّجوم،

هاجمتها الأمواج، وتآكلتها بقّات الأعماق اللاّمعة، ولم يكن بوسعها أن تحلم بأنّها يدفع بها في نهاية الرّحلة نحو ضجر الحياة اليوميّة.
السّابعة.

تجاوزت دايتشو ـ مارو البرج الثّاني: وراحت أضواء الميناء تتوهّج.

لمّا كانت قد أقبلت في ساعة غير مناسبة، فإنّ إجراءات الحجر الصّحي والتّفريغ سيؤجّلان إلى صباح الغد. ورغم ذلك قام تورو بإجراء الاتّصالات الهاتفيّة المعتادة: القبطان، الشّرطة، مشرف الميناء، الوكيل، القائمون على الأمداد، المغسلة.

ـ دايتشو مقبلة إلى المرسى ٣ ـ ج.

ـ مرحباً؟ هنا تيكوكو للاتّصالات. دايتشو مقبلة إلى المرسى ٣ ـ ج. الحمولة؟ خطّ الماء يكاد يُرى.

ـ امدادات شيميزو؟ هنا تيكوكو للاتّصالات. شكراً على كلّ شيء. دايتشو وصلت لتوّها إلى المرسى ٣ ـ ج. إنّها قبالة فنار ميو في الوقت الحالي.

ـ شرطة شيزوكا؟ دايتشو مقبلة. غداً في السّاعة السّابعة، إذا سمحت، لطفاً!

ـ دايتشو. د. ا. ي. ت. ش. و. نعم. إذا سمحت، لطفاً!

ـ ١٤ ـ

فـرغ تـورو مـن عشـائـه وحمّـامـه، ذات مسـاء مـن أواخـر آب (أغسطسّ)، لم يكن مكلّفاً فيه بنوبة عمل. خرج لاستنشاق الهواء الجنوبي البارد، تحت ظُلّه الشّرفة الزّرقاء الّتي كان حرّ النّهار قد ترك بصمته عليها. وكانت هناك أبواب على امتداد الشّرفة الرّثة الّتي بلغها بدرج حديدي.

إلى الجنوب مباشرة كانت هناك باحة لقطع الأخشاب وتوزيعها، تزيد مساحتها عن مائة متر مربع، وقد لاحت تقاطعاتها معتمة تحت الأضواء. وكـان الخشب يبدو لتورو، في بعض الأحيان، كـوحش هائل، صامت.

كانت هناك محرقة في الأجمة، الواقعة فيما وراء ذلك، وقد تمنّى تورو لو رأى لهباً يفصح عن ذاته، في هيئة الدّخان المنبعث من مثل هذه المدخنة الهائلة، ولكنّ ذلك لم يتحقّق له قطّ.

كانت القمّة المطلّة من الجبل المظلم، الواقع إلى الجنوب، هي قمّة نيهونديرا. وكان بمقدوره أن يرى سيولاً من أضواء السّيارات، على الطّريق المفضي صُعُداً إليها، وكانت هناك مجموعات من أضواء الفنادق وأنوار أبراج التّلفزيون الحمراء.

لـم يسبـق لتـورو أن ارتاد الفنـادق، ولـم يعـرف شيئـاً عـن الحيـاة المترفـة. وقـد عـرف أنّ الثّـراء والفضيلـة لا يتّفقـان، ولكنـه لـم يكـن

مهتمّاً بجعل العالم فاضلاً. والثّورة يمكن تركها لآخرين. ولم يكن هناك مفهوم يكنّ له كرهاً أعظم من المساواة.

أوشك على أن يدلف إلى الدّاخل، عندما توقّفت سيّارة من طراز كورونا عند الدّرج. لم يستطع تبيّن التّفاصيل، ولكنّه كان على يقين من أنّه رآها من قبل، وانزعج، عندما ترجّل المشرف منها.

أمسك المشرف بمغلف كبير بقوّة، واندفع يرقى الدّرج وثباً، على نحو ما يفعل دائماً لدى قدومه إلى محطّة الإشارة.

ـ ياسوناجا، أهذه دارك؟ مساء الخير. يسعدني أن أجدك بالدّار، لقد أحضرت بعض الشّراب، فدعنا نشرب شيئاً منه، ونتحدّث.

قالها، دون أن يكترث بأنّ يسمعه الآخرون.

اقتعد الحشية التي قدّمها له تورو، وراح يتطلّع حوله وهو يمسح العرق عن جبينه:

ـ إنّك مرتّب للغاية.

انتهى العمل في المبنى، في العام الماضي فحسب. بدا الأمر كما لو أنّ الغبار لم يسمح له بالتّراكم. كانت هناك زخرفة بشكل ورقة شجرة القيقب، على الزّجاج المرقّش للنوافذ المحاطة بالألومنيوم، وكانت هناك بداخلها أبواب من الورق. كانت الجدران بلون أرجواني شاحب، وخشب السّقف من نوعية أجود من أن تستخدم في هذا الغرض، وعند ارتفاع الخصر على الباب كانت هناك زركشة مرقشة بنمط زخرفي خيزراني، وقد زخرفت الأبواب بين الغرف بدورها، بنمط زخرفي غير مألوف، فقد كانت أذواق المستأجرين تقتضي أحدث الموادّ.

بلغ الإيجار الشّهري اثني عشر ألفاً وخمسمائة ينّ، وبالإضافة إلى ذلك خُصّص مبلغ مائتين وخمسين ينّاً شهرياً لصندوق صيانة مشترك. أعرب تورو عن شكره للمشرف، على نصف الإيجار الّذي تدفعه الشّركة.

ـ ولكن ألست وحيداً وأنت مقيم دونما أنيس على هذا النّحو؟

ـ لقد اعتدت على الوحدة، وكذلك أظلّ وحدي في المحطّة.

ـ ذلك صحيح، بالطّبع.

التقط المشرف زجاجة «سونتوري سكواير» من حقيبته، وكذلك بعض المقبّلات، قطع صغيرة من الحبار، وقطع خبز معجونة بالقريدس، وقال إنّه إذا لم تكن لدى تورو كؤوس للشراب فلابأس بالأكواب.

كان هناك أمر غير مألوف، فلم يكن من عادة المشرف القدوم لزيارة مرؤوسيه وقد تزوّد بهذا كلّه. لا يمكن أن تُخفي الزّيارة خيراً. ولمّا لم تكن لتورو علاقة بالحسابات، فلم يكن من المحتمل أن يوجّه إليه الاتّهام بقبول رشوة، ولكن لابدّ أنّه قد ارتكب خطأ خطيراً، دون أن يدرك ذلك. وها هو المشرف يلحف في الدّعوة إلى الشّراب الموجّهة إلى فتى كان قد وبّخه لإدمانه التدخين. تأهّب تورو لتلقّي نبأ فصله من العمل، ولكنّه كان يعلم أنّه حتّى دون نقابة فإنّ هذا العالم ليس بالعالم الّذي يعامل فيه الشّباب المجتهدون معاملة خشنة، على الرّغم من أنّهم قد لا يكونون أكثر من رجال إشارة من الدّرجة الثّالثة. وهناك كثير من الوظائف، إذا كلّف نفسه عناء البحث عنها. استعاد من جديد سيطرته على نفسه، وألقى نظرة على المشرف بما يشبه الإشفاق. كان على يقين من أنّه بمقدوره أن يلقى

بكبرياء كلّ ما يمكن أن يجيء، حتّى ولو كان إخطاراً بالفصل. وأيّاً كان ما يمكن أن يفكّر فيه خصمه فقد كان تورو يعلم أنّه جوهرة لا تتوافر بسهولة.

رفض الويسكي الّذي ألحف المشرف عليه في قبوله، وجلس في ركن لا يصله تيّار الهواء، وقد توهّجت عيناه الجميلتان.

قد يكون وحيداً في الدّنيا، ولكنّه يقيم في قلعة صغيرة من جليد، متحرّراً من الطّموح والطّمع والشّهوة الّتي تتعثّر فيها خطوات الآخرين. ولأنّه يكره مقارنة نفسه بالآخرين فقد تحرّر تماماً من الحسد والغيرة، ولأنّه قطع الطّريق إلى التّناسق الدّنيوي منذ البداية فإنّه لم يتشاجر مع أحد، وترك الآخرين ينظرون إليه على أنّه سنجاب أبيض، رقيق، مدلّل، لا ضير منه. وكان فُقدان وظيفة هو أصغر التّوافه شأناً.

عكف المشرف على الشّراب استجماعاً لأطراف شجاعته:

ـ تلقّيت اتّصالاً هاتفياً من المكتب الرّئيسي، قبل أيّام، ورحت أتساءل عمّا يمكن أن يعنيه، وتبيّن أنّه استدعاء من الرّئيس نفسه. دعني أبلغك بأنّني دهشت. ومضيت إلى مكتبه متسائلاً عمّا سيعقب ذلك، ويتعيّن عليَّ الاعتراف بأنّني كنت أرتجف رغماً عني. وهنالك كان الرّئيس والابتسامات تطفر على شفتيه. طلب منّي الجلوس فعرفت أن الأنباء لن تكون سيّئة، ولكن اتضح أنّها ليست سيّئة ولا سارّة كذلك، بقدر ما تبدو لي. ماذا تعتقد أنّ الأمر كان؟ طيّب، كان الأمر متعلقاً بك.

ثبتت عينا تورو عليه. ثبت أنّ الأنباء تتجاوز خياله، وليس للأمر علاقة بالفصل من العمل.

ـ على أنّني لم أدهش كليّة، رغم ذلك. فقد جاء الأمر عن طريق رجل أكبر سنّاً، كان قد أسدى الكثير للرئيس. هناك شخص يريد أن يتبنّاك، ويتعيّن عليَّ جعلك توافق، حتّى ولو اضطررت إلى إرغامك، تلك مسؤولية جسيمة ألقاها على كاهلي الرّئيس نفسه. لقد أبدى أحدهم استعداداً لدفع مقابل كبير لك، أو قد يكون الأمر أنّ أحدهم يعرف الشيء الجيد، عندما يقع بصره عليه.

خطرت فكرة حميمة لتورو. لابدّ أنّ للأمر علاقة بالمحامي العجوز الّذي ترك له بطاقته.

ـ أتصوّر أنّ اسمه هوندا.

ـ ذلك صحيح. كيف عرفت؟

قالها المشرف، دهشاً.

ـ لقد جاء مرّة لإلقاء نظرة على المحطّة، ولكن يبدو من الغريب أنّه يرغب في أن يتبنّاني، بعد تلك المرّة اليتيمة.

ـ يبدو أنّه أجرى عمليتي تحرٍ أو ثلاثاً، اتّسمت بالدّقّة، عنك.

تجهّم وجه تور، وتذكّر الأنباء الّتي تلقّاها من كينوي:

ـ ليس ذلك بالأمر الّذي يدعو للسرور، لدى القيام به، في مواجهة شخص بعينه.

ردّ المشرف متعجّلاً، في نوع من الاضطراب:

ـ ولكن لابأس بذلك. لقد اكتشف أنّك شاب مثالي، وليس هناك شيء ضدّك.

لم يكن تفكير تورو منصرفاً إلى هوندا، بقدر انصرافه إلى تلك العجوز المدلّلة، الآخذة بالأساليب الغربيّة الّتي تنتمي إلى عالم

غريب عن تورو تماماً، وهي تنثر ذرورها المحرشف، مثل عثّة مبهرجة.

أبقى المشرف تورو مستيقظاً حتّى السّاعة الحادية عشرة والنّصف، وفي بعض الأحيان كان رأسه يميل، بتأثير النّعاس، جانباً، وقد لفّ ذراعيه حول ركبتيه، ولكنّ المشرف الّذي كان الشّراب قد هيمن عليه، كان يهزّه موقظاً إيّاه، ويواصل الحديث.

الرّجل أرمل وثريّ وشهير. وقد رأى أنّه ممّا يخدم مصالح عائلة هوندا واليابان، على نحو أفضل، أن يتبنّى شابّاً موهوباً حقاً وراغباً في ذلك، بالمقارنة بما سيكون عليه الحال لو أنّه تبنّى فتى أبله من عائلة رفيعة المقام. لسوف يجلب المدرّسين بمجرّد إنجاز إجراءات التبنّي، ليضع تورو في أفضل المدارس للإعداد للحاق بالجامعات وبخير الجامعات. وقد علّق الأب المنتظر الآمال على أنّ تورو سيختار دراسة القانون أو الأعمال، ولكنّ القرار الأخير ينبغي، بالطّبع، أن يكون قراره، ولن يتوانى الأب عن تقديم تعقيدات عائليّة، وسيذهب ميراثه كاملاً إلى تورو. هل يمكن أن يكون أي اقتراح أكثر جاذبيّة من هذا؟

ولكن لماذا؟ راح السّؤال يَنْخَس احترام تورو لنفسه.

لقد قفز الشّخص الآخر على شيء ما. وتطابق ذلك، من خلال تزامن رائع، مع شيء كان تورو نفسه قد قفز عليه. بدا للآخر، ولتورو نفسه، أنّ لاعقلانية الأمر بأسره كانت طبيعية، والشّخصان اللّذان دفعا إلى قلب الموضوع هما اللّذان تتطلبهما الفطرة السّليمة، وفي تضاعيف ذلك يأتي الرّئيس والآخرون.

تلقّى تورو النّبأ باعتباره شيئاً لا يثير الدّهشة على الإطلاق. فقد كان مستعدّاً لحلّ غريب للعقدة في اللّحظة الّتي التقى فيها بالعجوز الهادئ وكان واثقاً من أنّ أحداً لن يكتشفه، ولكن خاصّية عدم وقوعه في قبضة الدّهشة منحته الثّقة لتمرير حكم كريم على أخطاء فادحة كليّة حول نفسه وابتلاع النّتائج. وإذا تكشّفت عن هراء في نهاية المطاف فإنّها نتائج خطأ جميل. وإذا كان اضطراب في وعي العالم قد حُمل على أنّه مقدّمة واضحة بذاتها فإنّ أي شيء يمكن أن يعقب ذلك. لقد أدّت الرّؤية القائلة بأنّ كلّ سماحة وتشدّد وُجّه إليه إنّما قام على خطأ إلى جلب احترام للنفس يعمى عن الحقائق، وإنكار للذات باعتبارهما النّتيجة النّهائيّة للنزعة الكلبيّة.

لم يكن تورو يحمل إلاّ الازدراء للجبر، وكان الاختيار بالنّسبة إليه لا شيء. وإذا كان قد تخيّل نفسه واقعاً في كوميديا أخطاء عتيقة، فقد كان لديه سبب مناسب يحدوه إلى ذلك. لم يكن من شكّ في أنّه ليس هناك ما هو أكثر استدعاء للسخرية من غضب شخص لا مجال للاختيار أمامه، وقد داخَلَه الظّنّ بأنّ اختياره يُداس بالأقدام. لو أنّه تصرف بطريقة عقلانية، هادئة، فإنّ القول بأنّه ليست لديه رغبة خاصّة في أن يصبح ابناً بالتبنّي يعادل القول بأنّه على تمام الاستعداد لأن يصبح ابناً بالتبنّي.

من شأن معظم النّاس أن يصبحوا متشكّكين، حيال الأسباب غير الملائمة الّتي تُقدَّم لهم. ولكن تلك المسألة قوامها موازنة تقدير آخر في مواجهة تقدير المرء لنفسه، وهو درب لم تختر أفكار هوندا أن تطرقه. فهو لم يقارن نفسه بآخر. وفي غمرة هذا كلّه بدا الاقتراح ألعوبة طفل، ومفتقراً إلى عنصر الجبر، وغدا شيئاً شبيهاً إلى حدّ

كبير بنزوة رجل عجوز، وغدا عنصرُ ما لا سبيل إلى الهرب منه ضعيفاً، وصار الاقتراح أيسر في قبول تورو له. فالشّخص الّذي لا قدر له ولا مصير لا يقيّده ما لا سبيل إلى الهرب منه.

بدا الاقتراح، باختصار، صدقات تتّخذ من الجهد التّربوي قناعاً لها.

من شأن فتى فخور بنفسه، على نحو عادي، ويتمتّع بمعنويات عالية، أن يقول: لست متسوّلاً.

ولكن هذا النّوع من الاحتجاج تلفّه رائحة التّأثّر بمجلّات الصِبْية. وكان تورو مسلّحاً بسلاح أكثر غموضاً، هو الابتسامة. فقَبِل من خلال الإنكار.

في حقيقة الأمر فإنّ تلاعب الضّوء، عندما كان يتأمّل ابتسامته الملغزة في المرآة، كان في بعض الأحيان يجعلها تبدو كابتسامة فتاة في مقتبل العمر. ربّما كانت فتاة في أرض نائية، تتحدّث لغة تستعصي على الفهم، وتحظى بمثل هذه الابتسامة الملغزة باعتبارها دربها الوحيد إلى التّواصل. لم يكن يرغب في أن يفهم أنّه يقول إنّ الابتسامة ذات طابع نسائي، ورغم ذلك فإنّها لم تكن ابتسامة رجل، إنّها تحوي خاصّية كخاصّية طائر ينتظر في وُكْنته في اللّحظة الأكثر دقّة متحرّراً من كلّ من الخوف والغنج، بين التّردّد والحسم، متأهباً، بسبب خصم، لأزمة كأزمة الانطلاق في ممرّ مظلم. بين الظّلام والفجر، لا سبيل إلى تبيّن الدّرب أو التلّ، وكلّ خطوة قد تعني الغرق. بدت تلك الابتسامة في بعض الأحيان ابتسامة لم يرثها عن أي من أبويه، ولكنّه حازها من فتاة في مقتبل العمر، غريبة عنه، كان قد قابلها في شبابه الغابر.

ولم يكن الغرور هو الّذي دفعه إلى الاعتقاد بذلك. كان بمقدوره أن يرى نفسه من جانب لآخر. وكانت الثّقة في أنّ أشدّ الأشخاص لماحية لم يكن بوسعه أن يراه كما يرى نفسه هي أساس احترامه لنفسه، ومادام الأمر قد كان بالنّسبة إلى تورو هو ما يراه الآخرون، فإنّ عرض تقديم الصّدقات كان عرضاً لظلّ تورو الحقيقي، غير قادر بالمرّة على أن يجرح احترامه لنفسه. كان تورو آمناً في سربه.

ولكن هل كانت دوافع الرّجل على مثل هذا القدر من الاستعصاء على الفهم؟ لم يكن ثمّة شيء يستعصي قطّ على الفهم فيها. فهم تورو الأمر تماماً. إنّ مَنْ هو ضحية الضّجر قادر على أن يبيع العالم لبائع الثّياب المستعملة.

ضمّ تورو ذراعيه حول ركبتيه، وراح رأسه يتمايل، بتأثير النّعاس، وكان قد اتّخذ قراره. ولكن الأخلاق الحميدة اقتضت منه أن يؤجّل موافقته إلى أن يستطيع المشرف أن يغدو أكثر فخراً بالعرق الّذي سال منه، في غمرة أداء هذه المهمّة.

كان أكثر سعادة منه في أي وقت آخر، بخاصّيته المتمثّلة في عدم معرفته بعالم الأحلام. كان قد أضاء طارد البعوض ليدفعه عن المشرف، ولكنّ البعوض انقضّ على قدميه وكاحليه. وتألّق موضع الحكّ في وسنه كسنى البدر، وحدّث نفسه على نحو غامض بأنّ عليه أن يغسل يديه اللّتين راح يحكّ بهما قدميه.

ـ طيّب، أخشى أنْ يكون النّعاس قد ألمّ بك. ولك كلّ الحقّ في ذلك، فقد انقضى اللّيل، عملياً، ما أغرب ذلك! إنّها الحادية عشرة والنّصف بالفعل. لقد بقيت أطول بكثير ممّا ينبغي. وهكذا فإنّ القصّة تبدو جيدة، بالنّسبة إليك. أتوافق؟

فيما وقف المشرف استعداداً للرحيل وضع يداً توحي بالإقناع على كتف تورو.

قال تورو، متظاهراً بأنّه لم يستيقظ إلاّ الآن:

ـ أجل، أوافق.

ـ أتوافق؟

ـ أوافق.

ـ شكراً لك، شكراً لك. سأهتمّ بكلّ ما عدا ذلك. فكّر فيَّ باعتباري والداً لك. اتفقنا؟

ـ نعم، سأكون ممتناً، لو قمت بذلك.

ـ لكنّها ستكون خسارة للمحطّة أن ندع فتى طيباً مثلك يمضي.

كان أشدّ إيغالاً في السّكر من أن يقود السّيّارة، فمضى تورو، وأحضر سيّارة أجرة، وودّعه مرسلاً إيّاه مع السّائق إلى داره.

ـ ١٥ ـ

لم تكن لدى تورو نوبة عمل في اليوم التّالي، فأمضى اليوم في مشاهدة فيلم، والتفرّج على السّفن في المرفأ. وكانت نوبة عمله تبدأ في التّاسعة من صباح الغد.

بعد عدد من الأعاصير تكشّفت سماء أواخر الصّيف، للمرّة الأولى، عن سحب صيفيّة. كان أكثر انتباهاً من المعتاد بالنّسبة إلى السّفن، معتقداً أنّ هذا الصّيف سيكون صيفه الأخير في المحطّة.

كانت السّماء جميلة في ذلك المساء. وقد حوّمت خطوط من السّحب فوق المحيط وكأنّها إلّه العواصف ذاته.

ولكن غابة السّحب الجليلة الّتي يشوبها اللّون البرتقالي، قد علتها طبقة أخرى من السّحب، وهنا وهناك تضرّجت العضلات القويّة لسحب العواصب خجلاً، وانهلّت السّماء الزّرقاء وراءها منسابة عليها في تيهور من اللاّزورد السّامق. كانت هذه الطّبقة قاتمة، وقد تألّقت مثل قوس لامع.

كانت الطّبقة الأقرب والأعلى من طبقات السّحب. وفي منظور مبالغ فيه بدت الطّبقات الّتي انداحت وراءها وكأنّها تهبط درجاً فيما وراء السّماء الصّافية حدّث تورو نفسه بأنّ تلك ربّما كانت حيلة قامت بها السّحب، وربّما كانت السّحب تخدعه في غمرة قيامها بعرض لاستقطاب العين.

وسط سحب تشبه صور محاربين من صلصال أشهب، عتيق، كان البعض منها يوحي بتنانين تلتوي، على نحو غاضب ومعتمر، إلى أعلى. واكتسى البعض، فيما هو يفقد شكله، باللّون الوردي. وفي التوّ انفصل إلى ألوان لطيفة حمراء وصفراء وأرجوانية، وتخلّت عنه قواه العاصفة. كان البياض المتألّق لمحيّا الرّبّ قد اكتسى بلون الموت الرّمادي.

- ١٦ -

دهش هوندا إذ علم أنّ ميلاد تورو الّذي وافق العشرين من آذار (مارس) عام ١٩٥٤ قد جاء قبل وفاة ينج تشان، فأمر بإجراء المزيد من التحرّي، ورغم ذلك مضى قُدُماً بإجراءات التبنّي.

أحسّ بالأسف والنّدم؛ لأنّه لم يعرف من أختها إلاّ أنّ موتها كان في الرّبيع، ولم يَسْعَ إلى المزيد من المعلومات المحدّدة. استفسر في السّفارة الأميركيّة عن مقرّ إقامة الأخت الّتي كانت قد عادت إلى أميركا، وبعث باستفسارين أو ثلاثة استفسارات، ولكنه لم يتلقَّ، في معرض الردّ، أدنى قدر من المعلومات. وكان له صديق في وزارة الخارجية فدفعه إلى تحرّي الأمر، عن طريق السّفارة اليابانيّة في بانكوك، ولكنّ الردّ الوحيد كان أنّ تحقيقاً يجري في الأمر، ثمّ أعقب ذلك صمت.

كان بمقدوره التّفكير في عدد لا حصر له من وسائل معرفة جليّة الأمر، لو أنّه ضرب صفحاً عن النّفقات. ولكن باقتصاد في غير موضعه في الإنفاق ونفاد صبر الشّيخوخة، أهمل النّظر في موضوع موت الأميرة، حتّى وهو يمضي قُدُماً في إجراءات التبنّي، فقد بدا له الأمر أكثر تعقيداً من أن يتحمّله.

ربّما كانت أعصاب هوندا عام ١٩٤٤، وكان يساورها التّوتر إزاء المبادئ المالية التّقليديّة، ماتزال شابّة وصامدة. وأمّا الآن، وفيما الفطرة السّليمة التّقليديّة تتداعى، فقد راح هوندا يتشبّث بها في

عناد، وكانت النّتيجة شجاراً مع مستشار مالي يصغره بخمسة عشر عاماً.

كان، رغم كلّ شيء، قد راكم في ربع القرن الأخير ثروة تُقدَّر بحوالي مليوني دولار. وكان مبلغ المليون دولار الّذي وصل إليه في عام ١٩٤٨ قد قسّمه بوضوح إلى ثلاثة أقسام وضعها في الأسهم والعقارات والأوعية الادّخاريّة، وقد زاد القسم الخاصّ بالعقارات إلى عشرة أمثاله، والقسم الخاصّ بالأسهم إلى ثلاثة أمثاله، بينما تقلّص القسم الخاصّ بالأوعية الادّخارية.

لم يفقد ذوقه الخاصّ بالأسهم الّتي يفضّلها السّادة المهذّبون من كبار السّن، الّذين كانوا يرتدون ملابس ذات ياقات مجنّحة، ويلعبون البليارد في النّوادي المقامة على الطّراز الإنجليزي. ولم يتحرّر من أذواق عصر كانت علامة الانتماء إلى طبقة رفيعة فيه تتمثّل في أن كون المرء حائزاً أسهماً متميّزة، ويمكن الاعتماد عليها «مثل أسهم شركات غاز طوكيو، وطوكيو للإطفاء والخدمات البحريّة وطاقة كهرباء طوكيو وطاقة كهرباء كانساي، وأن يزدري المضاربة. ومع ذلك فإنّ الأسهم غير المثيرة للاهتمام الّتي شكّلت على نحو شامل حافظة أوراقه المالية تضاعفت قيمتها المالية ثلاثة مرّات. وبسبب نسبة الإعفاء من الضّرائب المخصّصة للأرباح الّتي يعاد استثمارها وهي خمسة عشر في المائة، فإنّه لم يكد يدفع أي ضرائب عن دخله النّاتج من الأرباح.

كانت الأذواق في الأسهم شبيهة بالأذواق في ربطات العنق، فالرّبطات العريضة، المبهرجة، العصريّة لم تكن ممّا يليق بالرّجل العجوز وضعه. وإذ كان بعيداً عن حصاد مكاسب الأذواق القديمة فإنّه لم يجازف كذلك بالتعرّض للمخاطر.

في العقد المنصرم منذ ١٩٦٠، أصبح من الممكن، على نحو ما هو الحال عليه في أميركا، تخمين عمر الرّجل من الأسهم الّتي يمتلكها، ويوماً بعد يوم أصبحت الأسهم المتألّقة، البارزة، أكثر ابتذالاً، متّخذة مظهر العامة من النّاس وطابعهم. ومنتجو أجزاء التّرانزستور الصّغيرة، الّذين يسجلون مبيعات سنوية قوامها عشرة مليارات ينّ، والّذين قفز سهم شركاتهم من خمسين يناً، ذات يوم، ليصل الآن إلى ألف وأربعمائة ينّ، أصبحوا من المعالم العادية تماماً.

وبينما أبدى هوندا اهتماماً كبيراً، فيما يتعلق بذوقه في الأسهم والسّندات، فإنّه لم يتّسم بالحساسيّة بالنّسبة إلى الذّوق في مجال العقارات.

لقد حقّق ربحاً طيّباً للغاية من المنازل الّتي أقامها في ١٩٥٣ للجنود الأميركيين، قرب قاعدة ساجا ميهارا. ففي تلك الأيّام كان بناء المنازل يكلّف أكثر من شراء الأرض. وبناء على نصيحة مستشاره المالي، تجاهل هوندا المنازل في أوّل الأمر، وقام بشراء عشرة هكتارات من الأراضي غير الممهّدة، مقابل مائة ينّ أو نحو ذلك للمتر المربّع، وأمّا الآن فكلّ متر مربّع قد تصل قيمته إلى عشرين ألف ينّ. وأصبحت الأرض التي دفع في شرائها ثلاثة ملايين ينّ تساوي حوالي سبعمائة وخمسين مليون ينّ.

كانت تلك، بالطّبع، رمية من غير رام. وقد واتاه الحظّ الطّيّب، بالنّسبة إلى جانب من أرضه، وصادف حظّاً أقلّ تألّقاً، بالنّسبة إلى جانب آخر، ولكن أياً من أجزاء أرضه لم يفقد قيمته. وقد ساوره الشّعور بالندم لأنّه لم يترك نصف تلك الأرض الغابيّة، المقدّرة بمليون دولار، على حالها.

شكّلت تجربته في كسب المال تجربة غريبة. ومن المؤكّد أنّه كان بمقدوره أن يكسب عشرة أمثال ما كسب لو أنّه كان أكثر جرأة، ولكنه لم يستطع التّفكير في أنّه قد سلك الطّريق الخطأ. وكانت حكمته ضماناً يقيه الخسارة. ومع ذلك فقد كانت هناك مشاعر محدودة بالندم وأحاسيس يخالطها عدم الرّضا، وإذا دُفعت هذه المشاعر والأحاسيس إلى منتهاها فإنّها ترقى إلى عدم الرّضا عن طبيعته المتأصّلة فيه، وكانت نزعة غنائيّة معيّنة هي النّتيجة الحتميّة.

كان هوندا قد حقّق الأمان من خلال التّشبّث بمبادئه العتيقة على الرّغم من أنّه كان يدرك تمام الإدراك التّضحيات الّتي تقتضيها هذه المبادئ. لقد عبد ثالوث الرأسماليّة التّقليديّة، فقد كان ثمّة ما هو مقدّس فيما يتعلّق به، ألا وهو تناسق الاقتصاد الحرّ. كان شيئاً رمزياً، يتضمن في جوهره الصّلف الذّهني، الوئيد، المدروس والشّعور بالتّوازن الّذي يحسّ به السّادة المهذّبون في الوطن الأمّ نحو المستعمرات الّتي ماتزال قابعة في الافتقار البدائي للأمن النّابع من الثّقافة الأُحادية.

لقد بقيت مثل هذه الأمور إذن على قيد الحياة في اليابان؟ إنّه مادامت قوانين الضّرائب على حالها، والمشروعات تعتمد على مصادر أخرى للمال غير رأسمالها، ومادامت المصارف مستمرّة في المطالبة بالأرض كضمان للقرون، فإنّ ذلك الموضوع العملاق، في عالم الرّهن، المعروف باسم أرض اليابان، لن يكون له نصيب في المبادئ الكلاسيكيّة، وستظلّ أسعار الأراضي تواصل الارتفاع. ولن يتوقّف التّضخّم إلاّ مع انتهاء النّمو الاقتصادي، أو مع قيام حكومة شيوعية.

وإذا كان هوندا يدرك تماماً هذه الحقائق فإنّه ظلّ مخلصاً للوهم القديم. قام بالتأمين على حياته، وأصبح مدافعاً أحمق، على وجه التّقريب، عن نظام للعملة يتداعى كلّ يوم، وربّما كان ذلك سراباً بعيداً لعهد القاعدة الذّهبية، حينما كان إيساو يحيا على نحو مغرق في عاطفيته، وبقي ذلك السّراب ملازماً لهوندا.

انقضى وقت طويل منذ انحسار ذلك الحلم الجميل الخاصّ بالتناسق، الأثير لدى القائلين بالاقتصاد الحرّ، وأصبحت الحتمية الجدلية الّتي يقول بها الماركسيون تبدو بدورها شاذّة للغاية. إنّ ما كان يفترض أن يموت قد تزايد وتكاثر، وما كان يفترض أن ينمو (وقد نما، بالطّبع) تغيّر إلى شيء مختلف تماماً. لم يعد ثمّة مجال باقٍ للمبدأ الخالص.

كان من قبيل السّذاجة الإيمانُ بعالم راح يغذّ الخطى نحو الدّمار، ولو أنّ هوندا كان مايزال في العشرين من عمره فربّما أعتقد بذلك، ورفضُ الانهيار ذاته أبقى الشّخص الّذي كان عليه أن ينزلق فوق الحياة شأن متزلّج ويموت في التوّ، في كامل أهبته ويقظته. منذا الّذي ستبلغ به الحماقة حدّ التّزلّج إذا كان يعلم أنّ الجليد يتصدّع؟ وإذا كان من المؤكّد تماماً أنّ الجليد لن يتصدّع فإنّ الشّخص يحال بينه وبين لذّة رؤية الآخرين وهم يتساقطون. كان السّؤال الوحيد المطروح هو ما إذا كان الجليد سيتصدّع أم لا بينما المرء يتزلّج، ولم يكن أمام هوندا طويل وقت ليمارس التّزلّج.

وبينما هو ماثل حيال هذا، زادت أمواله تدريجياً، من الفائدة وغيرها من أنواع الرّبح المتعدّدة.

اعتقد النّاس، على أيّة حال، أنّ أموالهم قد زادت، وهي قد

زادت بالفعل مادامت قد ظلّت متقدمة على التّضخّم. ولكن شيئاً زاد من خلال قوانين معارِضةٍ جذرياً لقوانين الحياة، ما كان يمكن أن يوجد إلاّ بالتهام ما يقف على جانب الحياة. كانت الأرباح المتزايدة هي توغّلات نمال الزّمن البيضاء. وقد جلبت الزّيادة الطّفيفة هنا وهناك، القضم المتواصل.

وعندئذٍ أدرك المرء الحقيقة القائلة بأنّ الزّمن الّذي يثمّر الأرباح والزّمن المكرّس من أجل الحياة هما من طبيعة مختلفة.

تلك كانت الأفكار الّتي من المحتمّ أنّها ساورت ذهن هوندا وهو راقد بانتظار مقدم ضياء النّهار، وقد استيقظ تماماً، وانغمس في رياضة مطاردة الأفكار.

تتراكم الفائدة كالأُشنة، فوق سهل زمن هائل. ولن يُقدَّر لنا أن نتابعها إلى الأبد؛ ذلك لأنّ زمننا الخاصّ يمضي بنا، بلا هوادة، هابطاً إلى صخرة.

كان هوندا مايزال شاباً في مقتبل العمر عندما حسب أنّ الوعي الذّاتي أمرٌ يتوقّف كلّية على الذّات. كان شاباً ذلك الّذي أطلق لقب «الوعي الذّاتيّ» على الوعي بواقع يشبه خيار بحر قاتم، شائك، يطفو في برميل الذّات الشّفّاف. «كأنّما في فيض يتدفّق أبداً، ويتغيّر دوماً». كان قد أدرك المبدأ ذهنياً عندما سافر إلى الهند، ولكنّ الأمر اقتضى منه ثلاثين عاماً ليجعله جزءاً من ذاته.

فيما راح يوغل في العمر غدا الوعي بالذّات وعياً بالزّمن، وتدريجياً وصل إلى تبيّن صوت النّمال البيضاء. لحظة فأخرى، وثانية فغيرها، يا له من وعي سطحي ذلك الّذي انزلق به البشر عبر

زمن لن يعود! مع العمر فحسب يعرف المرء أنّ هناك ثراء، بل فتنة، في كلّ قطرة. قطرات الزّمن الجميل، مثل قطرات من خمر معتّقة نادرة. وقد تقاطر الدّم منسالاً كالماء. جفّ الموغلون في العمر، وماتوا. جزاء وفاقاً لإهمالهم لوقف الزّمن في تلك اللّحظة المجيدة الّتي راح الدّم الفارّة فيها، دون أن يعرف صاحبه ذاته، يجلب نشوة السّكر.

نعم، عرف الموغلون في العمر أنّ الزّمن يمسك بناصية الفتنة. وعندما جاءت المعرفة لم يعد هناك ما يكفي من الخمر. لماذا لم يوقف الزّمن؟

على الرّغم من أنّ هوندا قد لام نفسه فإنّه لم يعتقد أنّ كسله أو جبنه كانا وراء عدم إيقافه للزمن، بينما كان ذلك باستطاعته.

وإذ شعر هوندا بمقدم ضياء النّهار عبر جفنيه فقد انغمس في مناجاة للنفس:

ـ لا، لم تكن هناك قطّ بالنّسبة إليّ لحظة تعيّن عليَّ فيها القيام بالأمر، بإيقاف الزّمن، ولو أنّني كان لي شيء يمكن أن يدعى بالقدر، فقد كمن إذن في عدم القدرة هذا على إيقاف الزّمن.

لم يكن ثمّة شيء بالنّسبة إليّ يمكن أن يوصف بذروة شبابي، وهكذا لم تكن هناك لحظة لإيقاف الزّمن. يتعيّن على المرء أن يتوقّف عند الذّروة. ولم يكن بمقدوري رصد أيّة ذروة. ومن الغريب أنّني لا أستشعر ندماً على ذلك.

لا، مايزال هناك وقت، بعد مضي الشّباب بقليل. تأتي الذّروة، ثمّ تحين اللّحظة. ولكن إذا كانت العين الّتي ترصد الذّروة يقال لها

عين الوعي، فإنّ عليَّ أن أطرح اعتراضاً صغيراً. إنّني أشكّ في أنّ أحداً كان أكثر يقظة مني في إعمال عين الوعي، وأكثر دأباً في جعلها يقظى. ليس ذلك كافياً لرصد الذّروة، فالحاجة ماسّة إلى مساعدة من القدر، وإنّي لمدرك تمام الإدراك أنّهم قلائل أولئك الّذين وُهِبوا تلك المساعدة على نحو يقلّ عمّا وُهِبتُ.

من اليسير القول بأنّ قوّة الإرادة هي الّتي كبحت جماحي. تُرى أكان الأمر كذلك؟ أليست الإرادة ممّا يتركه لنا القدر؟ وبين الإرادة والتّصميم أليست هناك فوارق كامنة مثلما بين الطّوائف في الهند؟ أوَليست الإرادة هي الأفقر والأقل شأناً؟

لم أكن أعتقد ذلك عندما كنت شاباً، بل اعتقدت أنّ الاختيار الإنساني قد سعى لصنع التّاريخ. وإلى أين مضى التّاريخ؟ تلك العجوز المتسوّلة.

البعض مُنحوا، رغم كلّ شيء، ميزة إيقاف الزّمن، عند الذّروة. أعلم أنّ ذلك صحيح، لأنّني رأيت بعيني أمثلة عليه.

أي قوّة، شعر، قداسة! أن يكون المرء قادراً على إيقاف الزّمن، ما إن يتراءى ألَق الذّروة للعِيان. يقبل هاجس في صورة الانفعال الرّقيق الّذي تثيره المنحدرات، في التّوزيع المتغاير للأزاهير الجبليّة، في مقدم نقطة تُغَيِّر الأحداث.

يأتي القليل فحسب، وعندئذٍ يصل الزّمن إلى قمّته، ودونما توقّف سيشرع في هبوطه. ومعظم النّاس يضلّلون المسار إلى الأسفل بجنى الحصاد. وما ذاك؟ الدّروب والغدران لا تتجه إلاّ إلى أسفل.

جمال عضوي لا نهاية له. ذلك هو الامتياز الخاصّ لأولئك الّذين

يوقفون الزّمن. قُبَيْل الذّروة مباشرة، عندما يتعيّن إيقاف الزّمن، تكمن ذروة الجمال العضوي.

جمال صافٍ، متألّق، في غمرة معرفة بأنّ ذروة بيضاء وهّاجة تقبع أمامك مباشرة. ونقاء تعس. في تلك اللّحظة يتطابق جمال الإنسان وجمال الغزال تطابقاً عجيباً. يرفع الغزال قرونه بكبرياء، ويرفع حافر القدم المرقطة بالبياض، على نحو متزايد الخفّة، في مواجهة الإنكار، مترعاً بكبرياء الوداع، ومتوَّجاً بثلوج الجبال البيضاء.

لن أكون ذاتي إذا رفعت يدي مودِّعاً أولئك القابعين في أسفل التلّ، حيث مازال الزّمن يواصل مسيرته. ولو أنّني رفعت يدي، في وداع مفاجئ، عند تقاطع طرق، لما أدّى ذلك إلاّ إلى إيقاف سيارة أجرة.

ربّما اضطررت، إذ عجزت عن إيقاف الزّمن، إلى الاكتفاء بإيقاف دفق من سيّارات الأجرة، وذلك لغرض واحد سعيت إليه بحزم، هو نقلي إلى مكان آخر، لا يقف فيه الزّمن، ولا موضع فيه للشعر، ولا للقداسة.

دونما شعر، وبغير قداسة! ذلك هو الأمر المهمّ. وإنّي لأعرف أنّه فيهما وحدهما يقبع سبب الحياة.

وحتّى إذا ما أوقف الزّمن، فهناك التّناسخ. وإنّي لأعرف ذلك أيضاً.

ويتعيّن عليَّ حرمان تورو من الشّعر والقداسة الرّهيبين. تلك ينبغي أن تكون سياستي.

استيقظ هوندا الآن تماماً، ومع آلام كثيبة هنا وهناك، ومخاط في زوره يقول له إنّ نهاراً جديداً قد بدأ، غدا أسيراً للحاجة إلى أن يجمع معاً من جديد أشياء تداعت خلال رقاده. وكأنّما هو يفتح مقعداً مطوياً، اجتذب نفسه إلى خارج الفراش. كان النّور ملء الغرفة. وقد درج على أن يخطر من بالدّار باستيقاظه من خلال هاتف داخلي، ولكنه آثر اليوم ألاّ يقوم بذلك. والتقط بالمقابل علبة مطلية باللك من الرّف، وأخرج منها تقريراً عن تورو كان قد تلقّاه من وكالة تحرّيات.

تقرير عن تبنٍّ مقترح

رقم م ـ ٢٥٨٢

العميل ١٤٩٣ : السّيّد شيجيكوني هوندا

٢٠ آب (أغسطس) ١٩٧٠

وكالة دينيتشي للتحرّيات

تورو ياسوناجا، مولود في ٢٠ آذار (مارس) ١٩٥٤، يبلغ حالياً السّادسة عشرة من عمره.

المقرّ الدّائم: ٦ ـ ١٥٢ يوي، إيهاراجن ـ مقاطعة شيزوكا.

المقرّ الحالي: ميواسو ٢ ـ ١٠ فونابارا ـ تشو، شيميزو، مقاطعة شيزوكا.

الشّخصية والطّابع:

الفتى موضوع التّحقيق على جانب كبير من الذّكاء، إذ يصل معدل ذكائه إلى ١٥٩. وبالمقارنة بحصول ٤٧٪ ممن جرى اختبارهم على معدّل ذكاء يصل إلى ١٠٠ فإنّ ٠,٦ فقط زاد معدل ذكائهم على ١٤٠، ويبدو أنّه ممّا يؤسف له أنّ مثل هذا الفتى الموهوب قد فقد

والديه في وقت مبكّر، وإذ كفله عمّه، في ظلّ ظروف عسيرة، فقد اضطرّ للتوقف عن تلقّي المزيد من التّعليم، لدى انتهاء الدراسة الإعداديّة. وفضلاً عن ذلك فإنّ المعرفة بقدراته لم يُسمح لها بأن تصيبه بالغرور، وقد اضطلع بواجباته البسيطة والرّوتينيّة بضمير يقظ ودأب بالغ، وأكسبه تواضعه وخلقه الحميد حبّ زملائه ورؤسائه.
ولمّا كان لم يتجاوز السّادسة عشرة من العمر فإنّ الوقت مازال مبكراً على إيراد الكثير عن سلوكه، ولكن يبدو أنّ مساعداته للفتاة المختلّة عقلياً المسمّاة كينوي الّتي يسخر الحيّ منها، لا علاقة لها بالجنس، وإنّما هي برهان على نزعة إنسانيّة خيّرة ورقيقة. وهي تنظر إلى فتى يصغرها في العمر بحسبانه يرقى إلى مصافّ الآلهة.

الاهتمامات والهوايات:

يبدو أنّه ليست لديه اهتمامات معلنة. وفي أيام العطلات يمضي إلى المكتبة أو لمشاهدة فيلم، أو للتفرّج على السّفن في الميناء. وإذ ينطلق وحده عادة في هذه الجولات فإنّه يبدو أنّ لديه ميولاً إلى العزلة. وربّما أمكن أن يفسّر المرء إدمانه للتدخين، على الرّغم من أنّه مايزال قاصراً، بأنّه نتيجة للطبيعة المنعزلة والرّوتينية لعمله. ويبدو أنّ التدخين لم يترك أثراً على صحته.

الحالة الاجتماعيّة:

إنّه، بالطّبع، عَزَب.

الميول والارتباطات الإيديولوجيّة:

ربّما بسبب كونه مايزال في مقتبل العمر فإنّه لم يُبْدِ اهتماماً بالحركات السّياسيّة المتطرّفة، بل الأمر على العكس من ذلك إذ يبدو أنّه لا تروق له السّياسة ولا الحركات السّياسيّة. والشّركة ليست لها

نقابة، وهو لم يشارك في أي حركة تستهدف إنشاء نقابة. وهو قارئ نهم، على الرّغم من حداثة عمره، ويبدو أنّ اهتماماته واسعة النّطاق. وهو لا يمتلك كتباً، على وجه التّقريب، ولكنه من المتمردّدين بدأب على المكتبات، ويعتمد على قوى متميّزة للذاكرة لتملّك ناصية ما يقرأه. وليس هناك دليل على أنّه مدمن على قراءة الكتابات المتطرّفة، سواء يساراً أو يميناً. والدّليل قائم بالأحرى على أنّه سعى إلى معرفة عامّة ومتنوعة، وهو يلتقي برفاق دراسته الإعداديّة، بين الفينة والأخرى، ولكن يبدو أنّه ليس له أصدقاء مقرّبون.

المعتقدات الدّينية وغيرها:

العائلة الّتي ينتمي إليها عائلة بوذية، ولكن فيما يتعلق بالفتى موضوع التّقرير نفسه يبدو أنّه ليس له إلا اهتمام محدود بالدّين، وهو لا ينتمي إلى أي من المذاهب الدّينيّة الأكثر حداثة، وقد قاوم ضغطاً قوياً من جانب معتنقيها.

العائلة:

لم تكشف التحرّيات الّتي أُجريت على فَرْعَيِ العائلة، حتّى الجيل الثّالث، عن دليل على مرض عقلي.

- ١٧ -

اختار هوندا يوماً في أواخر تشرين الأوّل (أكتوبر) لإلقاء أوّل درس على تورو في آداب المائدة الأجنبية. وقد أُعدّت القاعدة الصّغيرة لمأدبة على الطّراز الفرنسي، واكتمل كلّ شيء بوجود مقدّم للطعام وكبير للخدم، وارتدى تورو حلّة زرقاء قاتمة، جديدة. وقيل له إنّ عليه الجلوس على المقعد، قريباً من ظهره، على نحو جيد، وأن يقرّبه من المائدة، وأنّه لا ينبغي أن يستند بمرفقيه إليها، أو ينحني أكثر ممّا ينبغي فوق حسائه، وأنّ عليه أن يُبقي ذراعيه قريبتين من جنبيه، ثمّ أعقبت ذلك تعليمات عن وضع المنديل، وتناول الحساء مع إمالة المعلّقة قليلاً نحو الفمّ لتجنّب إصدار صوت عالٍ. واتّبع تورو هذه التّعليمات، بحرص، مكرِّراً مرّات عديدة السّياقات الّتي لم تواته في يسر.

قال هوندا:

ـ قد تبدو آداب المائدة الأجنبية سخيفة قليلاً، ولكنها عندما تُتَّبع بطريقة طبيعية سهلة فإنّها تمنح المرء شعوراً بالأمان، فالدّليل على النّشأة الطّيبة يمنح المرء مكانة رفيعة، ونحن نقصد بالنّشأة الطّيبة، في اليابان، الألفة مع الأسلوب الغربي في القيام بالأشياء. ونحن لا نجد ما هو ياباني خالص إلاّ في الأحياء الوضيعة، والعالم السّفلي، وقد نتوقّع أن يتقلّص نطاقها بمضيّ الوقت. والسمّ المعروف بما هو ياباني خالص يتقلّص، ويتغيّر إلى جرعة مقبولة من الجميع.

وليس ثمّة شكّ في أنّ هوندا كان يفكّر في إيساو، وهو يوغل في الحديث. فلم يكن إيساو على معرفة بشيء من آداب المائدة الغربيّة. ولم تكن مثل هذه المكمّلات المتأنّفة جزءاً من عظمة عالمه. وهكذا فإنّ تورو، الّذي مازال في السّادسة عشرة من عمره، ينبغي أن يلقن آداب المائدة الغربيّة

قُدِّم الطّعام من الجانب الأيمن، والشّراب من الأيسر، وأُخذت السّكاكين والشّوك بالترتيب من الخارج. وتطلّع تورو إلى يديه، شأن شخص جرفه السّيل.

استمرّت التّعليمات. ومضى هوندا الّذي كان يشير إلى نفسه بلقب الأب، قائلاً:

ـ وعليك إجراء حوار مهذّب، خلال تناول الطّعام، فذلك من شأنه أن يريح رفيقك في المائدة. وعليك التزام الحذر في توقيت ابتلاع قضماتك، لأنّ هناك خطراً، عندما تتحدّث والطّعام في فمك، يتمثّل في أن تدفع بعضاً منه إلى الخارج. الآن سيقول لك الأبّ شيئاً، وعليك أن تردّ. عليك النّظر إليّ لا باعتباري أباك، وإنّما بحسباني رجلاً على جانب كبير من الأهمية، قد يكون قادراً على القيام بالكثير من أجلك، إذا ما شعر بالودّ نحوك. إنّنا نمثّل مسرحية. هيّا، الآن! أرى أنّك تدرس بجدّ، وقد جعلت مدرّسيك الثّلاثة يذهلون من فرط الإعجاب بك، ولكن يبدو أنّ من الغريب بعض الشّيء أنّه ليس لك أصدقاء حقيقيون.

ـ لست أحسّ بأي احتياج كبير إليهم.
ـ ليس هذا بالردّ على الإطلاق. إذا أدليت بهذا النّوع من الرّدود

فإنّ النّاس سيعتقدون أنّك غريب الأطوار. الآن، هيا، أعطني ردّاً مناسباً!

لزم تورو الصّمت.

ـ لن يُجدي هذا نفعاً. والدّراسة لن تكون لها فائدة، ما لم تستخدم فِطرتك السّليمة. هذه هي نوعية الرّدّ الّذي يجب أن تطرحه، كأفضل ما بوسعك القيام به: إنّني أدرس باجتهاد بالغ بحيث لا يتاح لي حقّاً الوقت حالياً للأصدقاء، ولكني على يقين من أنّه سيكون لي بعض الأصدقاء بمجرّد بدء الدّراسة التّجهيزيّة.

ـ إنّني أدرس باجتهاد بالغ، بحيث لا يُتاح لي حقّاً الوقت حاليّاً للأصدقاء، ولكنني على يقين من أنّه سيكون لي بعض الأصدقاء بمجرّد بدء الدّراسة التّجهيزيّة.

ـ ذلك هو الرّدّ، ذلك هو الرّدّ. ذلك هو الأسلوب، وفجأة يتحوّل الحوار إلى الفن: من هو فنّانك الإيطالي المفضّل؟

لم تتردّد إجابة.

ـ من هو فنّانك الإيطالي المفضّل؟

ـ مانتجنا[1].

(١) مانتجنا: المقصود هو الفنّان الإيطالي أندريا مانتجنا Mantegna الّذي يرجّح المؤرّخون أنّه وُلد في عام ١٤٣١ ومات في ١٣ أيلول (سبمتبر) ١٥٠٦، وهو مبدع في فنّي التّصوير والحفر، وربّما كان مثّالاً كذلك. ويُجمع مؤرّخو الفنّ على أنّه كان أوّل فنّان في شمالي إيطاليا ينتمي إلى عصر النّهضة، بالمعنى الصّحيح. وقد اشتهر بإدخاله مبادئ النّزعة الإيهاميّة، في تصويره للعائلة المقدّسة والقدّيسين، بالإضافة إلى منجزاته الباهرة في الجداريات الّتي ظلّت مؤثّرة في اتجاهات الفنّانين، بعد رحيله بأكثر من ثلاثة قرون. ولعلّ أبرز أعماله تلك الّتي أبدعها لآل جونزاجا، في قصرهم بمانتوا عام ١٤٧٤ والّتي تمجّد المخلوقات الحيّة، وتخلع

ـ لا، لا. إنّك أصغر سناً بكثير من أن يكون مانتجنا هو فنّانك المفضّل. وربّما لم يقدّر لرفيقك على المائدة أن سمع به من قبل قطّ، ومن ثمّ ستجعله يحسّ بعدم الارتياح، وتعطيه الانطباع غير المريح بأنك ناضج قبل الأوان، هذا هو النّحو الّذي ينبغي أن تردّ به: أحسب أنّ فنّ عصر النّهضة فنّ رائع.

ـ أحسب أنّ فنّ عصر النّهضة فنّ رائع.

ـ ذلك هو الردّ، ذلك هو الردّ. إنّك تمنح رفيقك على المائدة شعوراً بالتفوّق، وتبدو ظريفاً وجذّاباً، ويتاح له مدخل لمحاضرة طويلة عن أمور لا يفهمها إلاّ بشكل سطحي. وعليك الإصغاء، متوهّجاً بالفضول والإعجاب، حتّى على الرّغم من أنّ معظم ما يقوله خطأ والباقي من سقط المتاع. إنّ ما تقتضيه الدّنيا من شاب في مقتبل العمر هو أن يكون مستمعاً جيداً، لا أكثر من ذلك. ولسوف ينعقد لك لواء الفوز إذا ما تركت مهمّة الحديث له. ينبغي ألاّ تنسى ذلك للحظة واحدة.

الدّنيا لا تطالب الشّاب بالألمعيّة. وفي الوقت نفسه فإنّ الدّأب الحازم أكثر من اللازم يثير الشّكوك. ينبغي أن يكون لك ميل غريب، صغير، لا ضير منه، أو اثنان، وينبغي أن يكون لك ما تدمن

عليها بهاء وحضوراً لم يعتد الفنّانون من قبل أن يخلعوهما إلاّ على القدّيسين وأبطال الأساطير. وإذا عدنا إلى المتن تصوّرنا إمكانية القول بأنّ تورو كان يفضّل مانتجنا لأنّ الأخير كان ابناً لحطّاب، وتبنّاه فرانشيسكو سكوارسيوني الّذي علّمه مبادئ الفنّ، فما لبث أن برع، ونبغ، واستقلّ عن معلمه، وبلغت براعته حدّاً أسند معه إليه تكليف بإعداد مذبح كنيسة القدّيسة صوفيا في عام ١٤٤٨ وهو مايزال في السّابعة عشرة من عمره. (هـ. م.)

عليه، شريطة ألاّ يكون باهظ الكلفة، ولا مرتبطاً بالسّياسة، شيء مجرّد تماماً، ومتوسّط للغاية، العبث بالماكينات، أو كرة البيسبول أو التّرومبيت. وما إن يعرف رفيقك على المائدة بهذه الأمور حتّى يحسّ بالأمان، ويعلم إلى أين يمكن أن تنصرف طاقاتك، بل يمكنك أن تبدو وقد أخذتك هواياتك إلى البعيد قليلاً، إذا أردت ذلك.

ينبغي أن تمارس ألوان الرّياضة، ولكن يتعيّن ألاّ تدعها تؤثّر على دراساتك. وينبغي أن تكون رياضات تبرز صحتك الجيدة، ولها ميزة جعلك تبدو غبيّاً بعض الشيء، فليست هناك فضائل أكثر تقديراً في اليابان من اللاّمبالاة بالسّياسة والإخلاص للفريق.

بمقدورك التخرّج بأعلى الدّرجات في صفك الدّراسي، ولكن يتعيّن عليك أن تحظى بذلك الغباء الغامض الّذي يجعل النّاس يشعرون بالارتياح، شأن حدأة أسلمت للريح جناحيها.

سأحدّثك بشأن المال عندما تلتحق بالمدرسة التجهيزيّة، وأنت حالياً في الوضعيّة السّعيدة الّتي تجعلك بعيداً عن القلق بشأنه.

ساور هوندا، وهو يلقي هذه المحاضرة على تورو المُصيخ السّمع، شعورٌ بأنّ تلك كانت حقاً تعليمات لكيواكي وإيساو وينج تشان.

نعم، كان يتعيّن عليه أن يحدّثهم. كان يجب أن يسلّحهم بالمعرفة المسبّقة الّتي ستحول بينهم وبين أن يلقوا بأنفسهم وراء أقدارهم، وأن ينتزع أجنحتهم، ويحول بينهم وبين التّحليق عالياً، وأن يجعلهم يسيرون جنباً إلى جنب مع الجموع. فالعالم لا يوافق على التّحليق عالياً. والأجنحة أسلحة خطرة، وهي تستدعي تدمير الذّات قبل أن

يكون بالوسع استخدامها. ولو أنّه جعل إيساو يتوافق مع الحمقى لكان بوسعه أن يتظاهر بأنّه لا يعرف شيئاً عن الأجنحة.

كان كلّ ما عليه أن يقول للناس: «إنّ جناحيه ليسا إلاّ عناصر تكميليّة، وما من حاجة تدعوكم إلى القلق بشأنهما، ابقوا معه قليلاً فحسب، وسترون أنّه فتى عادي يمكن الاعتماد عليه. مثل هذه الأنباء كان يمكن أن تكون مؤثّرة على نحو متميّز.

اضطرّ كيواكي وإيساو وينج تشان إلى الاستغناء عنها، وعوقبوا على ازدرائهم وصلفهم، وكانوا أكثر كبرياء، حتّى في غِمار معاناتهم.

- ١٨ -

كان المدرّسون الثّلاثة جميعاً من طلاّب جامعة طوكيو المتألّقي الموهبة. وقد درَّس أحدهم لتورو علم الاجتماع والأدب، والآخر الرّياضيات والعلوم، والثّالث اللّغة الإنجليزيّة. وكان من المعروف أنّه في امتحانات المدارس التجهيزيّة لعام ١٩٧١ ستكون هناك وفرة من الأسئلة الّتي تقتضي إجابات في صورة مقالات، وأسئلة أقلّ من النّوع الّذي يقتضي إجابات قصيرة، وأنّه سيكون هناك تركيز أكبر على الإملاء باللّغة الإنجليزيّة، والإنشاء باللّغة اليابانيّة. ووضع تورو، فجأة، أمام الصّيغ الإخباريّة الإنجليزيّة، فسجّلها على شريط وراح يكرّرها مراراً.

ها هنا سؤال في الجغرافيا وحركة الأجرام السّماويّة:

في أي وضع يبقى كوكب الزُّهَرَة لأطول وقت يمكن فيه رصده صباحاً؟ أوضح إجابتك على الخريطة! ما هو شكل كوكب الزُّهَرَة الّذي يمكن النّظر إليه في هذا الوضع؟ أَشِرْ إلى الإجابة الّتي تعتقد أنّها صحيحة فيما يلي:

١ ـ النّصف الشّرقي مضيء.

٢ ـ النّصف الغربي مضيء.

٣ ـ متألّق في صورة هلال صغير كما يحدث للقمر.

٤ ـ مستدير.

ما هو وضع المرّيخ عندما يكون مرئياً في السّماء باتّجاه الجنوب مساء؟ أوضح إجابتك على الخريطة!

ما هو وضع المرّيخ عندما يكون مرئياً في السّماء باتّجاه الجنوب في منتصف اللّيل؟ أوضح إجابتك على الخريطة!

قام تورو بإحاطة حرف «بي» بدائرة على الخريطة. وهكذا، أجاب على السّؤال الأوّل بنجاح. واختار الاحتمال الثّالث بالنّسبة إلى السّؤال الثّاني، ووضع دائرة حول حرف «إل» بالنّسبة إلى السّؤال الثّالث. وعثر على النّقطة «جي» الّتي تمتدّ الشّمس والأرض والمرّيخ عندها في خطّ طولي، وأحاطها بدائرة.

ـ هل طُرح عليك هذا السّؤال من قبل؟

ـ لا.

ـ إذن لماذا أجبت بمثل هذه السّرعة؟

ـ إنّني أرى الزُّهَرَة والمرّيخ كلّ يوم.

ردّ تورو، تماماً كما لو كان طفلاً يصف عادات حيواناته المدلّلة. وفي حقيقة الأمر فإنّ الزُّهَرَة والمرّيخ كانا كالفئران الّتي احتلّت محطّة الإشارة. وقد عرف كلّ أسرار عاداتها الغذائيّة.

غير أنّ الأمر لم يكن كما لو كان قد ساوره الحنين إلى الطّبيعة، أو خالجه الأسف لفقدانه تلسكوبه. لقد كان يحسّ بأنّ ذلك العمل البسيط على نحو غير مألوف هو عمله، وكان العالم فيما وراء الأفق مصدر سعادة بالنّسبة إليه، ولكنه لم يشعر أدنى شعور بأنّه قد حرم من شيء من جرّاء فقده لهما. وكانت مهمّته، من الآن وحتّى يبلغ العشرين أو نحوها، أن يستكشف كهفاً، مع رجل عجوز.

كان هوندا قد بذل جهداً كبيراً في اختيار مدرّسين أذكياء يميل المرء إلى صحبتهم، يتمتّعون بالموهبة، وينتمون إلى نوعية يمكن لتورو أن يتطلّع إليها باعتبارها قدورة تُحتذى. غير أنّه ارتكب خطأ صغيراً في حالة فوروساوا الّذي كان يدرِّس الأدب لتورو. فإذ كان فوروساوا يشعر بالسّرور البالغ حيال ذكاء تورو ولمّاحيته، فقد اعتاد أن يصحبه إلى مقاهٍ قريبة، عندما يملآن عكوفهما على الدّرس، وفي بعض الأحيان يمضيان معاً في نزهات طويلة.

لم يكن فوروساوا يكترث، على الإطلاق، بقول أشياء لا تبعث على السّرور، عن هوندا، وقد استمتع بها تورو، على الرّغم من أنّه حرص على ألاَّ يومئ بموافقة أسرع ممّا ينبغي عليها.

وذات يوم سارا منحدرين عبر مرتفع ماساجو، متجاوزين مكتب الحي، وانعطفا يساراً نحو سويدو باشي. وكان الشّارع قد حُفرت تربته لمدّ خطّ جديد لمترو الأنفاق، واختفت حديقة كوراكوين وراء أبراج البناء. وانهلّ غسق أواخر تشرين الثاني (نوفمبر)، من خلال إطار الأفعوانية، كما ينهلّ من خلال سلّة فارغة.

وفي غمرة اجتيازهما لمحال الهدايا والأدوات الرّياضيّة ومطاعم الوجبات الخفيفة، وصلا إلى بوابة كوراكوين. تألّق صفّان من الأنوار فوق البوابة الحمراء من اليسار إلى اليمين: «لن نفتح أبوابنا مساء بعد ٢٣ تشرين الثاني (نوفمبر)». هكذا، فإنّ اللّيالي المتألّقة بالنّور سرعان ما ستنتهي.

سأل فوروساوا تورو:

ـ ما رأيك بهذا؟ ما رأيك بتأرجح رائع في أرجوحة تشبه قدح شاي؟

ـ طيب.

قالها تورو وهو يتصوّر نفسه في أرجوحة قدح شاي حمراء وردية، متّسخة، وقد بدت متوحّدة، ومفتقرة إلى العملاء، وسط أنوارها الصّغيرة، الخافتة. راح يتخيّل نفسه وهي تهزّه وتلويه بشدّة، إلى حدّ أن تغدو الأشياء خطوطاً من نور.

ـ طيّب. أترغب في ذلك أم لا؟ ليس أمامك إلاّ اثنان وتسعون يوماً على الامتحانات، ولكني على يقين من أنّه ليس لديك ما تقلق عليه.

ـ أوثر تناول قدح من القهوة.

ـ يا لهذا التّبديد للفرص!

سبقه فوروساوا في هبوط الدّرج المفضي إلى مقهى يُعرف باسم رينوار. وكان على الجانب الآخر من القاعدة الثّالثة في ستاد للبيسبول، يشبه كأساً هائلة تصبّ الظّلام.

كان مقهى رينوار أكبر ممّا توقّع تورو، من النّظر إليه من خارجه، وقد وُزّعت الموائد على مسافات واسعة، حول نافورة، وبدت الأضواء ناعمة، وكانت السجّادة في لون الصّوف الطّبيعي. ولم يكن هناك إلاّ القليل من الروّاد.

ـ لم يخطر ببالي وجود مثل هذا المكان قرب الدّار، على هذا النّحو.

ـ من شأن فتى منعزل عن العالم مثلك ألا يعرف بوجوده.

طلب فوروساوا فنجاني قهوة، وقدّم لتورو سيجارة وثب عليها الأخير وثباً.

ـ ليس من اليسير حجبها عن العِيان.

ـ السّيّد هوندا متشدّد أكثر من اللازم. ليس الأمر كما لو كنت فتى عادياً، في المدرسة الإعداديّة، فقد عشت في رحاب العالم، وهو يريد أن يجعلك طفلاً من جديد. ولكن كلّ ما عليك هو أن تنتظر إلى أن تبلغ العشرين، وبمقدروك أن تمدّ جناحيك لدى دخولك الجامعة.

ـ تلك فكرتي على وجه الدّقّة، ولكن يتعيّن عليَّ الاحتفاظ بها لنفسي.

قطَّب فوروساوا جبينه، وضحك ضحكة مترعة بالإشفاق. ولاح لتورو أنّه يحاول أن يكون أكبر سنّاً من عمره، المقدّر بواحد وعشرين عاماً.

كان فوروساوا يضع عوينات، لكن محيّاه الموحي بالطّيبة كان يبدو جذّاباً للغاية حين يبتسم وتتشكّل التّجاعيد حول أنفه. كان الإطار منثنياً، وعلى الدّوام راح يدفع بالعوينات عالياً على أنفه، وقد أوحت إشارة أصبعه السّبابة بأنّه يلوم نفسه. كانت له يدان وقدمان تميل إلى الضّخامة، وكان أطول من تورو على نحو يعتدّ به. وكان ابناً موهوباً لأحد العاملين بالسّكك الحديديّة، وقد كمنت فيه روح تشبه سرطاناً بحرياً أحمر بندفع مسرعاً.

لم تساور تورو رغبة ملحّة في أن يقضي على الصّورة الّتي رسمها فوروساوا عنه، باعتباره ابناً آخر من أبناء الفقراء يتشبّث بالعطيّة الّتي جاءته من السّماء. لقد درج الآخرون، جميعاً، على أن يرسموا له

صوراً، على نحو ما طاب لهم، لكنهم كانوا أحراراً فيما يفعلون. ولكنّ ما كان حرّاً فيه على وجه اليقين هو الازدراء.

ـ لست أدري حقّاً ما الّذي يعتزمه السّيّد هوندا، ولكني أتصوّر أنّه يتخّذ منك فأراً للاختبار. ولكن لابأس بذلك، فلديه ممتلكات هائلة، ولست بحاجة إلى تلطيخ يدك، على نحو ما يفعل الآخرون، وهم يشقّون طريقهم نحو قمّة كوم القمامة. ولكن عليك بالتمسّك باحترامك لنفسك، حتّى ولو أودى بك!

ـ نعم.

قالها تورو موجزاً. وامتنع عن القول إنّ لديه الكثير من احترام النّفس.

درج على عادة عجم عود ردوده، فإن بدت له عاطفية امتنع عن التفوّه بها.

كان هوندا خارج الدّار، يتناول طعام العشاء مع بعض الزّملاء في عالم القانون، وسيُتاح لتورو تناول بعض الطّعام مع فوروساوا قبل عودتهما إلى الدّار. وقد كان مطلوباً منه، مهما حدث، أن يتناول طعام العشاء مع هوندا، بالدّار، وفي بعض الأحيان يكون هناك ضيوف آخرون، وكانت الأمسيات الّتي تُقضى مع كيكو هي الابتلاء الأكبر.

لاحت عيناه باردتين وصافيتين عندما انتهى من شرب القهوة. ولكن لم يكن هناك ما يُرى. نظر إلى نصف الدّائرة المؤلّف من ثفل القهوة. وقف قاع الفنجان المستدير كعدسات التّلسكوب في مواجهة نظرته. أفصح قرار هذا العالم عن وجه أبيض، نظيف، من الخزف.

التفت فوروساوا بعيداً قليلاً، وتحدّث فجأة وكأنّه يلقي بعقب كلماته في المنفضة:

ـ هل فكّرت أبداً في الانتحار؟

انتفض تورو:

ـ لا.

ـ لا تنظر إليَّ هكذا! فأنا لم أفكّر فيه بكلّ تلك الجدّية. ولست أحبّ تلك النوعية الضّعيفة والمريضة من النّاس الّتي تُقدِم على الانتحار. ولكن هناك نوعية منهم أقبلها، النّاس الّذين ينتحرون ليؤكّدوا ذواتهم.

ـ هل أنت مهتّم؟

ـ ربّما قليلاً.

ـ إذن، سأحدّثك بالأمر. خذ حال فأر يُحسّ أنّه قطّ. لست أدري ما السّبب في ذلك، ولكنّه يحسب أنّه قطّ، وقد اجتاز كلّ الاختبارات، وخلص إلى أنّه قطّ وتتغيّر نظرته للفئران الأخرى، فهي ليست إلاّ اللّحم الّذي يُؤْثِره، ذلك كلّ ما في الأمر، ولكنّه يقول لنفسه إنّه يحجم عن التهامها لا لشيء إلاّ ليُخفي حقيقة كونه قطّاً.

ـ أحسب أنّه فأر كبير إلى حدّ بالغ.

ـ ليست لذلك أهمية. فالأمر ليس متعلّقاً بالحجم، وإنّما بالثقة. من المؤكّد أنّه يكمن في أنّ مفهوم «القطّ» قد اتّخذ إهاب «الفأر» ولا شيء أكثر من ذلك. إنّني أؤمن بالمفهوم، وليس باللّحم، فالفكرة تكفي، والجسم لا يهمّ، وتزداد السّعادة من جرّاء الازدراء.

دفع فوروساوا عويناته إلى أعلى، ورسم خطّاً يستهدف الإقناع، إلى جوار أنفه:

ـ ولكن ذات يوم، ولكن ذات يوم، يلتقي الفأر بقطّ حقيقي.
يقول القطّ: سآكلك.
يردّ الفأر: ليس ذلك بمقدورك.
ـ ولِمَ لا؟
ـ القطط لا تأكل بعضها. إنّه أمر مستحيل، من حيث الغريزة والمبدأ، إنّني قطّ، أياً كان مظهري.

يتلوّى القطّ من الضّحك، ويُغرب فيه، حتّى ليلطم الهواء بمخالبه، ويعلو بطنه ذو الفرو الأبيض، ويهبط، ثمّ ينهض، ويشرع في أكل الفأر. ويحتجّ هذا الأخير:
ـ لماذا تأكلني؟
ـ لأنّك فأر.
ـ إنّني قطّ. والقطط لا تأكل بعضها.
ـ أنت فأر.
ـ إنّني قطّ.
ـ برهن على ذلك!

وهكذا فإنّ الفأر يقفز إلى حوض الغسيل المليء بفقاعات الصّابون البيضاء، ويُغرق نفسه. يبلّل القطّ أحد مخالبه الأمامية، ويلعقه، فيبدو له طعم الفقاعات فظيعاً، وهكذا يدع جثّة الفأر طافية هناك. ونعلم جميعاً أنّ القطّ ينطلق مبتعداً، دون أن يأكل الفأر، لأنّه ليس ممّا يأكله القطّ.

ذلك هو ما أتحدّث عنه. إنّ الفأر يقدم على الانتحار تأكيداً لذاته، وذلك بالطّبع، لا يجعل القطّ يعترف به، باعتباره قطّاً، وهو لم يعتقد

حين انتحر أنّ انتحاره سيجعل القطّ يعترف به. ولكنه كان شجاعاً، ولمّاحاً، ومتشبّعاً باحترامه لنفسه. وقد أدرك أنّ لكونه فأراً وجهين. الوجه الأوّل قوامه أنّه فأر حتّى أدقّ التّفاصيل، والوجه الثّاني أنّه جدير بالالتهام بالنّسبة إلى القطّ. هذان هما الوجهان. وقد استسلم منذ وقت طويل فيما يتعلّق بالموضوع الأوّل، وأمّا فيما يتعلّق بالثاني فمازال هناك أمل، وهو يموت في مواجهة القطّ، دون أن يتمّ التهامه، ويؤكّد ذاته باعتباره شيئاً لا يمكن للقطط أن تأكله. وقد برهن، من هذين الوجهين، على أنّه ليس بفأر. هذا هو الشّوط الّذي قطعه. وإلى جوار ذلك فإنّ إثبات كونه قطّاً أمر بسيط، فإذا كان شيء له شكل الفأر ليس فأراً، فإنّه يمكن أن يكون أي شيء آخر. وهكذا فإنّ الانتحار نجاح؛ فقد أكّد القطّ ذاته. ما رأيك؟

راح تورو يزن هذه القصّة الرّمزيّة. لم يكن لديه شكّ في أنّ فوروساوا قد صقلها، من خلال سردها لنفسه مراراً وتكراراً. وكان قد أدرك، منذ وقت طويل، عدم الاتّساق بين اعتدال فوروساوا الظّاهري وفعالياته الدّاخليّة.

ولو أنّ الأمر كان متعلّقاً بفوروساوا وحده لمّا كان ثمّة ما يدعو إلى القلق، ولكن لو أنّه كان قد رصد شيئاً في تورو وسعى للسخرية منه، لوجب على تورو أن يلزم الحذر. وقد دفع الأخير بيد ذهنيّة تتحسّس الأمر، فاتّضح أنّه ليس هناك شيء خطر. وكان فوروساوا قد غاص أعمق فأعمق في قرارة نفسه وهو يتحدّث، ولم يكن بمقدوره من مثل هذا العمق أن يرى ما يجري على السّطح.

ـ وهل أصاب موت الفأر العالم بالصّدمة؟

لم يعد فوروساوا يُبدي اهتماماً بمن يصغي إليه. وأدرك تورو أنّ

كلّ ما عليه هو أن يستمع فقط، كأنّما يستمع إلى مناجاة للنفس. كان الصّوت صوت ألم وئيد تكسوه الأُشنة، ولم يسمعه قَطُّ قبلاً من فوروساوا.

ـ هل تغيّرت نظرة العالم إلى الفأر على أي نحو؟ هل انتشرت كلمة حقّ مُفادها أنّه قد وُجد شيء له شكل الفأر لكنه لم يكن كذلك؟ هل حدث تصدّع في الثّقة بالقطط؟ هل اكترثت القطط على نحو كافٍ لمنع انتشار الأمر؟

لا تدهش! فالقطّ لم يفعل شيئاً على الإطلاق؛ إذ كان قد نسي الأمر. راح يمسح وجهه، وتراخى لينال إغفاءة قصيرة. كان مترعاً بحيوية القطط، دون أن يدرك حتّى هذه الحقيقة. وفي تراخي الإغفاءة الّتي نالها، غدا، دون أن يبذل جهداً على الإطلاق، ما أراد أن يصبحه الفأر بكلّ هذا اليأس البالغ، شيئاً مفارقاً لذاته. كان بمقدور القطّ أن يغدو أي شيء، من خلال الجمود، وعبر الرّضا عن الذّات، ومن خلال اللاّوعي. امتدّت السّماء الزّرقاء فوق القطّ الغافي، وانداحت السحب الجميلة إلى البعيد. وحملت الرّيح إلى الدّنيا عَزْف القطّ، كانت تردّدات الشّخير الثّقيلة بمثابة موسيقى.

أحسّ هوندا بأنّه مرغم على أن يقول شيئاً يوحي بإدراكه لجوهر ما يقال:

ـ إنّك تتحدّث الآن عن السّلطة.

ارتسمت ابتسامة ودودة على محيّا فوروساوا:

ـ نعم. إنّك شديد اللّماحيّة.

ساور تورو شعور بخيبة الأمل؛ فقد انتهى الأمر إلى كونه النّوعية المحزنة من القصص السّياسيّة الرّمزية الّتي يُولع بها الشّباب.

ـ لسوف تفهم بذاتك الأمر يوماً.

وعلى الرّغم من أنّه لم يكن هناك خطر استراق أحدٍ السَّمْعَ لما يقوله، فقد خفض فوروساوا صوته، وقرَّب وجهه من وجه تورو، فتذكّر الأخير رائحة أنفاس فوروساوا الّتي كان قد نسيها لبعض الوقت.

لماذا نسي؟ كان قد شمّ هذه الرّائحة بما فيه الكفاية خلال دروسهما، ولم تثر تقزّزه بشكل خاصّ، ولكنه يحسّ بالتقزّز منها الآن.

لم تكن هناك لمسة خبث في القصّة، ومع ذلك فقد كان فيها شيء أثار حنق تورو، ولم يختر توجيه اللّوم لفوروساوا عليها رغم ذلك، وخشي أن ألاّ يُسفر القيام بذلك إلاَّ عن التدني بقدْره. كان بحاجة إلى سبب آخر، ملائم تماماً، لكراهية فوروساوا، والحنق عليه؛ وهكذا غدت رائحته لا تطاق.

واصل فوروساوا الّذي غاب عنه ما يجري، حديثه:

ـ لسوف تفهم جليّة الأمر، يوماً ما. إنّ السّلطة إذ تتخذ من الخديعة منطلقاً لها، لا تستطيع مواصلة التّماسك إلاَّ بنشر الخديعة. الأمر يشبه مزرعة الجراثيم، فكلّما قاومنا عَظُمت قوّتها على الاحتمال والانتشار، وقبل أن ندري تكون الجراثيم قد تخلّلت ذواتنا.

غادرا مقهى رينوار، وتناولا طبقاً من المعكرونة غير بعيد، وجده تورو أشهى من العشاء مع أبيه وكلّ تلك الأطباق.

وفيما هو يتناول الطّعام، وقد ضاقت عيناه في مواجهة البخار،

راحٍ يقيس درجة الخطر في علاقاته بهذا الطّالب. لم يكن بوسعه الشّك في أنّ هناك تعاطفاً بينهما، ولكن على نحوٍ ما غاب التّناسق بينهما. وقد كان ممكناً أن يكون هوندا قد كلّف فوروساوا باختبار تورو. وعلم أنّه بعد إحدى هذه الجولات قدّم فوروساوا تقريراً عن المكان الّذي ذهبا إليه، وفاتورة بالنفقات. وقد طلب هوندا منه، بالطّبع، القيام بذلك.

تجاوزا الكوراكوين مرّة أخرى، في طريق عودتهما، ومن جديد اقترح فوروساوا أن يقوما بجولة في أراجيح أقداح الشّاي. فوافق تورو إذ كان يعلم أنّ فوروساوا يرغب في القيام بها. وكانت أقداح الشّاي بعد البوابة مباشرة. ولم يظهر أثر لروّاد آخرين، وفي التوّ، وببعض التردّد، قام المشرف بإدارة مفتاح التّشغيل من أجلهما وحدهما.

صعد تورو إلى قدح أخضر، واختار فوروساوا قدحاً أحمر، وردياً، على مسافة يُعتدّ بها. كان القدحان مزخرفين بتصميم زهري رخيص، مشابه لما زُيّنت به أقداح الشّاي المعروضة للبيع في إطار عرض خاص منخفض الأسعار في إحدى الضّواحي، في الواجهة المضاءة بأكثر ممّا ينبغي في أحد حوانيت بيع الأدوات الخاصّة بالمائدة.

شرع القدح في التحرّك. بدا فوروساوا قريباً، فجأة، ثمّ دافعاً عويناته إلى أعلى على وجه مبتسم انطلق مبتعداً من جديد. غدا البرد الّذي أحسّ به تورو في مقعدة سرواله، انفجاراً بارداً زاد من معدّل السّرعة، فقد أحبّ جعلها كبيرة إلى حدّ لا يستطيع معه الشّعور بشيء، أو رؤية شيء. أصبح العالم مثل كوكب زُحَل تلفّه الغيوم.

عندما وصل القدح إلى مرحلة التوقّف، وراح يهتزّ برفق، من جرّاء القصور الذّاتي، كعلامة إرشاد ملاحي طافية، انبعث تورو واقفاً، ولدى شعوره بالدّوار عاد إلى الجلوس مجدّداً.

ـ ما المشكلة؟

قالها فوروساوا، وقد أقبل نحوه مبتسماً، على رصيف بدا أنّه مازال يتحرّك.

ردّ تورو الابتسامة بمثلها، وظلّ في مقعده. فقد أثار استياءه أنّ العالم الّذي بدا غير واضح حتماً الآن، قد حدّد على نحو ملحّ تفاصيله الجهمة، الملصقاتُ المتهالكة وظهور لافتات الدّعاية لكوكاكولا، مثل سخانات كهربائيّة حمراء هائلة.

- ١٩ -

قال تورو خلال تناول الإفطار، في اليوم التّالي:

- صحبني فوروساوا إلى الكوراكوين، وقمنا بجولة في أراجيح أقداح الشّاي، ثمّ تناولنا عشاء مؤلّفاً من المعكرونة الصّينيّة.

- ذلك أمر جميل.

قالها هوندا مفتراً عن أسنانه الاصطناعيّة. وكان يتعيّن أن تكون الابتسامة اللّطيفة، العابرة، العتيقة هي الّتي تصاحب الأسنان الاصطناعيّة، غير أنّ هوندا بدا مسروراً، على نحو حقيقي، فأحسّ تورو وكأنّ جرحاً أصابه.

كان تورو قد عرف كلّ صباح، منذ قدومه إلى دار هوندا، السّرور المترف المتمثّل في التّناول من لبّ ثمار ليمون الجنّة المستورد، المقطّع بسكّين مقوسة رفيعة إلى شرائح. غاصت الوفرة الفجّة للعصير في لبّ الثّمرة النّاضجة، إلى حدّ توشك معه على الانفجار، ذلك اللبّ الّذي يبدو مُرّاً قليلاً، ومتألّق البياض، في لثّته المتراخية صباحاً، حاملة معها الدّفْ.

ابتسم تورو ابتسامة ملتبسة، وقال:

- لفمّ فوروساوا رائحة كريهة أكاد أحتملها، عندما ندرس معاً.

- ترى ما السّبب في ذلك. هل تعتقد أنّه يعاني من متاعب في

المعدة. لكنك تثير ضجّة أكبر ممّا ينبغي. بمقدورك احتمال ذلك؛ فليس من المحتمل أن تجد معلماً أكثر اقتداراً منه.

ـ أحسب أنّ ذلك ليس محتملاً.

تراجع تورو خطوة، وفرغ من ثمرته. انعكس عن قطعة مُعتنىً بها من الخبز المحمّص وهج صباحي تشريني (نوفمبري)، وكأنّه يرتدّ عن جلد أجيدت دباغته، وراح تورو يرقب الزّبد وهو يذوب فيها، ثمّ قضم قضمة منها، حريصاً على اتباع التّعليمات، الّتي تلقّاها من هوندا.

قال، بعد القضمة الأولى:

ـ نعم، فوروساوا رجل طيّب، ولكن هل تمعّنت في أفكاره؟

سرَّه أن يرى حيرة، من أكثر الأنواع ابتذالاً، ترتسم على محيّا هوندا.

ـ هل قال لك شيئاً؟

ـ ما من شيء محدّد، ولكني لا أستطيع التغلّب على الشّعور بأنّه إمّا كان أو لايزال ضالعاً في إحدى الحركات السّياسيّة.

انتفض هوندا؛ فقد وثق بفورساوا، وكان على يقين من أنّ تورو يكنّ الودّ له. ومن منظور هوندا، كان تحذير تورو يقوم على أساس من الثّقة والتّفاهم. ولكن من منظور فوروساوا كان من الواضح أنّ هذا التّحذير هو تقرير مخبر سرّي. وبدا أمراً طريفاً لتورو أنّ يلاحظ الكيفيّة الّتي سيتخلّص بها هوندا من هذه المشكلة الأخلاقية، الدّقيقة.

أدرك هوندا أنّ عليه ألاّ يصدر الحكم العاجل الّذي يصدره عادة

على الخير والشّرّ. وبالحكم على سلوك تورو في مواجهة النّزعة الإنسانيّة الأوسع نطاقاً، الّتي كان هوندا مولعاً بالتفكير فيها، فإنّ هذا السّلوك يبدو قبيحاً، ولكن بالحكم عليه، في ضوء الصّورة الّتي كوّنها هوندا عن تورو، فإنّه يبدو مُرْضياً ووافياً بالمطلوب. وكان هوندا على وشك الاعتراف بأنّ ما تطلع إليه في تورو هو القبح.

لكي يسهّل تورو الأمر على هوندا، وليتيح مناسبة تكفل توجيه اللّوم إليه، انتزع ملء شدقه من الخبز المحمّص، على نحو طفولي، ناثراً الفتات كيفما حلا له على ركبته، فلم يلحظ هوندا ذلك.

سيكون أمراً لا طائل وراءه أن يوجّه اللّوم إلى تورو على عنصر الوضاعة الكامل في هذه الدّرجة الأولى من الثّقة الّتي أحرزها. ومن ناحية أخرى، فإنّ إحساس هوندا الأخلاقي العتيد يقتضي منه أن يبلّغ تورو بأنّه من غير المناسب أن يتحوّل إلى مخبر، أيّاً كان السّبب، وهكذا فإنّ شيئاً حقيراً للغاية أطبق على مشهد الإفطار السّعيد هذا.

اصطدمت يداهما بارتباك، فيما هما يسعيان لالتقاط وعاء السّكر.

وعاء للسّكر يتألّق بالخيانة، في سنى شمس الصّباح. مشاعر بالذّنب لمدّ اليدين في وقت واحد. جرح هوندا أن يفكّر في أنّ هذه هي الإشارة الأولى إلى الرّابطة الأبويّة.

شعر تورو بالسّرور حيال ما يتجاوز هذه الحيرة الصّريحة. فقد كان بمقدوره أن يرى التردّد، فيما هوندا يجد نفسه عاجزاً عن تلقينه الدّرس الواضح في صورة عظة بليغة: إنّ على المرء أن يمحض المزيد من الثّقة والاحترام للشخص الّذي دعاه ولو مؤقتاً بمدرّسه.

وللمرّة الأولى، غدا جلياً التّضارب في أعماق هوندا والشّرّ الكامن في سياساته التّربويّة. فساور تورو شعور طفل نال الحريّة، ومضى يبصق بذور البطيخ من فمه.

ـ طيّب، دع الأمر لي، بمقدورك المضيّ فيما درجت عليه دائماً. لا تقلق نفسك بأي شيء، إلاّ بدراساتك، ودع كلّ ما عدا ذلك لي. فأوّل شيء ينبغي عمله هو اجتيازك امتحاناتك.

ابتسم تورو ابتسامة جميلة، وقال:

ـ كم أنت محقّ!

قلّب هوندا الأمر على وجوهه، لمدّة يوم كامل، وفي اليوم التّالي طلب من أحد معارفه في قسم الأمن العام بشرطة العاصمة أن يُجري تحرّيات في هذا الشّأن وجاء تقرير بعد عدّة أيّام. كان فوروساوا عضواً في جماعة طلاّبيّة متطرّفة، فاصطنع هوندا عذراً تافهاً لصرفه من العمل.

- ٢٠ -

كتب تورو من حين لآخر رسائل إلى كينوي، وتلقّى ردوداً طويلة. وكان عليه أن يلزم الحذر، عندما يفتح هذه الرّدود؛ لأنّ كلاًّ منها كان يحتوي زهرة مجفّفة من زهور الموسم. وفي بعض الأحيان كانت تعتذر عن إرسال زهور ممّا يزرع في الصّوبات، لعدم وجود زهور بريّة متفتّحة.

وإذ كانت تلفّ الزّهرة في الورق، فإنّها تبدو كما لو كانت فراشة ميتة. كان هناك لقاح يحلّ محلّ الجناح الذّروري، يدع المرء يتخيّل أنّه كان يطير، عندما كانت الحياة تسري فيه، والبَتَلات الميتة تبدو سواء بسواء كالأجنحة الميتة. وتبدو في مفارقة ذكرى اللّون الّذي حلّق عبر السّماء، وذكرى اللّون القابع في سكون واستسلام.

وبعد قراءة الرّسالة فحسب تعرف إحدى الشّذرات الجافّة والبنية كبشرة هندي وقد تمزّقت الخيوط القويّة الحمراء، واهترأت، من ضغطها بشدّة، باعتبارها بَتَلَة خزامى حمراء تفتّحت في صوبة للنباتات الّتي تحتاج إلى الدّفء.

كانت الرّسائل هي الاعتراف اللاّنهائي الّذي كانت تحضر به إلى محطّة الإشارة. وقدّمت على الدّوام وبتفصيل كبير لتورو وضعاً لوحدتها، ورغبتها في القدوم إلى طوكيو. وقد ردّ دائماً بأنّه سيجد المناسبة لاستدعائها.

في بعض الأحيان كان يوشك أن يحدّث نفسه، بعد أن غاب عنها طويلاً، بأنّها جميلة، وفي التوّ يستغرق في الضّحك. غير أنّه كان بسبيله إلى فهم ما عنته الفتاة المجنونة بالنّسبة إليه.

كان بحاجة إلى الجنون، لإعتام وضوحه، وتعيّن أن يوجد إلى جواره من يرى الأشياء الّتي يراها هو بمثل هذا الوضوح، باعتبارها أشياء مختلفة تمام الاختلاف، السّحب، أو السّفن، أو الدّهليز العتيق، الكئيب، في دار هوندا، أو الجدول الزّمني لكلّ دروسه، حتّى موعدُ امتحانه المُلْصَقُ على جدار حجرته.

تاق تورو، في بعض الأحيان، إلى التحرّر. كان الاتّجاه واضحاً، لابدّ أنّه اتّجاه الافتقار إلى اليقين، الأقنوم القابع وراء هذا العالم المحدّد بجلاء، الأقنوم الّذي تدفّقت ظواهره فوق شلاّل.

لعبت كينوي، دونما وعي منها، دور الضّيف المهذّب الّذي جلب الحرية إلى القفص.

ولم يكن ذلك هو كلّ ما هنالك.

جلبت البلسم لأوجاع بعينها في أعماقه، إذ كان بحاجة موجعة لجرح الآخرين. كان فؤاده جهاز حفر حادّاً، بارزاً من غرارة، يتوق إلى تمزيق أحدهم. وبعد أن مزّق فوروساوا، راح يتطلّع إلى شخص آخر. وإذ بدت نظافته خالية من أدنى بقعة من الصّدأ فإنّها لابدّ أن تغدو وحشيّة، إن عاجلاً أم آجلاً. وأدرك تورو أنّ بمقدوره القيام بما يتجاوز المراقبة، وجلب هذا الوعي التوتّر، واستمدّت رسائل كينوي الرّاحة منه، فقد كانت كينوي، بسبب جنونها، بعيدة عن مطال أذاه.

تمثّلت أقوى الرّوابط بينهما في يقينه بأنّه لا سبيل إلى تعرّضه، هو نفسه، للجرح.

تمّ العثور على من يخلف فوروساوا في مهامّه، وكان طالباً من النّوع العادي تماماً، وعلّق تورو الآمال على أنّه خلال الشّهرين المقبلين سيكون بمقدوره التّخلّص من المدرّسيْن الآخريْن كذلك، لأنّه لم يرغب في أن يكون مديناً لهما، عندما يجتاز امتحاناته.

ولكنه أحجم بدافع من الحذر؛ ذلك أنّ هوندا ستساوره الشّكوك إذا قام تورو بتبديد طاقاته على مثل هذه الشّخصيات الثّانوية، ويمكن أن يصل إلى استبعاد شكاوى تورو، وقبول العيوب موضع الشّكوى، بل وتخطئة الشّكاوى نفسها، وعندئذٍ ستتبدّد اللّذّة السّريّة. وخلص تورو إلى أنّ عليه التذرّع بالصّبر، ولابدّ له من الانتظار إلى أن يظهر شخص أكثر جدارة بالجَرْح، على نحو يفوق ذلك بمراحل. وأيّاً كان هذا الشّخص فإنّه سيقدّم مدخلاً، وإن يكن غير مباشر، لجَرْح هوندا نفسه. مدخل لا يدع مجالاً للرفض والحنق، مدخل سلس لا تشوبه شائبة، وينتمي إلى إبداع تورو نفسه، فلا يجد هوندا أمامه إلاّ أن يلوم نفسه.

ومنذا الّذي سيجيء إلى حياته، مثل سفينة على الأفق البعيد؟ كما أخذت السّفن أولاً شكلاً متماسكاً، في ذهن تورو، كذلك ستظهر الضّحية ذات يوم، ظلاًّ ليس بالسّفينة، ولا السّراب، لا يساورها الشّكّ، ومتهافتة، متّبعة توجيهات الحفّار الكامن في قلبه. لقد وصل تورو على وجه التّقريب إلى مرحلة تعليق الآمال.

ـ ٢١ ـ

دخل تورو المدرسة التجهيزيّة الّتي وقع اختياره عليها.

في عامه الثّاني بها، قُدِّم اقتراح خطبة من خلال وسيط مناسب. كانت لدى شخص معين فتاة في سنّ الزّواج، حسب أنّ تورو قد يهتمّ بها. وكان تورو قد وصل إلى السّنّ القانونيّة للزواج، لكنه كان مايزال في الثّامنة عشرة من عمره فحسب. واستبعد هوندا اقتراح الخطبة ضاحكاً. غير أنّ الشّخص الآخر كان على جانب كبير من الدّأب، وجاء الاقتراح من خلال وسيط آخر. ولمّا كان الوسيط الثّاني شخصية بارزة في عالم القانون، فإنّ هوندا لم يكن بمقدوره رفض اقتراحه، ودونما شروط.

تاق هوندا إلى شيء محدّد: عروس شابّة، ستتلوّى من فرط الحزن، لدى فقدها زوجَها وهو في العشرين من عمره. لسوف تكتسي بالألوان الجميلة والشّاحبة للمأساة، وذلك دونما مقابل. لسوف يكون لهوندا لقاء آخر مع التّبلور الخالص للجمال.

كان هذا الحلم بعيداً عن التّوافق مع سياساته التّربويّة، ومع ذلك فإنّه لو لم يكن هناك هامش على الإطلاق للحلم، ولو لم يكن هناك شعور بالأزمة، لما اكترث هوندا بعض الشّيء بسياسات أُعِدَّت لمنح تورو حياة ممتدّة ومجرّدة من الجمال. كان ما يخافه هوندا هو ما يأمل فيه، وما يأمل فيه هو ما يخافه.

تكرّر تقديم اقتراح الخطبة عدّة مرّات كانت تفصلها فترات مناسبة، شأن ماء يتقاطر من خلال أرضيّة. وبدا أمراً طريفاً لهوندا أن يزوره هذا الشّخص البارز، وأن يُصيخ السّمع لمناشدته اليائسة. وحدّث نفسه بأنّ الوقت مايزال مبكّراً للغاية على إبلاغ تورو.

افتتن هوندا بالصّورة الّتي جلبها العجوز. كانت الفتاة في الثّامنة عشرة من عمرها، وبارعة الجمال، لها وجه رقيق لا يضمّ شيئاً يوحي بالتأنّق والحداثة. كان هناك جمال في إطار الرّفض الممزوج بالدّهشة، الّذي واجهت المصوِّر به.

سأل هوندا، وكان القصد من سؤاله على النّقيض تماماً ممّا افترضه صديقه:

ـ نعم، إنّها جميلة للغاية، وهل هي قويّة البنية؟

ـ بمقدوري أن أؤكّد لك أنّني أعرفها جيداً. إنّها أقوى كثيراً ممّا تجعلك هذه الصّورة تعتقده. ولم تُصَبْ بمرض خطير. والصّحة هي، بالطّبع، الشّيء الأكثر أهمّية. وقد كان أبوها هو الّذي اختار الصّورة، واعتقد أنّه اختار صورة عتيقة الطّراز للغاية.

ـ إذن، فهي تميل إلى المرح.

ـ أخشى أن يكون ذلك صحيحاً، إذا كان هذا التّعبير يتضمّن إشارة إلى روح العبث.

كان ردّاً ملتبساً. وقد رغب هوندا في لقاء الفتاة.

* * *

بدا جلياً أنّ اقتراح الخطبة قد وضع ثروة هوندا موضع الاعتبار. وذلك وحده هو الّذي يمكن أن يفسّر التّلهف على عريس في الثّامنة

عشرة من عمره، بغضّ النّظر عن مدى تمتّعه بالمواهب، إذ لابدّ من اقتناص الطّريدة الجذّابة، قبل أن يدرك شخص آخر إمكانياتها.

كان هوندا يدرك هذا كلّه تمام الإدراك، وإذا ما قُدِّر له أن يقبل اقتراح الخطبة فإنّ السّبب الواضح سيكون السّيطرة على دوافع فتى في الثّامنة عشر من عمره صعب القياد. ولكن تورو الماثل أمامه هنا بدا له طيّعاً بالفعل. وهكذا فإنّ مصالح الجانبين ازدادت تباعداً، ولم يَرَ هوندا مبرّراً يدعوه لمواصلة الحديث في الأمر. وساوره شعور بالفضول حيال المفارقة بين الأبوين والفتاة الجميلة نفسها المرشّحة للزواج. أراد أن يرى احترام الذّات الشّره يتداعى، فقد كانت العائلة الّتي تقدّمت باقتراح الخطبة على قدر كبير من البروز اجتماعياً، ولكن هوندا ما عاد يكترث بمثل هذه الاعتبارات.

اقتُرحت مأدبة عشاء يحضرها تورو والفتاة، ولكن هوندا رفض هذا الاقتراح. ورأى بدلاً من ذلك تناول طعام العشاء مع الشّخص الّذي تقدّم بالاقتراح وعائلة الفتاة.

على امتداد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع وقع هوندا بأعوامه الثّمانية والسّبعين في قبضة الإغراء. كان قد رأى الفتاة على العشاء. وتبادلا بعض العبارات، وتلقّى كثيراً من الصّور الأخرى. ومن هنا جاء الإغراء.

لم يكن قد أبدى ردّاً مواتياً، كما أنّه لم يصل إلى قرار، ولكن قلبه الموغل في العمر كان ضحيّة لنبضات لم يستطع عقله السّيطرة عليها. وكان عناد الشّيخوخة مبعث ضيقه، وتاق إلى اطلاع تورو على الصّور ورؤية ردّ فعله.

لم يعرف هوندا نفسه ما الّذي تملّكه، ولكنّ السّعادة والكبرياء كانا في قرار الإغراء. وعرف أنّه إذا قام، في حقيقة الأمر، بإبلاغ تورو باقتراح الخطبة، فإنّه سيكون قد تجاوز نقطة العودة. ولكنّ العناد لم يعرف للعقل سبيلاً.

تاق إلى رؤية كلّ نتائج المباراة، نتائج ارتطام الاثنين معاً، كرة بليارد بيضاء وأخرى قرمزيّة. سيكون أمراً طيّباً، إذا ما أُغرم تورو بالفتاة، وسيكون شيئاً حسناً إذا ما أُغرمت به. لسوف تلزم الحداد عليه، عندما يموت، ولسوف يدفعه طمعها إلى الوصول إلى رؤية البشريّة على ما هي عليه. وكلا الأمرين سيكون نتيجة تدعو للسرور، بالنّسبة إلى هوندا، ويشكّل نوعاً من المهرجان.

كان هوندا أكثر إيغالاً في العمر من أن تساوره خواطر جليلة عن طبيعية الحياة البشريّة. لقد بلغ عمراً يمكنه معه أن يبرّر الألاعيب الخبيثة. وأياً كان الخبث فإنّ الموت قريب ليصلح كلّ شيء. بلغ عمراً يبدو الشّباب فيه لَهْوَ لاهٍ، والبشر مجموعة من الدّمى الصّلصاليّة. إنّه عمر يمكنه فيه، عندما يكلّل أغراضه بالاحتفاء، أن يقلب الشّرف والإخلاص إلى تلاعب السّماء الّتي كساها المساء.

وإذ أصبح الآخرون كاللاشيء فإنّ الاستسلام لمثل هذا الإغراء غدا نوعاً من القدر.

في وقت متأخّر، ذات مساء، استدعى هوندا تورو إلى مكتبه. وكان المكتَب الإنجليزيَ الطّراز الّذي ورثه عن أبيه، وقد لفّته رائحة أمطار الصّيف. وكان هوندا يكره تكييف الهواء، فبدت لمعة عرق خفيفة على صدر تورو الشّاحب. بدا لهوندا أنّ زهرة كوبية بيضاء حان قدرها تتفتّح أمامه.

ـ ستحلّ إجازة الصّيف قريباً.

قضم تورو من قطعة الشّيكولاته بالنّعناع الّتي قدّمها إليه هوندا:
ـ ولكن الامتحانات تأتي في المقام الأوّل.
ابتسم هوندا:
ـ إنّك تأكل كالسّنجاب.
ـ آه؟

ابتسم تورو بدوره ابتسامة شخص لا سبيل إلى جرحه.

نظر هوندا إلى الوجه الشّاحب، وحدَّث نفسه بأنّ الشّمس لابدّ أن تحرقه هذا الصّيف إلى حدّ التغضّن. كان وجهاً لا يوحي بأنّه مُعَرَّض لخطر البثور. فتح الجارور، بعفوية مدروسة، ووضع صورة أمام تورو.

كان تورو رائعاً للغاية، ولم يغب أيّ من التّفاصيل عن هوندا. ففي البداية فحص تورو الصّورة باهتمام وقور، شأن حارس يفحص جواز مرور. ارتفعت عيناه المتسائلتان متطلّعتين إلى هوندا، وعادتا من جديد إلى الصّورة، ثمّ حلّ فضول صبياني، واحمرّ وجهه حتّى الأُذُنيْن. وضع الصّورة من جديد على المكتب، ودسّ أصبعاً خشناً في إحدى أذنيه.
قال، وقد نمّ صوته عن لمسة غضب:
ـ إنّها جميلة للغاية.

حدّث هوندا نفسه بأنّ الأمر رائع للغاية. كان ثمّة شيء شاعري في الفتوّة الّتي لفّت الردّ (وكان ذلك في لحظة تأزّم). نسي هوندا أن تورو قد أجاب بالردّ الّذي رغب هو في أن يطرحه.

كان الأمر مزيجاً معقّداً، كأنّما وعي هوندا الذّاتي قد لعب هو نفسه للحظة دوراً صبيانياً، مُخفياً الاضطراب بلمسة من الخشونة.

سأله هوندا بهدوء:

ـ أتحبّ مقابلتها؟

سعل بشيء من العصبية، آملاً أن يكون الردّ التّالي مناسباً بالمثل. انبعث تورو واقفاً بخفّة، ودار ليربّت على ظهر هوندا:

ـ أجل.

كانت الكلمة زمجرة، على وجه التّقريب. انتهز تورو فرصة أن أباه لم يكن بوسعه أن يراه في وضعه ذاك، وتوهّجت عيناه، وهو يقول لنفسه: «كان الأمر جديراً بالانتظار، هوذا شخص يستحقّ أن يُجرح».

ولكن في البعيد، فيما وراء النّافذة، كان المطر يهمي. مطر حزين موحش، مثل سائل أسود، يضفي على لحاء الشّجر وهجاً ضبابياً في الضّوء المترامي من النّافذة. راحت قطارات مترو الأنفاق، الّتي تنطلق هنا على قضبان مرفوعة، تهزّ الأرض في اللّيل. جلبت الأضواء المتألّقة في النّوافذ، فيما القطار يندفع تحت الأرض من جديد، رؤية إلى تورو الّذي كان مايزال يواصل التّربيت على كتف أبيه. لم يكن ثمّة أثر لسفينةِ اللّيلة.

- ٢٢ -

لنفترض أنّك سايرتها لبعض الوقت، فإنّ لم تَرُقْ لك فما عليك إلاّ أن تقول ذلك، ليس هناك التزام.

مضى تورو لتناول طعام العشاء ذات ليلة، لدى بدء الإجازة الصّيفيّة. وبعد العشاء، وبناء على إشارة من أمّها إلى أنّه قد يكون أمراً جميلاً أن تريه غرفتها، مضت به موموكو هاماناكا إلى الطّابق العلوي. كانت غرفة رحبة على الطّراز الغربي، تحمل بصمة الفتاة من أذناها إلى أقصاها. وكانت تلك هي تجربة تورو الأولى مع ما هو آنساتيّ بصورة مطلقة. كانت الغرفة مكسوّة باللّون الوردي على نحو مُتْرَف. وثمّة طابع آنساتيّ في كلّ تفاصيل ورق الحائط والدّمى وعاصر التّجميل. وتنفّس كلّ شيء بجاذبية فتيّة مخاتلة. واقتعد تورو كرسياً وثيراً، فجعلت الوسادة الغليظة، المتعدّدة الألوان، الجلوسَ صعباً.

كانت موموكو تتمتّع بمظهر ناضج، ومع ذلك ما كان يمكن أن يكون هناك شكّ في أنّ كلّ هذه التّفاصيل كانت من اختيارها. وكان الشّحوب البارد، المبيضّ قليلاً، متوافقاً مع الملامح العتيقة الطّراز الّتي لا تبرز على نحو بالغ. وجعلتها اللّهفة الموحشة الشّيءَ الوحيد الّذي يتعارض مع الفتنة المخاتلة. كان جمالها أكثر اكتمالاً من ناحية الشّكل ممّا ينبغي، وكما في الكمال الشّكلي لطّائر تِمّ من ورق، كان ثمّة شيء حافل بالنذير فيه.

جلبت أمّها الشّاي، وانسحبت. وكـان الاثـنـان قد التقيا عدّة مرّات من قبل، ولكنّهما اختليا للمرّة الأولى. ولم تؤدِّ تلك الحقيقة إلى إفراز توترات جديدة. وكانت مومكو تشعر بالأمان في غمرة معرفتها بأنّها قد أطاعت التّعليمات الّتي وُجِّهت إليها. وحدّث تورو نفسه بأنّه لابدّ من إيقاظها على الخطر الّذي تواجهه.

كانت قد نفّرته كلّ ضروب الاهتمام الوقور الّتي لقيها خلال تناول العشاء. ولكن ضيقه أوشك على التخلّي عنه. كانت هناك مباراة تقام. كان الحبّ الرّقيق يُلتقط بالكمّاشات مخضَّباً، لقد وضعت قطعة الحلوى في الفرن بالفعل. وبالنّسبة إلى تورو لم يكن هناك فارق بين أن يمضي من تلقاء ذاته أو يُدفع دفعاً. ولم يكن ثمّة ما يدعوه إلى عدم الرّضا عن نفسه.

كان أوّل ما فعلته مومكو، لدى انفرادهما معاً، هو اختيار ألبوم من بين أربعة أو خمسة ألبومات مرقّمة، وتقديمه إلى تورو. وهكذا فقد دُفع إلى الشّعور بكونها عادية بشكل جوهري. فتح الألبوم على ركبتيه، فرأى طفلة ترتدي صدريّة، وقد باعدت ما بين ساقيها، وقد انتفخ سروالها من جرّاء وجود الحفاض، فلاحت كفارس فلمنكيّ. وأطلّ من الصّورة الفمّ الوردي القاتم الّذي لم يمتلئ بالأسنان بعد. تساءل تورو عمّن عساها تكون هذه الطّفلة.

بدا فزع مومكو مدهشاً، وألقت نظرة على الألبوم، ووضعت كفّها فوق الصّورة، وانتزعت الألبوم منه، وضمّته إلى صدرها، والتفتت نحو الحائط، وقد ثقل تنفّسها.

ـ ما أشدّ فظاعة ذلك! كانت الأرقام خطأ. ولم أقصد إطلاعك على هذا الألبوم. ماذا عساني أصنع؟

ـ أهو سرّ كبير أنّك كنت طفلة ذات يوم؟

ـ ألست بارداً؟ مثل طبيب.

عادت موموكو إلى هدوئها، وأحلّت ألبوماً آخر محلّ هذا الألبوم. وكان تورو على يقين، انطلاقاً من هذه العشرة، من أنّه سيرى في الألبوم الثّاني موموكو وهي في السّابعة عشرة من عمرها.

ولكنّ الألبوم التّالي كان عادياً للغاية، إذ ضمّ صوراً من رحلة حديثة. أظهرت كلّ صورة مدى شعبيّة موموكو. كان سجلاً لسعادة مضجّرة. وقد اجتُذب تورو، على نحو يفوق كثيراً انجذابه لصور رحلة حديثة إلى هاواي، إلى موموكو في حديقة بجوار نيران احتفاليّة موقدة ذات مساء من أمسيات الخريف الماضي. كانت النّيران وهجاً قرمزياً ثرياً مترعاً بالنّشوة، وقد جثت موموكو إلى جواره بعظمة إحدى السّاحرات.

سألها:

ـ أمغرمة أنت بالنيران؟

لمح التّردّد في عينيها. واستشعر ثقة غريبة بأنّها كانت في فترة الطّمث وهي تجلس متطلّعة إلى النّيران. والآن؟

كم كان الخبث الخالص سيغدو نقيّاً لو أنّه تجرّد من الجاذبية الجنسيّة! لقد أدرك أنّ هذا التّحدي الجديد لن يكون يسيراً، على نحو ما كان طرد معلمه. لكنه كان واثقاً من برودته، أيّاً ما كان احتدام النّحو الّذي سيحيطه الحبّ به. لقد كمن ذلك في أقنوم الزّرقة القاتمة في أعماقه.

- ٢٣ -

قام هوندا باصطحاب تورو إلى هوكايدو في ذلك الصّيف، إذ تردّد في تركه بمفرده. كان برنامجهما سهلاً إذا لم يرغبا في أن يرهقا نفسيهما. ومضت كيكو، الّتي غدا من الصّعب عليها السّفر مع هوندا، إلى جنيف وحدها؛ حيث كان السّفير الياباني لدى سويسرا أحد أقاربها. وأراد آل هاماناكا قضاء يومين أو ثلاثة أيام مع آل هوندا، ولذا قامت العائلتان بحجز غرف في شيمودا. وإذ تغلّب حرّ الصّيف على هوندا فإنّه لم يغادر غرفته إلاّ نادراً.

كان من المتّفق عليه أن يتناولوا طعام العشاء معاً كلّ ليلة. أقبل آل هاماناكا لرؤية هوندا. وسألا عن موموكو، وكانت قد سبقتهما في القدوم بوقت قصير، حسبما أوضح هوندا، ومضت إلى الحديقة مع تورو. وهكذا جلسا وانتظرا عودة الشّابّين.

وقف هوندا قرب النّافذة، وقد أمسك بعصاه.

كان كلّ شيء سخيفاً. ولم يكن جائعاً، وكانت قائمة الطّعام بائسة. وعرف دون أن يمضي إلى قاعة الطّعام أن مرحاً عائلياً مبتذلاً بانتظاره. وكان حديث هاماناكا على المائدة هو الضّجر مجسّداً.

فرضت السّياسة نفسها على الكبار. وعلى الرّغم من أنّ رجلاً في الثّامنة والسّبعين من عمره كان يتعرّض لوخزات الألم في مفاصله كافّة، إلاّ أنّه لم يكن بمقدوره إخفاء افتقاره إلى الاهتمام، إلاّ تحت

مظهر من اللّماحيّة والفكاهة المتألّقة. ورغم ذلك فقد كان الافتقار إلى الاهتمام أمراً مهمّاً. كان ذلك هو السّبيل الوحيد للفوز على غباء العالم، انعدام الاكتراث ذاك الّذي يُبديه شاطئ يتلقّى الأمواج والأخشاب الطافية، كلّ يوم.

كان هوندا قد ظنّ أنّه وقد كممت النّقود شفتيه، وأحاط المتزلّفون به، مازالت في أعماقه بقية من حياة، وبقية من حدّة، يدفع بهما الأيام الّتي تكمّم النّقود الشّفاه فيها، ويطرد المتزلّفين، ولكنّ هذه البقية فارقته. وكلّ ما لديه حقّاً كان شعوراً جارفاً بالحماقة وبالابتذال، وقد ذاب متحوّلاً إلى رتابة. كم هي هائلة تجلّيات العادي والمبتذل! ابتذال التّأنّق، ابتذال العاج، ابتذال القداسة، ابتذال الجنون، ابتذال ذوي المعرفة الواسعة، ابتذال الأكاديمي المدّعي، الابتذال المغناج، ابتذال القطّة الفارسيّة، ابتذال الملوك والشّحاذين والمعتوهين والفراشات. كان التّناسخ جزاء على الابتذال، وكان المصدر الرّئيسي، بل والوحيد حقاً، للأمر بأسره يكمن في الرّغبة في الحياة. وكان هوندا نفسه، دونما شكّ، جزءاً من الأمر، وتمثّل ما ميّزه في شعوره الحادّ، على نحو غير مألوف، بالرّائحة.

تطلّع من طَرْف خفيّ إلى الثّنائي المكتهل أمامه. لماذا أقبلا إلى حياته؟ اصطدم زخم وجودهما بإحساسه بالنّظام. ولكن لم يعد ثمّة سبيل إلى تجنّب الأمر الآن، فهاهما هناك، يبتسمان على أريكته وكأنّهما على استعداد للانتظار عقداً من الزّمن، أو نحو ذلك.

كان شيجيشا هاماناكا، البالغ من العمر خمسة وخمسين عاماً، الرّئيس السّابق لعشيرة إقطاعيّة في الشّمال الشّرقي. وقد سعى لتغطية

كبرياء العائلة، الّتي غدت كبرياء جوفاء الآن، بالنزعة البوهيميّة، بل إنّه دبّج كتاباً يضمّ مجموعة مقالات بعنوان «رئيس العشيرة» لقي نجاحاً متواضعاً، وتولّى رئاسة مصرف يقع فرعه الرّئيس في إقطاعيته القديمة، وحقّق شهرة في أحياء الملذّات، باعتباره رجلاً يحظى بذوق عتيق الطّراز. وكانت هناك ثروة وفيرة من الشّعر ماتزال قابعة على رأسه، فوق العوينات الذّهبية الإطار، والوجه الّذي يأخذ شكل اللّوزة، ولكنّ الانطباع الأقوى الّذي يوحي به، هو التّفاهة والإضجار. وباعتباره راوية واثقاً من نفسه فقد كان يسمح بفترة صمت مناسبة، قبل الإدلاء بخاتمة لمّاحة للحديث. وبوصفه مُحدِّثاً لبقاً، يهتمّ بتجاوز المقدّمات، وشخصاً يقع على المفارقة اللّطيفة، ولم ينسَ قطّ احترامه لكبار السّن، فإنّه لم يكن ليخطر بباله أنّه مضجِّر.

انحدرت زوجته تيكو بدورها من الارستقراطيجة العسكريّة. وكانت مخلوقة بدينة، خشنة الملامح، ومن حسن الطالع أن الابنة قد ورثت ملامح الأب. وكانت العائلة هي كلّ ما تستطيع تيكو الحديث عنه، فلم يُقدَّر لها أن تشاهد مسرحيات ولا أفلاماً، وأنفقت حياتها جالسة أمام جهاز تلفزيون، وكانا شديدي الفخر بزواج أبنائهما الثّلاثة الآخرين واستقلالهم، وقد بقيت مومكو وحدها.

هكذا أصبح التّأنّق العتيق الطّراز سطحيّة. وكان ممّا يفوق قدرة هوندا على الاحتمال أن يسمع شيجيشا يتحدّث، بمزيد من الانحلال، عن الثّورة الجنسيّة، ويصغي إلى ردود تيكو، المترعة بالشعور بالصّدمة. فقد استخدم شيجيشا ردود زوجته العتيقة الطّراز كجزء من العرض الّذي يقدّمه.

تساءل هوندا عن السّبب في أنّه لم يكن بمقدوره إبداء المزيد من الاحتمال والتّسامح. كان يعرف، فيما غدا التّوصّل إلى معارف جديدة أمراً أعظم مشقّة، مدى صعوبة اصطناع ابتسامة. كان الازدراء هو، بالطّبع، الشّعور الّذي يحسّه أوّلاً، ولكن حتّى هذا الشّعور أصبح شيئاً يتعذّر الإحساس به هذه الأيام. فكّر في أنّه من الأيسر بكثير الرّدّ بالبصاق من الإجابة بالكلمات، حتّى والكلمات تتواتر مقبلة إلى شفتيه، ولكن الكلمات كانت المهمّة الباقية. فبها كان بمقدور رجل عجوز أن يلوي العالم، كما قد يسحق زخرفة مصنوعة من خشب أشجار الصّفصاف.

قالت تيكو:

ـ لكم تبدو فتيّاً وأنت تقف هناك، مثل جندي!

ـ إنّه تشبيه غير مناسب قطّ، يا عزيزتي، ينبغي ألاّ تشبّهي قاضياً بجندي. لم يحدث قطّ أن نسيت مروضاً للوحوش قابلته في سيرك بألمانيا. هذا هو ما يشبهه السّيّد هوندا.

استبدّ الطّرب، على نحو فظيع، بتيكو:

ـ إنّه تشبيه أكثر بعداً عن الملاءمة، بحسب اعتقادي، يا عزيزي!

ـ ينبغي أن تصدّقا أنّني لا أقف في وضع من يوشك على أن تُلتقط له صورة. إنّني أقف هنا لكي أتمكّن من رؤية الغروب والشّابّين في الحديقة.

ـ يمكنك رؤيتهما؟

دنت تيكو، ووقفت بجوار هوندا، وغادر شيجيشا بدوره مقعده، في اعتداد بنفسه.

ترامت الحديقة، تحت النّافذة، الواقعة في الطّابق الثّالث. وكانت

دائريّة الشّكل، يحفّ بها ممشى يُفضي إلى البحر، وثمّة مقعدان أو ثلاثة مقاعد بين الشّجيرات. كانت مجموعات عائليّة في طريق عودتها، وقد وضعت المناشف على الأكتاف، منفضّة عن المسبح الواقع عند مستوى أدنى، فألقت ظلالاً مسائيّة مترامية على المرجة.

سار تورو وموموكو شابكين يديهما، وقد توسّطا الطّريق الدّائري. وامتدّ ظلاّهما بعيداً إلى الشّرق. وبدا المشهد كما لو أنّ كلبيْ بحرٍ هائلين يقضمان أقدامهما.

امتلأ قميص تورو بنسيم المساء، وراح شعر موموكو يتطاير. كانا فتى وفتاة عاديين للغاية، ولكنهما كانا، بالنّسبة إلى هوندا، يشبهان في طابعهما غير المادي شباك بعوض صنعت من النّسيج المعروف بلعاب الشّيطان. لقد التهمتهما الظّلال وكآبة الفكرة الغامرة. حدّث هوندا نفسه بأنّ تلك ليست الحياة. كان ذلك شيئاً أقلّ سهولة في التماس الأعذار له. وتمثّلت الحقيقة المرعبة في أنّ تورو ربّما كان على علم بذلك.

لو أنّ الظّلّ كان المادة فلابدّ أن يكون الشيء البالغ الشّفافية المتشبّث به أجنحة. حلّق! حلّق فوق الابتذال! كانت الأطراف والرّأسان شيئاً فائضاً، بالغ التّحدُّد. لو أنّ الازدراء الكامن بداخله كان أقوى قليلاً لاستطاع تورو أن يحلّق مبتعداً، وقد أمسك بيد الفتاة، ولكن هوندا حظر ذلك. تاق هوندا بكلّ قوى عجزه، المفعم بالشيخوخة، إلى إعمال حسده، ومنحهما جناحين لكلّ منهما، ولكن حتّى الحسد نفسه لم يعد بوسعه أن يتّقد حارقاً للغاية بداخله. الآن فحسب بمقدوره أن يرى الحسد على حقيقة ما كانه، الانفعال

الأكثر تجذّراً، الّذي شعر به نحو كيواكي وإيساو. نبع كلّ غنائيّة لدى الإنسان المثقّف.

طيّب، إذن. لنفترض أنّه نظر إلى تورو وموموكو باعتبارهما أحقر الشّباب التّافهين وأقلّهم إثارة للاهتمام. لسوف يتحرّكان، ويرتمي أحدهما في أحضان الآخر. كلّ ما عليه أن يحرّك أصبعاً. وقد حرّك أصبعين أو ثلاثة أصابع على عصاه. سار الشّابان في المرجة نحو الممرّ الصخري.

ـ انظر إليهما فحسب، هلاّ فعلت ذلك! ها نحن ننتظر، فيما يبدو أنّهما يعتزمان الإيغال في المسير بعيداً.

وقفت تيكو، وقد وضعت يدها على مرفق زوجها. كانت هناك لمسة من الاستثارة في صوتها.

واجه الشّابان البحر، واجتازا الشّجيرات، واقتعدا إحدى الدّكك الخشبيّة الخشنة. واستطاع هوندا أن يدرك، من زاوية الرّأسين، أنّهما راحا يشاهدان الغروب. برزت كتلة من السّواد من أسفل الدّكّة. ولم يستطع هوندا تبيّن ما إذا كانت قطّة أم كلباً. وقفت موموكو مندهشة، ووقف تورو بجانبها، واحتضنها.

ـ طيّب، الآن.

طفا صوتا الأبوين اللّذين كانا يرقبان المشهد من النّافذة، في هدوء، وكأنّهما زغب هندباء بريّة.

لم يرقب هوندا المشهد، لم يكن العارف ببواطن الأمور في غمرة المراقبة من خلال ثقب التّلصص. هنالك، عند النّافذة المتألّقة، كان

يقوم في قرارة فؤاده على وجه التّقريب بالحركات الّتي أمر وعيه بها، موجِّهاً إيّاها بقوّة كلّ حواسّه.

ـ إنّكما شابان، ويتعيّن عليكما تقديم البرهان على حيويّة أشدّ سخفاً بكثير. هل أضع الرّعدَ فيكما؟ لمعَ برق مفاجئ؟ هل تُتاح لنا نوعية غريبة من الظّواهر الكهربيّة. ربّما إرسال ألسنة اللّهب مندفعة من شعر موموكو؟

مدّت إحدى الأشجار أغصانها، كالعنكبوت، نحو البحر. شرع الشّابان في تسلّقها. وكان بمقدور هوندا الشّعور بالتوتّر السّاري في الزّوجين الواقفين إلى جواره.

بدت تيكو على وشك البكاء وهي تقول:

ـ ما كان ينبغي لي السّماح لها بارتداء سروال، تلك الصّغيرة المؤذية.

لفّا ساقيهما حول الأغصان، وتأرجحا صعوداً وهبوطاً وتناثرت الأوراق متساقطة إلى الأرض. بدت شجرة وسط الأشجار الأخرى وكأنّما استبدّ بها الجنون. لاح الشّابان وكأنّهما زوج من الطّيور الهائلة، في مواجهة السّماء المتّشحة بالمساء.

قفزت موموكو من الشّجرة أولاً، ولكنها لم تقفز بالقدر الكافي من الجرأة، واشتبك شعرها بأحد الأغصان السّفلى، وتبعها تورو فسعى إلى تخليص شعرها.

أومأت تيكو، باكية، مراراً وتكراراً:

ـ إنّهما عاشقان.

لكنّ تورو كان يستغرق وقتاً أطول ممّا ينبغي، وعرف هوندا، في

التوّ، أنّه كان يعمل على اشتباك الشّعر مع الغصن، على نحو أكثر إحكاماً، عن عمد، وجلبت الجهود المبالغ في أدائها برقّةٍ لذعة خوف، وإذ أحسّت موموكو بالأمن في غمرة هذه التّعزيات المقدَّمة إليها فقد سعت إلى جذب نفسها بعيداً عن الغصن. كان الألم حادّاً. وتظاهر تورو بجعل الأمر أسوأ دونما قصد مع إيغاله في محاولة التّخليص، وامتطى الغصن، كمدرّب جياد. راحت موموكو تشدّ الحبل الطّويل الّذي صنعه شعرها، وظهرها نحوه. كانت تبكي، وقد وضعت كفّيها على وجهها.

من النّافذة الواقعة بالطّابق الثّالث، وعبر الحديقة المترامية الأطراف، بدا الأمر كما لو كان مشهداً مجسَّداً بالشّمع أو بالتمثيل الصّامت المتراخي. كمنت العظمة في نور المساء، تيهوراً ينحدر نحو البحر، في الوهج السّامق للنور المتألّق بعيداً نحو البحر من السّحب، نثاراً باقياً من حمّامات شمسيّة، على امتداد الأصيل. وبسبب النّور نشرت الأشجار والجزر في الخليج اللّون على خطوط قويّة، ناحلة، تزداد تقارباً. كان الصّفاء رهيباً.

قالت تيكو، مرة أخرى:

ـ إنّهما عاشقان.

امتدّ قوس قزح باهر فوق البحر وكأنّه امتداد لسنى الشّمس في فؤاد هوندا حيال بلاهة الأمر بأسره.

ـ ٢٤ ـ

مقتطفات من يوميات تورو هوندا:

ليس بمقدوري إيجاد أعذار للأخطاء العديدة الّتي أرتكبها في موضوع مومكو، ذلك لأنّ المرء ينبغي أن ينطلق من الوضوح، وأدنى عنصر من عناصر إساءة التّقدير يؤدّي إلى الخيال المنطلق، وهذا الأخير يُفضي إلى الجمال.

لم يحدث من قبل قطّ أن كنت من الأتباع المخلصين للجمال بما يكفي للاعتقاد بأنّ الجمال يُفضي إلى الخيال المنطلق، وهذا الأخير يؤدّي إلى إساءة التّقدير. وعندما كنت ما أزال حديث العهد بمحطّة الإشارة، كنت في بعض الأحيان أُسيء تعرّف هوية سفينة، إذ يحدث بصفة خاصة في اللّيل، حينما يكون من الصّعب تقدير المسافة بين الأضواء العلوية، أن أحسب، في بعض الأحيان، سفينة صيد، هيّنة الشّأن، سفينة دوليّة لنقل البضائع، وأقوم بإرسال إشارة، طالباً منها أن تعرّف بنفسها، وإذ لم تَعْتَدْ سفينة الصّيد على مثل هذه المعاملة الرّسمية فإنّها تقوم أحياناً بإرسال إشارات ضوئيّة باسم نجم سينمائي. غير أنّ ذلك لم يكن بالشيء البالغ الجمال.

تنطبق على جمال مومكو، بالطّبع، المعايير الموضوعيّة كافّة. وحبّها ضروري لي، وينبغي أن أقدّم إليها النّصل الّذي ستطعن نفسها به. لن تكون سكين ورقيّة شيئاً كافياً.

إنّني أعرف بصورة جيدة بما فيه الكفاية أنّ المتطلبات الأكثر ثباتاً في إلحاحها لا تأتي من العقل أو الإرادة، وإنّما من الرّغبة الجنسيّة. فالمتطلّبات المفصّلة للجنس يُظنّ في بعض الأحيان خطأ أنّها متطلّبات منطقيّة. وأحسب أنّه خوفاً من أن أخلط بين الأمرين يتعيّن أن تكون لي امرأة أخرى من أجل الجنس، وذلك يرجع إلى أن أكثر رغبات الشّرّ مراوغة ودقّة ليست مكرّسة للجَرْح العضوي، وإنّما للجَرْح الرّوحي. وإنّي لأعرف بقدر كافٍ من الدّقّة طبيعة الشّرّ الكامن في أعماقي. إنّه يقبع في المتطلّبات الملحّة للوعي نفسه، الوعي وقد تحوّل إلى رغبة، أو إذا شئنا التّعبير عن الأمر بصورة مختلفة، قلنا إنّ الشّر كان الوضوح في أكثر أشكاله كمالاً، يقوم بدوره في أشدّ الأعماق ظلاماً.

في بعض الأحيان أحدّث نفسي بأنّه سيكون من الأفضل لو أنّني لقيت حتفي؛ ذلك أنّ خططي يمكن أن تتحقّق على الجانب البعيد من الموت، فهناك بمقدوري العثور على المنظور الحقيقي. والقيام بذلك، فيما لا أزال على قيد الحياة، هو أكثر صعوبة من الصّعب ذاته، وبخاصّة حينما تكون في الثّامنة عشرة من العمر فقط!

إنّني أجد من الصّعوبة البالغة فهم آل هاماناكا. لا يمكن أن يكون هناك شكّ في أنّهم يرغبون في أن نرتبط بالخطوبة لخمس سنوات أو ستّ، وأنّهم سيمضون في خيارهم قُدُماً ويجمعون شملنا معاً كعضويْن معترف بهما تماماً في المجتمع، في إطار زواج رفيع المستوى. ولكن ما هو الضّمان المتوافر لهم؟ هل ينبغي أن تكون لهما كلّ هذه الثّقة في جمال ابنتهما؟ أم أنّهما يعلّقان آمالاً كباراً على الحصول على مدفوعات مقابل الحنث بالوعد؟

لا، أشكّ في أنّهما قاما بأي تقديرات حقيقيّة على الإطلاق، فهما يتبنيّان أكثر النّظرات بدائيّة وأشدّها قرباً إلى الفطرة السّليمة إلى العلاقات بين رجل وامرأة. وإذا ما حكم المرء من خلال شهقات إعجابهما، عندما سمعا بمعدّل ذكائي، فإنّني أتصوّر أنّ كلّ طاقاتهما تنصرف إلى دراسة الموهبة، وبصفة خاصّة الموهبة فيما يتعلّق بالمال.

تحدّثت موموكو هاتفياً من كاريوزاوا، في يوم عودتي من هوكايدو. أرادت رؤيتي؛ ولذا فعليّ الذّهاب إلى كاريوزاوا. ليس لديّ شكّ في أنّ أبويها وراء هذا. كانت هناك لمسة من الاصطناع في صوتها، ولذا صمّمت على أن أكون قاسياً، وأجبت بأنّني بحكم انغماسي بعمق في دراساتي تمهيداً لامتحانات دخول الجامعة، فليس بمقدوري قبول دعوتها الرّقيقة. وعندما أعدت سمّاعة الهاتف إلى موضعها، أحسست بلذعة حزن غير متوقّعة، فالرّفض في حدّ ذاته نوع من التّنازل، ومن الطّبيعي أن يجلب التّنازل ظلاًّ من الحزن على احترام المرء لنفسه. ولست أخشاه.

أوشك الصّيف على الانتهاء، وإنّي لأدرك تمام الإدراك انقضاءه، كأقوى ما تستطيع الكلمات أن تعبّر. كانت هناك سحب بلون سمك الاسقمري، وركام من السّحب المكفهرّة في السّماء اليوم، ولمسة واهنة من الاشتداد في الهواء.

ينبغي للحبّ أن يتّبع ذلك متدفّقاً، لكنّ عواطفي لا يتعيّن أن تتّبع أي شيء.

ها هي الهديّة الصّغيرة الّتي قدّمتها لي موموكو في شيمودا، أمامي

على قِمَطْري. إنّها قطعة مؤطَّرة من المرجان الأبيض، وعلى الظّهر في قلبين يخترقهما سهم كتبت الكلمات التّالية: «من مومو كو إلى تورو». لست أفهم كيف تمكنها مواصلة كونها ضحيّة لهذه الأذواق الطّفوليّة. والعلبة مليئة بقطع صغيرة من الورق الفضيّ، تطفو عالية كرمال بيضاء على ساحل بحر، عندما ترجّها، ويوشك الزّجاج أن يتضبّب باللّون الأزرق القاتم. إنّ خليج سوروجا الّذي عرفته، استجمع في إطار من خمس بوصات مربّعة. لقد أصبح منمنة غنائيّة فرضتها عليَّ فتاة. ولكن رغم صغر قطعة المرجان، إلاّ أنّها كانت لها قسوتها المترفّعة الباردة، وعيي الّذي لا سبيل إلى اختراقه في طلب مغناتها.

أمن هنا تأتي الصّعوبات في كياني؟ أو للتعبير عن الأمر بشكل آخر كانت نعومة وجودي وسلاسته المترعة بالنذر؟

في بعض الأحيان أحدّث نفسي بأنّ سهولة الأمر كلّه تنبع من الحقيقة القائلة بأنّ وجودي استحالة منطقيّة.

لا يرجع الأمر إلى أنّني أطرح أي أسئلة صعبة عن وجودي، فأنا أحيا وأتحرّك دون قوّة دافعة، ولكن تلك استحالة تماماً كالحركة الدّائمة. كما أنّها ليست قَدَري. كيف يمكن أن يكون المستحيل قدراً؟

يبدو أنّه منذ اللّحظة الّتي ولدت فيها على الأرض عرف وجودي أنّه يطفو في مواجهة المنطق. لم أولد بأي نقص، وإنّما ولدت مخلوقاً بشرياً مكتملاً على نحو مستحيل، سلبيّة فيلم كاملة. ولكنّ هذا العالم مليء بالإيجابيات النّاقصة، وسيكون أمراً فظيعاً بالنّسبة

إليهم أن يقوموا بالتعامل معي وتحويلي من سلبيّة إلى إيجابيّة. وذلك هو السّبب في أنّهم يخافون منّي كلّ هذا الخوف.

كان أعظم مصدر للطرافة بالنّسبة إليّ هو الافتراض الجادّ بأنّني مخلص لنفسي. إنّها استحالة، ولو أنّني سعيت للعمل بهذا الافتراض للقيت حتفي توّاً، فذلك ما كان يمكن إلاّ أن يعني إجبار عبث وجودي على التحوّل إلى وحدة.

ربّما كانت هناك سبل للتصرّف لو أنّني لم أكن متمتّعاً باحترام الذّات. كان من السّهل، دون احترام الذّات، جعل الآخرين، ونفسي كذلك، يتقبّلون أنواع الصّور المشوّهة كافّة. ولكن هل من الإنساني للغاية على هذا النّحو أن يكون المرء متوحّشاً على نحو لا أمل فيه؟ وذلك على الرّغم من أنّ العالم يشعر، بالطّبع، بالأمان عندما يغدو المتوحّش أمراً واقعاً.

إنّني حذر للغاية، ولكنّي أفتقر إلى الكثير فيما يتعلّق بغريزة الحفاظ على الذّات. ويبلغ افتقاري في هذا الصّدد حدّاً من الوضوح بحيث أن النّسيم المنساب عبر الهوّة يجعلني أصل إلى حدّ الثّمَل. ولمّا كان الحظر هو الأمر العادي، فليست هنا أزمة، وإنّه لأمر جيد للغاية أن يحظى المرء بحسّ بالتوازن لأنّني لا أستطيع العيش دون ذلك النّوع العجائي من المعجزات، ولكنّ الأمر يغدو فجأة حلماً حارّاً قوامه الاختلال والانهيار، وكلّما زاد الانضباط عظم الميل إلى العنف، ويزداد شعوري بالسّأم من الضّغط على زرّ التحكّم. ينبغي ألاّ أومن بسهولة انقيادي، فما من أحد يعلم أي تضحية بالنّسبة إليّ هي أن أكون لطيفاً وسهل الانقياد.

لكنّ حياتي لم تكن إلاَّ واجباً. كنت كبحّار مبتدئ مرتبك، ولم أهرب من الواجب إلاَّ في غِمار دوار البحر والغثيان. وقد تطابق الغثيان مع ما يصفه العالم بالحبّ.

تبدو مومكو لسبب من الأسباب متردّدة في القدوم إلى الدّار معي. وقد تحدّثنا لمدّة ساعة أو نحو ذلك، بعد المدرسة، في مقهى رينوار. وفي بعض الأحيان نحظى بهلو بريء في الحديقة بركوب الأفعوانية. ولا يشعر الزّوجان هاماناكا بالقلق إزاء عودة ابنتهما إلى الدّار في وقت متأخّر، إذا لم يكن ذلك بعد حلول الظّلام. وعلى الرّغم من أنّني أصحبها في بعض الأحيان لمشاهدة فيلم فإنّني يتعيّن، بالطّبع، أن أبلّغهما مقدّماً بأنّنا سنتأخّر عن المعتاد، وليست هناك متعة كبيرة في هذه اللّقاءات العلنيّة، وهكذا فإنّ لنا أيضاً مواعيدنا الغراميّة القصيرة.

جاءت مومكو إلى مقهى رينوار مرّة ثانية اليوم، ربّما تبدو من طراز عتيق، ولكنّها شأن أي فتاة أخرى، في الأمور المقيتة الّتي تقولها عن مدرّسيها، وفي الثّرثرة عن صديقاتها، وفي الحديث، وكلّ ذلك مقنّع على نحو حافل بالازدراء بقناع من اللاّمبالاة، وكذلك عن المسلك الفضائحيّ الّذي يحيا به نجوم السّينما. وأعمد إلى مضاحكتها قليلاً مُظهراً ذلك التحمّل الرّجولي.

أفتقر إلى الشّجاعة لكتابة المزيد، ذلك أنّ ضروب تحفّظي تبدو على السّطح غير مختلفة عن ضروب التّحفّظ غير الواعية الّتي يبديها كلّ من هم في سنّ المراهقة. وأيّاً كان مدى غرابة أطواري فإنّ مومكو لا تشعر بأنّها كذلك، وهكذا، فقد أطلقتُ العنان لمشاعري، وأصبحتُ، دونما قصد، مخلصاً وأميناً، ولو أنّي كنت كذلك حقّاً

لوجب إذن فضح التّناقضات الأخلاقية في كياني شأن الضّفاف المكسوّة بالطّين عند المدّ المنخفض، ولكن التّناقضات الّتي تثير المشكلات هي الضّفاف الّتي لم تنكشف. وفيما المياه تنحسر متراجعة فإنّها تتجاوز موضعاً لا تبدو فيه إحباطاتي مختلفة عن إحباطات أيّ شاب آخر، والحزن الّذي يجعّد جبيني يرسم خطاً لا يختلف عن الخطّ المرسوم على جبين أي شخص آخر، ولن يكون أمراً مجدياً أن تمسك بي موموكو هناك.

جانبني الصّواب في اعتقادي أنّ النّساء تعذبهنّ الشّكوك في ما إذا كنّ موضع حبّ. وقد رغبت في أن أهوي بموموكو إلى أغوار الشكّ، ولكنّ الحيوانة الصّغيرة السّريعة الحركة راغت من الاصطياد، ولن يكون مجدياً أن أخبرها بأنّني لا أحبها، فسوف تعتقد أنّي أكذب، وسبيلي الوحيد هو أن أستغلّ وقتي وأجعلها تشعر بالغيرة.

أسائل نفسي في بعض الأحيان عمّا إذا لم أكن قد تغيّرت بشكل من الأشكال، من خلال استنفاد قوّة حواسي في استقبال كلّ تلك السّفن. تعيّن أن يكون هناك أثر ما عليّ، فقد ولدت السّفن من رحاب وعيي، وتنامت لتغدو عمالقة، ولتكتسب أسماء. وكانت حتّى ذلك الحدّ فحسب مناط اهتمامي. فما إن تصل إلى الميناء حتّى تنتمي إلى عالم آخر، وأغرق في الانشغال باستقبال سفن أخرى، لم أكن متمتّعاً بفنّ التحوّل بشكل تبادلي إلى سفينة ومرفأ. ذلك هو ما تطلبه النّساء. ومفهوم المرأة، إذ يصبح واقعاً معقولاً، سيرفض في نهاية المطاف مغادرة الميناء.

لقد عرفت كبرياء ولذّة خفيّتيْن في رؤية مفهوم على الأفق يتّخذ شكلاً على نحو تدريجي، ومددت يدي من خارج العالم، وأبدعت شيئاً، ولم أعرف مذاق الشّعور بجلبي إلى العالم، ولا ساورني الشّعور بجلبي مثلما يجلب الغسيل النّظيف قبل الحمّام. لم ينهمر عليَّ مطر ليمنحني الوجود داخل العالم. وعلى حافة الغرق الذّهني كان صفائي على يقين من الإنقاذ الحسّي المناسب، فقد مرّت السّفينة دوماً، ولم تتوقّف قطّ، وحوّلت رياح البحر كلّ شيء إلى رخام مرقّش، وحوّلت الشّمس الفؤاد إلى بلّور.

كنت معتمداً على نفسي إلى حدّ الحزن. وأتساءل متى اعتدت غسل يديَّ بعد كلّ احتكاك مع البشر، خوفاً من أن أتلوّث. وقد وصف النّاس هذه العادة بأنّها وسوسة غير مألوفة فيما يتعلّق بالنظافة.

ضرب سوء حظي جذوره، على نحو جلّي، في عدم تعرّف الطّبيعة. ومن الطّبيعي أنّني ما كان ينبغي أن أتعرّف الطّبيعة، ذلك أنّ الطّبيعة، إذ تحتوي كلّ القواعد، ينبغي أن تكون حليفاً، وطبيعتي لم تكن كذلك. لقد حقّقت عدم التعرّف برقّة، ولم يتمّ تدليلي أو ملاطفتي. وشاعراً على الدّوام بظلّ شخص يجهد ليجرحني، التزمت الحرص في إبداء الرّقّة الّتي منْ المؤكّد أنّ من شأنها جرح الآخرين. فقد يرى المرء في العناية نوعاً إنسانياً للغاية من القلق، ولكن كلمة «القلق» ذاتها تمتزج بها جزئيات كريهة من السّأم.

لقد حدّثت نفسي بأنّه في مفارقة مع طبيعة وجودي فإنّ شؤون العالم، المشكلات الدّوليّة الدّقيقة والمعقّدة وما إلى ذلك، لم تكن

مشكلات على الإطلاق. كان الفنّ والسّياسة والإيديولوجيا قشور بطيخ. تركت قشور البطيخ وحدها على الشّاطئ، بيضاء غالباً، ولكنّها يرقّشها شروق الشّمس الوردي الخافت. ذلك أنّني على الرّغم من كراهيتي لما هو مبتذل تعرّفت فيه إمكانيّة الحياة الخالدة.

بدا عدم الإدراك والخطأ أمرين مفضّلين على البحث بلا هوادة في أعماقي، فهذا الأخير يعني خشونة وافتقاراً للمجاملة يستعصيان على الوصف، وهو ليس ممكناً، إلاّ بأشد ضروب الكراهية فظاعة. متى قُدِّر لسفينة على الإطلاق أن تفهمني؟ كان كافياً بالنّسبة إليّ أن أفهم. كانت، بلا روح، وفي حرص على الشّكليات تعطي لي اسمها، وتنزلق إلى الميناء دون أن تضيف كلمة واحدة أخرى. ومن حسن طالع السّفن أنّ أياً منها لم يدرك هذا الموقف، ولو أنّ أياً منها قد أظهرت أدنى الهواجس لاكتسحها وعي في تلك اللّحظة تماماً.

لقد قمت بتجميع آلة دقيقة مخصَّصة للشعور بالكيفية الّتي سيكون عليها الأمر إذا ساورتني مشاعر مخلوق بشري. إنّ الإنجليزي المجنّس، فيما يقولون، أكثر إيغالاً في الطّابع الإنجليزي من الإنجليزي بحكم المواطن، وقد أصبحت أكثر من خبير بالبشر وفاقت خبرتي الكائن البشري، أصبحت، على أيّة حال، أكثر خبرة من فتى في الثّامنة عشرة من العمر. الخيال والمنطق هما سلاحاي وهما أكثر دقّة من الطّبيعة أو الغريزة أو الخبرة، وآمنان في غمرة الوعي وتعوّد التعرّض للاحتمالات المختلفة. أصبحت اختصاصياً في البشر، مثلما قد يصبح عالم حشرات اختصاصياً في خنافس أميركا الجنوبيّة. وبزهور لا رائحة لها استكشفت الطّرق الّتي يؤسر بها البشر من خلال رائحة زهور معيّنة، ويقعون في حبائل مشاعر بذاتها.

وهكذا فمن أجل الرّؤية رأيت من محطّة الإشارة كيف أنّ ناقلة دوليّة تلوح للعيان من مسافة معيّنة في البحر، وتشقّ طريقها نحو الشّاطئ بسرعة اثنتي عشرة عقدة ونصف العقدة، حاملة أكثر الأحلام بالوطن إلحاحاً. وقد كان ذلك مجرّد بحث دقيق، فقد كانت عيناي منصرفتين حقاً إلى أقنوم خفيّ يقع بعيداً وراء الأفق، ما الّذي تعنيه رؤية الخفيّ؟ تلك هي الرّؤية المطلقة، الإنكار في نهاية كلّ الرّؤية، إنكار العين لذاتها.

ولكنّي أخشى، في بعض الأحيان، أن تكون كلّ خواطري تلك، وخططي تلك كافّة، تبدأ في داخلي، وتنتهي هناك أيضاً. وقد كان الأمر كذلك، على أيّـة حال، في محطّة الإشارة؛ فكلّ تلك الصّور الّتي ترامت إلى تلك الغرفة الصّغيرة كشظايا كأس، ألقت ضوءها على الجدران والسّقف، ولم تترك وراءها أثراً. ألا ينطبق الأمر نفسه على العوالم الأخرى بدورها؟ ينبغي أن أكون سنداً لنفسي، وأواصل العيش. ذلك لأنّي أرفرف في الهواء دائماً، مقاوماً الجاذبية، عند حدود المستحيل.

بالأمس علّمنا أحد مدرّسينا، الأكثر اتّساعاً في نطاق معرفته على نحو عنيد، جزءاً من أنشودة يونانيّة:

من يولدون بغنيمة الآلهة
يقع على كاهلهم أن يموتوا متّشحين بالجمال،
دون أن يبدّدوا الغنيمة.

بالنّسبة إليّ، بالنّسبة إلى من تُعَدّ حياته بأسرها واجباً، فإنّ هذا الواجب بالتحديد لا وجود له، لأنّني لا علم لدي بأنّني تلقّيت مغنماً.

غدا الابتسام عبئاً ثقيلاً، ولذا أخذت على عاتقي أن أكون منحرف المزاج مع مومكو، لبعض الوقت. إنّني أترك المجال لوجهة النّظر العاديّة على نحو كامل، حتّى في غمرة تقديمي للمحة من الوحش القابع داخلي، القائلة بأنّني فتى نكِدٌ، مُحْبَط، ولأنّ تلك قطعة تمثيليّة لا يجري تخفيف أثرها، ولأنّها سخيفة تماماً، فإنّني بدوري ينبغي أن تكون لي درجة من الانفعال، وقد بحثت عن سبب، ووجدت السّبب الأكثر احتمالاً، وهو الحبّ الّذي وُلِد في أعماقي.

كدت أنفجر ضاحكاً، ذلك أنّي أصبحت مدركاً مدى أهمّية غياب الحبّ كمقدّمة واضحة بذاتها، وهي تكمن في حريّة الحبّ بلا تمييز في أيّ وقت. شأن سائق شاحنة يحظى بقيلولة في ظلّ صيفيّ، متيقناً من أنّه في لحظة استيقاظه بمقدوره أن يمضي منطلقاً بعيداً بشاحنته. وإذا لم تكن الحريّة جوهراً للحبّ وإنّما عدوّ له، فإنّني سيكون لي صديق وعدوّ أمامي في الحال.

يبدو أنّ عبوسي كان مقنعاً، وذلك أمر طبيعي للغاية، ذلك أنّه الشّكل الّذي يتّخذه الحبّ الحرّ الّذي يطلب فيما هو يُنكِر.

فقدت مومكو شهيتها في الحال. ونظرت إليّ بوجه يوحي بالقلق، على نحو ما قد تنظر إلى طائر مدلّل. وكان لديها المفهوم المبتذل القائل بأنّ السّعادة ينبغي أن تُقْسَم على الجميع، كأنّها رغيف خبز فرنسي كبير، ولم تفهم المبدأ الرّياضي القائل بأنّ السّعادة لامرئ ينبغي أن تكون التّعاسة لآخر.

ـ هل حدث شيء؟

كان سؤالاً غير مناسب، في مجيئه من هاتين الشّفتين البديعين، وارتسامه على ذلك المحيّا الّذي تظلّله مأساة كامنة.

ضحكتُ، شارداً، ولم أردّ.

كانت تلك هي المرّة الوحيدة الّتي طرحت فيها السّؤال. فسرعان ما غرقت في حديثها. وكان دور المستمع المخلص أن يلزم الصّمت.

لاحظت الأصبع الأوسط من يدي اليمنى وقد جرحته على أحد الأجهزة في التّدريب الرّياضي، في ذلك اليوم. رأيت الارتياح يرتسم على وجهها في لحظة رؤيتها للضمادة؛ فقد ظنّت أنّها وجدت سبب مزاجي المنحرف.

اعتذرت لعدم ملاحظتها ذلك من قبل، وقالت، مبدية اهتماماً كبيراً، إنّ الجرح يبدو موجعاً للغاية، فأجبت بحدّة أنّه ليس مؤلماً على الإطلاق.

وفي حقيقة الأمر لم يكن الجرح مؤلماً، ولم أستطع التماس العذر لها في العثور على مثل هذا التّفسير البسيط، وساءني أنّه على الرّغم من حرصي على إخفاء الضّمادة عنها فقد استغرقت كلّ هذا الوقت الطّويل في اكتشافها.

رفضت ضروب التّعاطف الّتي أبدتها، بتأكيدات ما تفتأ تزداد قوّة لحقيقة أنّ الجرح غير مؤلم على الإطلاق. وبدا تعبير على محيّاها يوحي بأنّها قد رأت ما وراء كلّ الادّعاء والشّجاعة المفتعلة، ومضت تصرّ بقوّة متزايدة على إبداء تعاطفها، بعد أن أقنعت نفسها بأنّها ينبغي أن تنتزع إقراراً مني.

أصرت على الذّهاب توّاً إلى أحد مخازن العقاقير للحصول على ضمادة جديدة؛ فقد كانت القديمة رماديّة لفرط الاتّساخ وخطرة،

وكلّما قوي إنكاري تعاظم إدراكها لقدراتي في مجال إنكار الذّات.
وأخيراً مضينا وغيّرنا الضّمادة بيد سيّدة كان من الجليّ أنّها ممرضة سابقة، وأبعدت مومكو ناظريها بفزع، وهكذا كان بإمكاني أن أخفي عنها حقيقة أنّ الجرح لم يكن إلاّ مجرّد خدش.

سألت بلهفة عن حال الجرح الآن.

ـ تبدو العظمة بارزة.

ـ لا! ما أفظع هذا!

قلت، متجهّماً:

ـ ما من حاجة تدعوك إلى التخوّف.

رُوِّعتْ إزاء تلميح عابر إلى أنّ الأصبع قد يتعيّن بتره، وأظهر الفزع البالغ بجلاء شديد أنانيتها الحسّيّة، ولكنّه لم يجعلني أشعر بالاستياء.

تحدّثنا خلال سيرنا. وكالمعتاد، وقع العبء الرّئيسي في الحوار على كاهلها. كانت سعيدة بدفء دارها وتألّقها وملاءمتها. وقد ضايقني أنّها لم تشعر بأدنى شكّ في والديها.

ـ أتصوّر أنّ أمّك قد أمضت ليالي هادئة مع رجل آخر أو رجلين، فقد عاشت عمراً مديداً.

ـ لا، بالتأكيد.

ـ وأتصوّر أنّ لأبيك امرأة جميلة، في مكان بعيد.

ـ لا. لا. بالتأكيد، لا.

ـ ما هو برهانك؟

ـ إنّك فظيع. لم يقل لي أحد قبلك مثل هذه الأمور الفظيعة.

كنّا على وشك التّشاجر، ولكني لا أحبّ المشاجرات، فاقتضى الأمر صمتاً متجهّماً.

مضينا في الممشى الجانبي الواقع دون مسبح كوراكوين. وكان كالمعتاد يعجّ بالسّاعين إلى مسرّة لا تكلّف الكثير. وكانت قلّة من الشبّان من الممكن وصفها بأنّها متأنّقة الثّياب. كانوا يرتدون القمصان الجاهزة والصّدريات الصّوفية المنسوجة آلياً وتنتمي إلى مجموعة الملابس الرّائجة ذات الطّابع الرّيفي. أقعى صبي، فجأة، وسط الشّارع وشرع في التقاط أغطية زجاجات الجعة، فأوسعته أمّه لوماً.

ـ أينبغي أن تكون كريهاً إلى هذا الحدّ؟
قالتها مومكو، وقد بدت موشكة على البكاء.

لم أكن كريهاً، بل كان من الطّيبة من جانبي أن أحتمل الاعتداد المبالغ فيه بالنفس. وإنّي لأعتقد، في بعض الأحيان، أنّني حيوان أخلاقي على نحو مخيف.

كنا قد مضينا حيثما ذهبت بنا أقدامنا، ووقفنا عند بوابة حديقة كوراكوين التّابعة لعائلة ميتو توكوجاوا «الرّجل المهذّب يقلق نفسه نيابة عن العالم، وعندئذٍ فحسب يحصل على بهجته» ـ من هنا جاء اسم كوراكوين الّذي يعني «حديقة البهجة اللاّحقة». وعلى الرّغم من أنّ الحديقة قريبة، إلاّ أنّي لم أزرها من قبل. أوضحت لنا اللاّفتة أنّ الحديق تغلق في الرّابعة والنّصف، وأنّ بطاقات الدّخول لا تباع بعد السّاعة الرّابعة. وكانت السّاعة الرّابعة إلاّ عشر دقائق، فاستحثت مومكو على الدّخول.

كانت الشّمس أمامنا مباشرة، ونحن نلج البوابة، ومضت حشرات أوائل تشرين الأوّل (أكتوبر) تصدر أصواتها.

تجاوزنا جمعاً ربّما ضمّ عشرين شخصاً، كانوا في طريقهم للخروج. وبخلاف ذلك كانت الممرّات خاوية، وأرادت موموكو الإمساك بيدي، لكنّي أريتها الضمادة.

لماذا كنّا بمشاعر متضاربة نتنزّه في وقت متأخّر من الأصيل كعاشقين ماضيين عبر ممرّ الحديقة العتيقة الّذي لفّه الهدوء؟ كانت لدي، بالطّبع، في فؤادي، صورة لتعاستنا. مشهد قوامه الجمال يهدّد الفؤاد ويمنحه الحمّى ونوبات البرد. ولو أنّها كانت على قدر كافٍ من الحساسيّة لأحببت الاستماع إلى حديثها المشتّت، كأنّما في هذيان الحمّى، لأحببت رؤية شفتيها الجافّتين من الرّعب النّابع من لقاءٍ ما لا سبيل إلى سبر غوره.

ساعياً وراء العزلة التّامة سرت متجاوزاً «شلاّل اليقظة». كان جافّاً، والمسبح معتماً، وبدت الشّبكة على سطحه وكأنّها كتلة من خيوط، وقد أحدثتها خطى الخائضين في الماء. جلسنا على صخرة، ورحنا نحدّق في البحيرة.

استطعت إدراك أنّها وجدت صمتي، أخيراً، مترعاً بالتهديد. وكنت واثقاً من أنّها لم تعرف مصدره. لقد فرضتُ، على صعيد تجريبي، انفعالاً، وفتنني أن أرى هذا الانفعال يغرز اللاّأدرية لدى شخص آخر. إنّ بمقدورنا، دونما نفعال، أن نرتبط معاً بما لا حصر له من الطّرق.

كان سطح البحيرة ـ بالأحرى المستنقع ـ محتجباً تحت أوراق

الأشجار وأغصانها، ولكنه التقط هنا وهناك أشعّة الشّمس الرّاحلة غرباً. أطلق الضّوء غير الملائم تراكم أوراق الشّجر على القاع الضّحل، مثلما يفعل حلم كريه.

- انظري إليه! لو أنّنا ألقينا ضوءاً على قلبينا لظهرا ضحلين وقذرين على هذا النّحو.

- ليس قلبي كذلك، فهو عميق ونظيف، وأودّ أن أريه لك.

- كيف يمكنك أن تقولي إنّك استثناء؟ قدّمي لي الدّليل على ذلك!

وإذ كنت أنا نفسي استثناء، فقد ضقت بزعم شخص آخر أنّه استثناء. ولم أفهم بأيّة حال كيف يمكن للعادية والابتذال الزّعم بأنّهما استثناء.

- إنّني أعلم ذلك فحسب، ذلك كلّ ما في الأمر.

كان بمقدوري أن أستشعر على نحو كافٍ الجحيم الّتي تردّت فيها، فلم تكن قد شعرت من قبل مرّة واحدة بالحاجة إلى تأكيد ذاتها. كانت غارقة في قداسة تتقاطر حزناً، وقد قامت بحلّ كلّ شيء من الحلى الصّبيانيّة التّافهة إلى الحبّ ذاته في هذا السّائل الغامض. كانت منغمسة حتّى عنقها في حوض حمّام ذاتها. وكان وضعاً خطراً، ولكنّها لم تكن على استعداد لطلب المساعدة، ورفضت حقاً يد العون. وكان من الضّروري لجَرْحها أن يتمّ جرّها إلى خارج هذا الحوض، وإلاّ فإنّ النّصل لن يصل إليها، إذ سيردّه ذلك السّائل.

كانت هناك زيزان خريف في الأجمات الّتي لفّها المساء، وتناهى هدير قطار الأنفاق عبر صيحات الطّيور. تدلّت وريقة صفراء من نسيج عنكبوت على غصن امتدّ بعيداً فوق المستنقع ملتقطة نوراً

قدسيّاً في كلّ مرّة تدور فيها. بدت كما لو أنّ باباً دوّاراً صغيراً يطفو في علّيين.

رحنا نحدّق فيها صامتيْن. كنت أتساءل أي عالم سيتفتّح فيما وراء الذّهب المعتم في كلّ مرّة يدور فيها. ربّما منحني، فيما هو يدور في الرّيح المشغولة بأمر نفسها، لمحةً عجلى من زحام في شارع منمنم فيما وراءه، متألّقاً عبر مدينة صغيرة في الهواء.

كانت الصّخرة باردة، وتعيّن علينا أن نسرع؛ فلم يبق إلاّ نصف ساعة على موعد الإغلاق.

أثارت الجولة ضيقاً كالّذي تُحْدِثه قطعة جلد مدلاّة من أظفر. اشتبك جمال الحديقة الهادي مع قلق الغروب. كانت طيور الماء في حالة اهتياج على سطح البحيرة، وبدا اللّون الأحمر الوردي لبرسيم الشّجر إلى جوار السّوسنات الذّاوية ناصلاً.

شكّلت ساعة الإغلاق ذريعتنا للإسراع، ولكنّها لم تكن سببنا الوحيد؛ فقد ساورتنا الخشية من المزاج النّفسي المرفرف على الحديقة الخريفيّة وقد غاص في قلبينا، وأردنا من سرعة خطانا أن نرفع أصواتاً بداخلنا لتغدو أكثر حدّة، شأن أسطوانة تدار بأسرع ممّا ينبغي.

وقفنا على جسر يمتدّ عبر الممرّ الدّائري. لم يكن هناك أحد غيرنا على مدى البصر. وامتدّ ظلاّنا فوق أسماك الشبّوط المنطلقة في حركتها مع ظلّ الجسر. أدرنا ظهرينا إلى البحيرة استياءً من لافتة العقار المسجّل الهائلة المنتصبة فيما وراءها. كنّا نواجه رابية دائريّة اصطناعيّة صغيرة تحفّ بها أشجار خيزران قزميّة، والشّبكة الّتي

نشرتها الشّمس الغاربة على الأجمات فيما وراءها. أحسست وكأنّني كنت السّمكة الأخيرة الّتي تقاوم الضّوء المطبق، وترفض الوقوع في الشّبكة.

ربّما مضيت أحلم بعالم آخر؛ فقد أحسست كأنّ لحظة يضمّ الموت في رحابها قد احتكّت بنا معاً، ماضية في طريقها، نحن طالِبَي المدرسة التجهيزيّة اللّذين يرتديان صدريتين شاحبتين، ويقفان على جسر. عبر فؤادي الزّخمُ الجنسيّ لانتحار العشّاق[1]. لست بالّذي يصرخ طالباً النّجدة، ولكنّي حدّثت نفسي بأنّه إذا جاءت فإنّها لن تجيء إلاّ مع نهاية الوعي. لسوف تكون هناك نشوة في تحلّل الوعي هناك في نور المغيب.

كانت البحيرة الصّغيرة، الواقعة إلى الغرب، تختنق باللّوتس.

شأن قناديل البحر في نسيم المساء كانت أوراق اللّوتس تأخذ بخناق الماء، ودفنت الأوراق الخضراء الشّبيهةُ بالجلد والمكسوّةُ بالذّرور الواديَ الواقع أسفل الرّابية. وقلّلت من حدّة الضّوء إلى حدّ كبير، إذ استقطبت ضوء أوراق أخرى، والظلّ الرّقيق لغصن شجرة قيقب، وراحت تتأرجح على نحو يوحي بغياب اليقين متنافسة فيما

(١) الجيساتو، أو الانتحار، ظاهرة ملحوظة في المجتمع الياباني، إلى حدّ أنّ معدّلاته تفوق مثيلاتها في المجتمع الأميركي، وهو في اليابان يتّخذ أشكالاً عديدة، منها الانتحار العائلي أو «أوياكو ـ سنجو». وأمّا انتحار العاشقين المشار إليه في المتن فليس بالأمر النّادر الحدوث في اليابان، وبخاصّة حينما ينتمي أحد العاشقين إلى طائفة البوراكومين المنبوذة في اليابان، وقد تحوّل إلى الموضوع الأساسي الّذي تُقدَّم عنه روايات وقصص ومسرحيات وأفلام لا حصر لها في عالم الإبداع الياباني. (هـ.م.)

بينها على السّنى المسائي. وبدا كما لو كان بمقدوري سماعها في جوقة خافتة الصّوت.

أدركت مدى تعقُّد حركات أوراق اللوتس، فربّما أتت الريح من اتّجاهٍ ما، ولكنّها ما كانت تنحني مُذْعِنةً في الاتّجاه الآخر. وبدت بقعة وكأنّها تحفل بالحركة بلا انتهاء بينما ظلّت أخرى ساكنة بعناد. كشفت بعض الأوراق عن باطنها، ولكنّ الأخريات لم يقلّدنها. انحنت الأوراق ببطء وعلى نحو مؤلم إلى اليمين وإلى اليسار.

أحدثت الرّياح الّتي احتكّت بالأسطح والرّياح الّتي عبثت على امتداد السّوق فوضى هائلة. وبدأتُ أجد نسيم المساء بارداً.

كان معظم الأوراق غضّاً في المنتصف، ومتآكلاً بفعلِ بقع الصّدأ عند الحوافّ. لم تمطر السّماء طوال يومين، وكانت هناك لطخ من ماء بنّي، عند المراكز المقعَّرة. أو أوراق شجر قيقب.

كانت الشّمس ماتزال على تألّقها، ولكنّ الظّلمة أقبلت ضاغطة من مكان ما، وتبادلنا عبارات موجزة. وعلى الرّغم من أنّنا كنا متقاربيْن فقد بدا الأمر كما لو كنا نهتف مُناديْين أحدنا الآخر من بعيد، في الجحيم.

ـ ماذا عساه يكون ذاك؟

قالتها مومكو، كما لو كان الخوف قد استبدّ بها، وأشارت إلى كومة عند سفح الرّابية، كتلة مشتبكة من خيوط باهرة الحمرة.

كانت كومة من السّوسنات العنكبوتية المتألّقة بلون أحمر قويّ.

قال المشرف العجوز.

ـ حان وقت الإغلاق، أسرعا، من فضلكما!

جلب لي الأصيل الّذي أمضيناه في كوراكوين قراراً.

كان قراراً تافهاً. إذا كنت أريد جرح موموكو جرحاً روحياً لا مادياً، فإنّ هناك حاجة ملحّة لامرأة أخرى.

شكَّل جعل موموكو شيئاً محرَّماً مسؤولية وتناقضاً منطقياً في الوقت نفسه. وإذا كان اهتمامي الجسدي بها هو النّبع الخفيّ لاهتمامي العقلاني، فإنّ كرامتي لم يعد هناك ما تقف عليه. لابدّ لي أن أجرحها بالصّولجان المتألّق لـ «الحبّ المنطلق حرّاً».

لم يبدُ الحصول على امرأة أخرى شيئاً صعباً. مضيت إلى قاعة للرقص في طريق عودتي إلى البيت من المدرسة. كان كلّ ما يتعيّن عليَّ القيام به هو الرّقص على نحو ما تعلمت في دُور أصدقائي، دون أن تكون هناك أهمية للرقص ببراعة أو من دونها. كان لي كثير من الأصدقاء الّذين يحظون بعادات سلوكيّة صحيّة، فكلّ يوم بعد الانصراف من المدرسة كانوا يقضون ساعة أو نحو ذلك وحدهم، في مرقص قبل أن يعكفوا بعد العشاء على الدّراسة استعداداً لامتحانات الالتحاق بالجامعة. ذهبت مع أحدهم، وعكفت على شرب الكوكالولا بعد انقضاء السّاعة، وحادثتني فتاة ريفيّة المظهر تضع موادّ تجميل ثقيلة، وراقصتها. غير أنّها لم تكن ما أنشده.

كنت قد سمعت من صديقي أنّ هناك «ملتهمات للعفة» في مثل هذه الأماكن. وقد يتصوّر المرء نساء موغلات في العمر، ولكنّ الأمر ليس كذلك على الدّوام، فالنّساء قد يهتممن بالتّعليم، حتّى وهنّ شابات، وعدد مدهش منهن فاتن المظهر. وتُملي كبرياؤهن عليهن رفض الخضوع لفنّان جنسي، وهنّ يفضّلن أن يصبحن معلّمات، وأن يتركن انطباعاً لا يزول في القلوب الشّابّة، والاهتمام بالنّقاء الذّكوري الفتي يُستمدّ من متعة الإيقاع في الغواية، ورغم

ذلك، ولأنّ النّساء أنفسهن ليس لديهن شعور بالذّنب، فإنّ اللذّة ينبغي أن تُستمدّ من ترك الرّجل مثقلاً بالشّعور بالذّنب الّذي تمّت تغذيته في موضع آخر. وبعضهم سعيدات ومتألّقات، والبعض الآخر يملن إلى الاكتئاب، وليس ثمّة معيار ثابت، ولكنّهن جميعاً مثل الدّجاجات، يرقدن على بيض الخطيئة، وهنّ أقلّ اهتماماً بفقس البيض منهن بنقر رؤوس الدّيكة الفتيّة.

خلال هذه الأمسية تعرفت بإحداهنّ، فتاة أنيقة المظهر في الخامسة والعشرين أو السّادسة والعشرين من العمر. قالت إنّه يتعيّن عليَّ أن أدعوها ناجيسا، ولم تصرّح لي باسمها الحقيقي.

كانت عيناها نجلاوين على نحو يوشك ألاّ يكون مريحاً، ولها شفتان ناحلتان خبيثتان. غير أنّه في محيّاها زخم دافئ كالّذي تضمّه برتقالة طازجة، وكان صدرها شاهق البياض، ولها ساقان بديعتان.

ـ حقّاً!

كان هذا هو تعبيرها الأثير، ولم تكن لتتردّد على الإطلاق في طرح أسئلة بنفسها، ولكنّها كانت ترحّب بكلّ سؤال بدورها بكلمة «حقّاً!».

ولمّا كنت قد أبلغت الأب بأني سأعود إلى الدّار في التّاسعة، فلم يكن هناك وقت إلاّ لتناول طعام العشاء. رسمت خريطة، وأعطتني رقم هاتف، وقالت إنّه ليس هناك ما يدعو للخجل مادامت تقيم وحدها.

أريد أن أكون دقيقاً بقدر الإمكان، بشأن ما حدث، عندما مضيت لزيارتها، بعد عدّة أيّام. ولأنّ الحدث ذاته حافل بالمبالغة والتّصوّرات

وخيبات الأمل الحسيّة، والوقائع مشوهة للغاية، فإنّ المرء يجافي الحقيقة، في غمار كلّ جهد يبذل من أجل أن يكون هادئاً وموضوعياً، وإذا سعى إلى تصوير الافتتان فإنّه يسقط في هوّة التصوّر الخيالي. ينبغي أن أشرع في معالجة الموضوعات الثّلاثة جميعها، اللّذّة الجنسيّة، والفضول الرّاعش الّذي تثيره تجربة جديدة، والافتقار الطّاغي إلى التّناسق الّذي يمكن أن يكون حسّياً أو عقلانياً. وينبغي أن أفصل ما بين هذه الأمور بوضوح، دون أن أسمح لأي منها بأن يطبق على غيره، ويتعيّن أن أنقلها سالمة من غير أن يلحق بها ضرر. ولن تكون هذه المهمّة يسيرة.

لاح، في البداية، أنّها قد بالغت في تقدير خجلي، وراحت تؤكّد لنفسها مجدّداً مرّات عديدة أنّ هذه التّجربة جديدة بالنّسبة إليّ. ولم أرغب في الظّهور تحت أضواء زائفة، كما لم أرد من ناحية أخرى أن أكون واحداً من أولئك الشّبان الّذين يسعون لاجتذاب نوع معين من النّاس بافتقارهم إلى الخبرة، وذلك ليس بالشيء الجذّاب للغاية، في نهاية المطاف. وهكذا اعتصمت بصلف رقيق، لم يكن إلاّ الخجل، وقد غطّى نفسه في إهاب من الغرور.

بدت المرأة متمزقة بين الرّغبة في تهدئتي والرّغبة في إثارتي، ولكنها لم تكن تفكّر إلاّ في نفسها. وكانت تعلم من التّجربة أنّ التّعليمات المكشوفة يمكن أن تجعل الشّاب يتعثّر. وقد كان هذا هو السّبب في تحفّظها العذب. كان الأمر راجعاً إلى العطر الّذي مسّت به جسدها بعناية، ولم أعد أرى الكثير من الاتّساع في عينيها.

لمّا كان من الواضح تماماً أنّها تستخدم لهفتي وفضولي لإثارة نفسها، فقد تردّدت في جعلها تنظر إليّ. لم يكن الأمر راجعاً إلى شعوري بالخجل على نحو خاص، ولكنّي قمت بإيماءة، فيما رحت

أغمض عينيها، وكأنّ ذلك مطلب من مطالب الحياء. وأحسب أنّ المرأة إذ تتدحرج على هذا النّحو في الظّلام فإنّها لا تحسّ إلاّ بالعجلة الّتي تدهسها.

غنّي عن البيان أنّ مشاعر لذّتي قد انتهت بمجرّد بدئها. وأحسست بارتياح هائل. ولم أشعر بأي شيء يشبه اللّذات الحقيقيّة إلاّ مع المحاولة الثّالثة.

وهكذا أدركت: إنّ للذّة عنصراً ذهنياً منذ البداية.

ذلك يعني: إنّ مسافة معيّنة تمّ إقرارها، لعبة لذّة ووعي تمّ إرساؤها، تقدير وحساب جرى وضعهما، وهكذا فإنّه إلى أن يستطيع المرء النّظر بوضوح من الخارج ومن علٍ إلى لذّته، مثلما تنظر المرأة إلى نهديها، فليست هناك لذّة. ومن المؤكّد أنّ لذّتي اتّخذت شكلاً شائكاً للغاية.

لكنه لم يكن بالأمر المستساغ بالنّسبة إلى كبريائي أن أعلم أنّ شكل شيء تمّ الحصول عليه بعد ممارسة طويلة يكمن مختفياً في الإشباع الأوّليّ، القصير، الّذي لا يُعتدّ به. لم يكن ذلك الشيء الأوّليّ عينه على الإطلاق جوهرَ النّزوة، وإنّما كان جوهرَ المفهوم الّذي استغرق تكوّنه وقتاً طويلاً. وماذا عن العمليات الذّهنيّة للذّة بعد ذلك؟ هل تجعل الانهيار البطيء (أو العميق) لمفهوم ما سدّاً صغيراً وتستخدم الطّاقة الكهربية لإغناء النّزوة شيئاً فشيئاً؟ إذا كان الأمر كذلك فإنّ الطّريق الذّهني إلى البهيميّة طويل للغاية.

قالت المرأة، فيما بعد:

ـ أنت عظيم، ولديك قدرات حقيقيّة.

ترى كم من السّفن ودّعتْها، لدى مغادرتها المرفأ، بتلك الباقة ذاتها؟

إنّني أتدفّق كالتّيهور.

ومع ذلك فليس لي شأن على الإطلاق بالانهيار ودمار الذّات. إنّ هذا التّيهور الّذي يدمّر في عناد العائلة والدّار، ويوقع الجرح، ويجلب الصّرخات من جحيم، هو شيء جعلته السّماء الشّتائيّة يتساقط عليّ برفق، ولا علاقة له بطبيعتي الأساسيّة. ولكن في لحظة التّيهور فإنّ رقّة الثّلج وصلابة الصّخرة تتبادلان موضعيهما، ووسيط الكارثة هو الثّلج لا الذّات، إنّه الرّقة، لا الصّلابة.

على امتداد وقت طويل للغاية، بل ومنذ بداية التّاريخ الطّبيعي حقّاً، كانت النّوعية الّتي ينتمي إليها قلبي، ذلك القلب ذو الصّلابة اللّامسؤولة، جاهزة وعلى أهبّة الاستعداد، وفي أكثر الحالات شيوعاً في صورة حجر، وفي أنقى الأشكال كافّة في صورة ماسة.

ولكن شمس الشّتاء البالغة التألّق تتوغل، حتّى إلى شفافيّة قلبي. وفي مثل هذه الأوقات أرى نفسي. بجناحين لا يعترضهما شيء، وأرى أيضاً أنّني لن أصنع شيئاً بحياتي.

قد أحقّق الحريّة، ولكنّها حرية شبيهة بالموت، ولن يصل إليّ في هذا العالم أي من الأشياء الّتي حلمت بها.

شأن المشهد الشّتائي البادي من محطّة الإشارة على خليج سوجورو، عندما كان بمقدوري أن أرى حتّى انعكاسات أضواء السّيارات، من شبه جزيرة إيزو، فإنّي أستطيع بهاتين العينين رؤية كلّ تفاصيل المستقبل.

سيكون لي أصدقاء، دونما شكّ، ولسوف يخونني الماهرون منهم، وأمّا الأغبياء فهم وحدهم الّذين سيبقون. من الغريب أن تأتي الخيانة إلى شخص مثلي. أحسب أنّ أي شخص يواجه بصفائي،

يشعر بالدّافع إلى الخيانة. لن يكون هناك انتصار للخيانة أعظم من خيانة مثل هذا الصّفاء. ربّما كان كلّ النّاس الّذين لم أحبّهم على تمام اليقين من أنّهم موضع حبّ محتدم، وربّما التزم الّذين أحبّهم بالصّمت الجميل.

سيرغب العالم بأسره في موتي، وسيسعى كلّ فرد، في غمار رغبته في تجاوز الآخرين، إلى منع هذا الموت.

سيضرب نقائي فيما وراء الأفق، نحو الأقنوم الخفيّ. وربّما في نهاية ألم لا يحتمل سأسعى إلى أن أكون إلّهاً. الألم! لسوف أعرفه كلّه، ألم الصّمت المطلق، ألم عالم لا شيء على الإطلاق، لسوف أجثم مرتجفاً في أحد الأركان مثل كلب مريض. ولسوف يُنشد السّعداء الأناشيد من حولي.

ليس هناك دواء له. ليس هناك مستشفى للاستشفاء منه. لسوف يكتب بحروف ذهبيّة صغيرة، في موضع ما من تاريخ الجنس البشري: أنّني كنت شريراً.

إنّني أقسم: بأنّني عندما أبلغ العشرين من العمر فإنّي سأُلقي الأب في الجحيم. ولابدّ لي من البدء في إعداد الخطط لذلك.

ما كان يمكن أن يشكّل صعوبة على الإطلاق أن أمضي في نزهة مع ناجيسا، وقد تشابكت أيدينا، في مكان وعدت بلقاء موموكو فيه، ولكنّي لم أرغب في مثل هذا الحلّ المتعجّل، كما لم أرغب في رؤية ناجيسا وقد ثملت بالفوز، على نحو سخيف.

كانت قد أعطتني سلسلة فضّيّة صغيرة ومدالية نقش عليها الحرف الأوّل من اسمها «ن». ولم يكن من المناسب وضعها في المدرسة أو

الدّار، ولكني كنت أتجمّل بها لدى لقائي موموكو. وقد عرفت من واقعة الضّمادة أنّه ليس من السّهل لفت نظرها إلى شيء. وعلى الرّغم من البرد فقد ارتديت قميصاً مفتوحاً وصدارة ذات عنق يشبه رقم ٧ وتأكّدت من أنّ رباط حذائي لم يحكم عقده. ومن المؤكّد أنّ المداليّة ستتدلى وتلتمع في الشّمس، فيما أنا أعيد عقده.

أُصبت بخيبة أمل كبيرة عندما لم تلحظ موموكو المداليّة، على الرّغم من أنّني عقدت رباط حذائي ثلاث مرّات. وقد جاء عدم الانتباه هذا من الثّقة الكاملة بكمالها الذّاتي. ولم أستطع من جانبي القيام باستعراض أوضح ممّا ينبغي.

اصطحبتها، يائساً، للسباحة في حمّام السّباحة الدّافئ بأحد المراكز الرّياضيّة الكبرى في ناكونو. وقد ابتهجت إزاء هذا التّذكار الصّغير بأيّام صيفنا المرحة الّتي أمضيناها في شيمودا.

ـ إنّك رجل حقّاً، ألست كذلك؟

ـ أعتقد هذا.

كان هذا الحوار التّقليدي بين رجل وامرأة يجري هنا وهناك بجوار المسبح، حيث كان مشهد من مشاهد هارونوبو تلك، الّتي تجمع نساء ورجالاً لا سبيل إلى تمييز بعضهم من البعض الآخر، يؤدّي من خلال العُري. كان هناك رجال أطالوا شعرهم، حتّى استحال تمييزهم عن النّساء. وقد كانت لديّ الثّقة لأحلّق عالياً، متجاوزاً الجنس الآخر. فليست لديَّ رغبة في أن أكون امرأة، ذلك أنّ تركيب المرأة ذاته هو عدو الوضوح.

قمت بالسّباحة لبعض الوقت، وكنت جالساً على حافة المسبح،

وموموكو مائلة نحوي. ولم تكن المدالية على بُعد يتجاوز ثلاث بوصات أو أربعاً منها. .

أخيراً، لفتت نظرها.

التقطتها بيدها.

أخيراً، طرحت السّؤال

ـ ما الّذي يرمز إليه حرف النّون؟

ـ حاولي التّخمين!

ـ الحرفان الأوّلان من اسمك هما ت.هـ. ترى ماذا عساها تكون هذه النّون؟

ـ فكّري في الأمر لحظة!

ـ أعرف. النّون هي الحرف الأوّل من «نيبون».

شعرت بالخذلان التّام، وبدأت بوضع نفسي في موضع غير مُؤتٍ، بطرح أسئلة بالمقابل.

ـ لقد كانت هدية. ممّن تحسبين أنّني تلقّيتها؟

ـ نون. لديّ أقارب يحملون لقبي نودا وناكامورا.

ـ ولماذا أتلقّى هدايا من أقاربك؟

ـ أعرف. إنّها رمز لإحدى الجهات الأصليّة. وقد خطر لي أنّ التّصميم الزّخرفي حول الحافة يشبه البوصلة. لقد حصلت عليها من شركة ملاحة أو شيء من هذا القبيل. لدى تدشين سفينة. إنّه الحرف الأوّل من اسم سفينة لصيد الحيتان. صحيح؟ هل أصبت؟ سفينة لصيد الحيتان، وقد أرسلت الميداليّة إلى محطة إشاراتك. لاشكّ في ذلك.

ليس بمقدوري التّيقن ممّا إذا كانت موموكو قد اعتقدت ذلك، أم أنّها كانت تحاول تهوين الأمر على نفسها، أم أنّها سعت إلى إخفاء شعورها بعدم الارتياح في مسرحية تدّعي فيها البراءة. وعلى أيّة حال لم يعد لديّ دافع يحدوني إلى إبلاغها بأنّ الصّواب قد جانبها.

وهكذا تحوّلت عملياتي إلى ناجيسا. كانت من النّوع الرّابط الجأش، وبمقدوري أن أخاطب فيها فضولها اللّطيف، غير المؤذي. قلت لها إنّها إذا كان لديها متّسع من الوقت فقد تحبّ مشاهدة خطيبتي الشّابّة عن بُعد. وقد قبلت في الحال، وسألتني مراراً وتكراراً عمّا إذا كنت قد ضاجعت موموكو، وبدا أنّها مهتمة بالتطبيق العملي لدروسها وقد قام به تلميذها. أبلغتها بالموعد الّذي سألتقي فيه بموموكو في مقهى رينوار، وجعلتها تقسم على التصرّف كما لو كانت غريبة لا معرفة لها بي. وكنت أعلم أنّها ليست بالّتي تفي بوعدها.

أدركت أنّه بعد وقت قصير من وصولنا وصلت ناجيسا، واتّخذت مقعداً وراءنا، على الجانب الآخر من النّافورة. بدا أنّها تنظر إلينا بين الفينة والأخرى في صمت وتكاسل وكأنّها قطّة. ولمّا كانت موموكو هي الطّرف البريء، فقد أصبحت وناجيسا، فجأة، أكثر قرباً، وبدا كما لو أنّ معظم عباراتي موجّه إليها، واتّخذ التّعبير السّخيف «صلة عضويّة» معناه.

كنت على يقين من أنّ بمقدورها سماعنا، من خلال صوت النّافورة المنساب. وفي غمار الوعي بأنّ هناك من يسترق السّمع إلى ما أقول، اكتسبت كلماتي مظهراً معيّناً قوامه الإخلاص. وابتهجت موموكو بأنّني في حالة معنوية رائعة. وكان بمقدوري أن أدرك أنّها

تهنّئ نفسها على أنّنا ننطلق على نحو بديع، على الرّغم من أنّها لم تدرِ السّبب في ذلك.

سئمت الحوار فالتقطت المدالية من ياقتي، ورحت أطبق أسناني عليها. كانت مومكو أبعد ما تكون عن الرّغبة في لومي، فراحت تضحك مبتهجة. أحسست بطعم الفضّة، وبدت في مواجهة لساني كما لو كانت قرص دواء غير قابل للذوبان. احتكت السّلسلة بشفتي وذقني، ومنحتني شعوراً مبهجاً على الرّغم من ذلك. أحسست كما لو كنت كلباً ضَجِراً.

لمحت بطرف عيني ناجيسا وهي تنهض واقفة، وعرفت من عينيْ مومكو اللّتين اتّسعتا دهشة، أنّها كانت تقف وراءنا.

فجأة، راحت يد مطليّة الأظافر باللّون الأحمر تجذب المدالية.

ـ ليس مسموحاً لك بأكل مداليتي.

نهضت واقفاً، وقمت بتعريفهما إحداهما بالأخرى.

قالت ناجيسا، وهي تنطلق مبتعدة:

ـ آسفة لمقاطعتكما، أراكما فيما بعد.

شحب لون مومكو، ومضت ترتجف.

همى الثّلج من السّماء. أمضيت في الدّار أصيل سبت مضّجر. هناك نافذة، عند قاعدة الدّرج الغربي. ومن هذه النّافذة وحدها يمكنك أن تطلّ على نحو جيّد على الشّارع. وضعت ذقني على قاعدة النّافذة، وانحنيت مطلاً على الثّلج. كان شارعاً هادئاً، حتّى في الأيّام العادية، وأمّا اليوم فإنّ الثّلج تراكم على آثار عجلات السّيّارات.

كان ثمّة ضوء كابٍ ينعكس عن الثّلج. وعلى الرّغم من أنّ السّماء كانت معتمة فإنّ ضوء الثّلج أشار إلى توقيت غريب، خاصّ به، مختلف عن توقيت النّهار. وخلف الدّار الواقعة عبر الطّريق، استقرّ في تجاويف بين كتل سياج اسمنتي.

أقبل من اليمين رجل عجوز لا يحمل مظلّة ويرتدي معطفاً بنّياً ويعتمر قلنسوة مستديرة، لينة، ذات لون أسود. كان هناك انتفاخ ناتئ، قرب أسفل معطفه، وكان يحتضنه، وبدا أنّ لديه لفافة من نوع ما أراد الحيلولة دون وصول الثّلج إليها. كان بمقدوري أن أرى وجهاً كالحاً، منتفخاً، تحت القلنسوة، لا يتّفق بحال مع القوام البدين.

توقّف عند بوابتنا. كانت هناك بوّابة خفيضة بجانب البوّابة الرّئيسيّة. حدّثت نفسي بأنّه ليس إلاّ زائراً فقيراً، على نحو غير مألوف، جاء يتقدّم بطلب إلى أبي. غير أنّه تلفّت حوله، دون أن يكترث بنفض الثّلج عن معطفه الّذي غدا أشهب اللّون الآن، ولم يقم بحركة توحي بعزمه على القدوم.

اختفى الانتفاخ، وسقطت لفافة على الأرض وكأنّها وضع بيضة هائلة. حدّقت فيها. ولم أستطع، في البداية، تبيّن ما عساها أن تكون. التمع جسم كروي متعدّد الألوان وسط الثّلوج فأدركت أنّه ليس إلاّ قطعاً صغيرة من الفواكه والخُضَر في منديل بلاستيكي. وقد اتخم المنديل بقطع من تفاحة حمراء، وجزر برتقالي، وكرنب شاحب الخضرة. وإذا كان قد خرج لإلقائها بعيداً فلابدّ أنّه نباتي ملتزم، يقطن بمفرده. وقد أضفت القطع، بهذه الكميات، على الثّلج مظهراً غريباً وموحياً بالنضارة، وحتّى قطع الكرنب الأخضر بدا أنّها تتنفّس أنفاساً مختنقة.

وإذ استقرّت عيناي على الحزمة فقد تجاوزهما العجوز وهو ينطلق في مسيرته. خطا خطوات صغيرة عبر الجليد. شاهدته من الخلف. وحتّى مع الأخذ في الاعتبار بالكتفين المنحنيتين، فإنّ المعطف كان بلا شكل وغير طبيعي المظهر. كان مايزال منتفخاً، وإن لم يكن كذي قبل.

انطلق مبتعداً. وربّما لم يكن قد أدرك هو ذاته الأمر، ولكن على بعد خمسة أمتار أو ستّة من البوّابة سقط شيء من معطفه يشبه محبرة كبيرة.

كان طائراً نافقاً، وقد بدا أنّه غراب. أو ربّما كان ديكاً رومياً، بل إنّني ظننت أنّ بمقدوري سماع اصطفاق الجناحين وهو يرتطم بالثّلج، ولكنّ العجوز واصل السّير.

شكّل الطّائر لغزاً. كان على مسافة يعتدّ بها وتحول أشجار الحديقة دون إمعان النّظر فيه ويلفّه الثّلج بوشاح من غموض، وكان هناك حدّ لقدرتي على الرّؤية. فكّرت في البحث عن منظار أو الذّهاب لإلقاء نظرة، ولكنّ قصوراً ذاتياً جازماً أقعدني.

أي نوع من الطّيور كان. فيما رحت أمعن النّظر فيه، لوقت بالغ الامتداد على وجه التّقريب، بدا أنّه ليس طائراً، وإنّما شعر امرأة.

كانت عذابات موموكو قد بدأت، مثل نار من مُسْتَصْغَرِ الشّرر. إنّ الفتاة العادية تماماً والفيلسوف الكبير يشبه أحدهما الآخر: ذلك أنّه بالنّسبة إليهما كليهما فإنّ أقلّ التّوافه شأناً يمكن أن يصبح رؤية تكتسح العالم.

أصبحت، على نحو ما خططت، الطّرف الّذي يتلمّس رضا

الآخر. سعيت إلى تدليلها، وحذوت حذوها في قول أشدّ الأشياء فظاعة عن ناجيسا. انخرطت في البكاء وهي تحدّثني بأنّ عليّ وضع نهاية لتلك العلاقة. قلت إنّه ليس هناك شيء أحبّ إليّ من ذلك، ولكني بحاجة إلى مساعدتها. وببعض المبالغة قلت إنّني سأحتاج إلى عونها، إذا ما أريد لي أن أحقّق القطيعة مع تلك المرأة الشّيطانيّة.

وافقت على مساعدتي، ولكن بشرط واحد. فعليَّ إلقاء هذه القلادة بعيداً، ولابدّ أن تكون شاهداً على عمليّة إلقائها. ولمّا كانت القلادة لا تعني لي شيئاً فقد وافقت، ومضينا معاً إلى الجسر أمام محطّة سويدو باشي. انتزعتها من عنقي وسلّمتها إليها، وطلبت منها أن تلقيها بيدها بعيداً إلى ماء القناة الملوّث. ألقت بها من يدها، فاندفعت صانعة قوساً عالياً نحو ضياء شمس المساء الشّتائي. وارتطمت بالماء النفّاذ الرّائحة، الّذي كان زورق كبير يمضي فوق سطحه، في ذلك الوقت على وجه الدّقّة. عانقتني وقد غدا تنفّسها ثقيلاً وكأنّها اقترفت جريمة قتل لتوّها. وتطلّع المارّة إلينا في فضول.

حان وقت دروسي الخصوصيّة اللّيليّة، فتركتها، على وعد بلقاء في أصيل يوم السّبت.

جعلت مومكو تكتب إلى ناجيسا رسالة أمليتها عليها.

أتساءل كم مرّة استخدمت كلمة «حبّ» في أصيل يوم السّبت ذاك. قلت إنّني إذ كنت أحبّ مومكو وهي تحبّني فإنّ علينا معاً أن نخطّط لتجنّب الكارثة، علينا أن نكتب رسالة مليئة بالخداع.

التقينا في منتدى للعب البولنج قرب حدائق ميجي. وبعد عدّة

جولات، خرجنا متشابكي اليدين إلى رحاب الأصيل الشّتائي الدّافئ، ومضينا عبر ظلال أشجار الجنكة العارية من الأوراق إلى مقهى جديد يطلّ على جادّة أيوياما. وكنت قد أحضرت ورقة وطابع بريد ومغلّفاً.

مستخدماً المخدِّر، المتمثّل في معسول القول، رحت أهمس محدّثاً عن الحبّ ونحن نوغل في المسير، وبمرور الوقت حوّلتها إلى شخص لا يختلف عن كينوي المجنونة. لم تكن تتنفّس بارتياح إلاّ تحت تأثير أوضح المفاهيم خطأً، والقائل بأنّ حبنا لا يتغيّر.

كلاهما سواء في إنكارهما للواقع، كينوي باعتقادها أنّها جميلة، وموموكو باعتقادها أنّها موضع حبّ. غير أنّ موموكو كانت بحاجة إلى المساعدة بشأن وهمها، بينما لم تكن كينوي بحاجة إلى كلمة من خارج ذاتها. لو كان بمقدوري أن أرفع موموكو إلى المستوى ذاته فحسب! ولمّا كان في غمار هذه الرّغبة دافعٌ تعليميّ ـ الحبّ إذا شئت القول ـ فإنّ تذرّعاتي بالحبّ لم تكن دونما أساس كليّة. ولكن ألم يكن هناك تناقض منهاجي في جعل إنسانة مؤكِّدة للواقع مثل موموكو تصبح ناكرة له؟ لن يكون من السّهل جعلها، مثل كينوي، تحارب العالم بأسره.

ولكن بينما رحت أتلو التّعويذة السّحريّة «أحبّك» مراراً وتكراراً وبلا انتهاء، حدث تحوّل في فؤاد من يتلو التّعويذة. كان بمقدوري أن أشعر، على وجه التّقريب، بأنّني أحبّ، وأن ركناً من أركان فؤادي قد ثمل، في غمرة الطّيران الّذي يتعيّن عليه أن يطير مع مبتدئ!

كان مطلب مومو كو الآخر، والمناسب كليّة لفتاة عتيقة الطّراز بعض الشّيء، لا يتجاوز التّأكيد «الرّوحي» الخالص، وكان كلّ ما مسّت الحاجة إليه لتلبية هذا المطلب كلمة أو كلمتين. الكلمات، إذ تلقّي ظلاًّ واضحاً على الأرض في غمرة مرورها ـ أما عساها أن تكون ذاتي الجوهريّة؟ لقد وُلِدتُ لاستعمال الكلمات على هذا النّحو. وإذا كان الأمر كذلك (هذه التّعابير العاطفيّة تثير ضيقي إلى حدّ كبير، بالطّبع) فربّما كانت لغتي الأم الأساسيّة، الّتي أبقيتها محتجبة، هي في نهاية المطاف لغة الحبّ.

بينما المريض نفسه يجهل الحقيقة، تواصل عائلته إبلاغه بأنّه من المؤكّد أنّه سيستردّ عافيته. وهكذا رحتُ بأشدّ ألوان اللّهفة زخماً أهمس بالحبّ لمومو كو، هنالك في شبكة الظّلال المترامية من أشجار الشّتاء.

لدى جلوسنا باسترخاء في المقهى، حدّثتها بطبيعة ناجيسا، ووضعت الملامح العريضة لأساليب تحرّك قد تكون فعّالة، وبالطّبع أطلقت لنفسي العنان في تصوير ناجيسا.

لمّا كانت مومو كو خطيبتي وتحبّني فإنّ ناجيسا ليست بالمرأة الّتي تتأثربمناشدة تدعوها إلى التخلّي عني. فمثل هذه المناشدة لن تحظى منها إلاّ بالازدراء، وستدفعها إلى ركوب مركب أشدّ صعوبة. كانت امرأة قُدِّر لها أن تحارب كلمة «الحبّ» وسعت إلى إسقاطها بهجوم من الخلف. وقد عقدت العزم على أن تترك بصمتها على الفِتية الّذين سيصبحون ذات يوم أزواجاً وآباء صالحين، وهكذا تسخر من الظّلال عند الزّواج نفسه. ومع ذلك فإنّ لها عيوبها الّتي لا يملك المرء إلاّ أن يحبّها، فهي لا تتراجع في غمار مقتها للحبّ،

ولكنّها تكنّ تعاطفاً معيّناً غريباً مع المرأة الّتي تكافح لتشقّ طريقها، وقد سمعتها تصف كثيراً من النّساء اللاّتي يمثّلن هذه النّوعية، والحجّة الّتي يحتمل أكثر من غيرها أن تؤثّر فيها هي أنّها تقف لا في وجه الحبّ، وإنّما في وجه المال والأمان.

إذن ما الّذي ينبغي أن نفعله.

ـ أجعل نفسي فتاة لا تحبّك، ولكنّها تحتاجك من أجل مالك؟

ـ بالضّبط.

أثارت هذه الفكرة انفعال مومكو إلى حدّ كبير. وقالت، حالمة، إنّ الأمر ظريف إلى حدّ بعيد.

كان الانفعال الّذي حلّ محلّ كآبتها متألّقاً للغاية وصريحاً. وقد جعلني أحسّ بالغيظ.

واصلت حديثها:

ـ وبالطّبع، هناك ذرّة صدق في الأمر. وقد تكتّمه الأب والأم، ولم أقل شيئاً عنه قطّ، ولكننا لسنا أثرياء إلى حدّ كبير، فهناك مشكلة في المصرف، وقد تحمّل الأب المسؤوليّة عنها، ورهنت الأراضي جميعها. الأب إنسان طيّب للغاية. لقد كان ضحيّة.

استغرقها الجهد الّذي تبذله لتحويل نفسها إلى امرأة دنيئة، جاهلة (وهي على يقين من أنّها لن تستطيع أن تصبح كذلك قط) مثلما تستغرق فتاة صغيرة في دورها بمسرحية مدرسيّة. وهذه هي الرّسالة الّتي ألفتها، تحقيقاً لهذا الغرض، هنالك في المقهى.

العزيزة ناجيسا

لأنّني على وشك التقدّم إليك بطلب فإنّي أرجو أن تواصلي قراءة

هذه الرّسالة حتّى النّهاية. والحقيقة أنّني أريد منك التوقّف عن رؤية تورو.

سأحدّثك بالأسباب، بقدر ما أستطيع من أمانة. قد أبدو وتورو في مرحلة الخطبة غير النّهائية، ولكننا لا يحبّ أحدنا الآخر. وأنا أنظر إلينا باعتبارنا صديقين، ولكن مشاعري لا تمضي إلى أعمق من ذلك. وما أريده حقاً ليس إلاّ بحبوحة العيش والحرية، في غمرة الزّواج من زوج ذكي ليست له مشكلات عائليّة. وإنّني أتبع في هذا رغبات أبي، فلم يبقَ متّسع من العمر أمام والد تورو، وعندما يموت فإنّ تورو سيرث كلّ أملاكه. ولأبي مصالحه في الموضوع، فقد كانت هناك مصاعب في المصرف، لا نتحدّث عنها، ونحن نتعرّض للضغط إلى حدّ ما على الصّعيد المالي، ونحتاج إلى مساعدة والد تورو، ومساعدة تورو لدى وفاة والده. إنّني أحبّ أمّي وأبي، وإذا ما اتّجهت عواطف تورو اتّجاهاً آخر فإنّ ذلك سيعني نهاية خططي وآمالي، وهكذا، وتعبيراً عن الأمر بصراحة بالغة فإنّ لهذا الزّواج أهمّية بالغة لأسباب مالية. وقد وصلت إلى الاعتقاد بأنّه ما من شيء في هذه الدّنيا يفوق المال أهمّية، ولست أرى فيه شيئاً دنساً، وأحسب أنّ تعبيرات مثل «الحبّ» و«العواطف» إذ تنحّي المال جانباً فهي تعبيرات في غير موضعها. إنّ ما قد يكون بالنّسبة إليك عبث لحظة هو أمر ذو أهمّية قصوى لعائلتي بأسرها. إنّني لا أقول إنّ عليك التخلّي عن تورو لأنّني أحبّه، وإنّما أتحدّث كفتاة أكثر نضجاً وتعقّلاً ممّا تظنّين.

وإذا كان الأمر كذلك فإنّك تخطئين إذا حدّثت نفسك بأنّ الأمر سيكون على ما يرام بالنّسبة إليك إذا واصلت رؤية تورو سرّاً. فمن

المؤكّد أنّ السّرّ سيتسرّب، ولن يجدي جعل تورو يظنّ أنّني امرأة على استعداد لإغماض عينيَّ عن كلّ شيء في مقابل المال. ومن أجل المال على وجه الدّقة يتعيّن عليَّ أن أراقبه، وأن أحافظ على كبريائي.

ينبغي ألاّ تُطلعي تورر على هذه الرّسالة، فقد اقتضت كتابتها كلّ عزيمتي. وإذا كنت امرأة شريرة فأطلعيه عليها، واجعليها سلاحك لإبعاده عني، ولكن سيتعيّن عليك أن تعيشي باقي عمرك وأنت تعرفين أنّك لم تنتزعي من امرأة أخرى الحبّ، وإنّما عيشها ذاته. علينا أن نُنهي الأمر بتعقّل ورويّة لأنّ مشاعرنا معاً لا علاقة لها به. وإنّي لأشعر بأنّني قادرة تماماً على قتلك إذا أطلعته على هذه الرّسالة، وأشكّ في أنّه سيكون نوعاً عادياً من جرائم القتل.

المخلصة

مومو كو

قالت مومو كو وهي ماتزال على انفعالها:

ـ الخاتمة جيّدة.

ابتسمتُ.

ـ إذا رأيتُها فإنّ أيّ شيء يمكن أن يحدث.

مالت نحوي.

ـ لست قلقة.

سطّرت عنوانها على المغلّف، وألصقت عليه طابع البريد المضمون، وانطلقنا معاً لإرساله.

اليوم، مضيت إلى شقّة ناجيسا، ورأيت الرّسالة، ومرتعشاً من فرط الحنق انتزعتها منها، وانطلقت عَدْواً. في الدّار، وفي وقت متأخّر من تلك اللّيلة، مضيت إلى مكتب الأبّ، وبقلب محطّم أطلعته عليها.

ـ ٢٥ ـ

التحق تورو بالمدرسة التجهيزيّة في السّابعة عشرة من عمره، متأخّراً عامين عن معظم الفِتية، وسوف يلتحق بالجامعة عندما يبلغ العشرين، في عام ١٩٧٤، ويكون قد وصل إلى سنّ الرّشد. وخلال العام الثّالث في هذه المدرسة لم ينل أي إجازة من دراسته في غمرة استعداده لامتحانات الالتحاق بالجامعة، فحذّره هوندا من الإفراط في العمل.

ذات يوم خريفي، في العام الثّالث، جرَّ هوندا تورو جرّاً، رغم مقاومته، لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في رحاب الطّبيعة. ولم يكن تورو راغباً في الابتعاد عن الدّار، وهكذا حقّقا رغباته، وانطلقا بالسّيّارة إلى يوكوهاما لإلقاء نظرة على السّفن، وكانت تلك هي المرّة الأولى الّتي يقوم فيها بذلك منذ زمن طويل. وكانت الخطّة تقضي بأن يتناولا العشاء في الحي الصّيني بيوكوهاما.

من سوء الحظ أنّ سماء أوائل تشرين الأوّل (أكتوبر) كانت مكفهرّة. بدت السّماء رحبة وسامقة فوق يوكوهاما. ترجّلا عند البرج الجنوبي. ولاحت السّماء مدى خشناً من السّحب الإسقمريّة، دون أن تبدو إلاّ هنا وهناك بقعة من البياض، ومثلما النّغمة الّتي تبقى بعد قرع الجرس، كانت هناك لمسة من الزّرقة فيما وراء البرج المركزي، بدت على وشك الاختفاء.

ـ لو كانت لدينا سيّارة خاصّة لكان بمقدوري أن أنطلق بك مستقلّيْن إيّاها، ووجود سائق خاصّ هو إسراف لا طائل وراءه.
ـ ليس بعد. أعدك بأن أشتري لك سيّارة عندما تلتحق بالجامعة، ولن يطول الوقت حتّى يتحقّق ذلك.

أرسل هوندا تورو لابتياع بطاقتين للوصول إلى المحطّة النّهائيّة، واستند إلى عصاه، ونظر بإعياء إلى الدّرج الّذي يتعيّن أن يرتقيه. وكان يعلم أنّ تورو سيكون على استعداد لمعاونته، ولكنّه لم يرغب في أن يطلب منه المساعدة.

بدا تورو سعيداً، منذ وقت وصولهما إلى المرفأ، وقد كان يعلم أنّه سيكون سعيداً. لم يكن مرفأ شيميزو وحده، وإنّما أي مرفأ آخر، شبيهاً بدواء متبلّر يشفيه على نحو فوري.

كانت السّاعة الثّانية بعد الظّهر. لقد عُلّق سجلّ السّاعة التّاسعة: تشونج لين ـ ٢، بنمية، ٢١٦٧ طناً، سفينة سوفْياتية، هايي، صينيّة، ٢٧٦٧ طناً، مندناوا، فلبينيّة، ٣٣٥٧ طناً، خباروفسك، سفينة سوفْياتيّة تقلّ عدداً من الرّكاب اليابانيين من ناهودكا، تصل في الثّانية والنّصف. بدا مشهد السّفن طيباً من الطّابق الثّاني للمحطّة النّهائيّة، أي أعلى قليلاً من أسطحها.

أطلاّ على مقدّمة السّفينة تشونج لين وراقبا النّشاط الّذي يدبّ في المرفأ فيما وراءها.

كان أمراً مألوفاً بالنّسبة إليهما معاً، فيما المواسم تتوالى، أن يقفا هكذا أحدهما إلى جوار الآخر، في مواجهة هذا الجلال. وربّما كان هذا الوضع هو الأفضل لآل هوندا، الأب والابن. وإذ كانت

«العلاقة» بينهما تتمثّل في استخدام الطّبيعة كوسيط بين وعيهما، في ضوء معرفة أنّ الشّرّ ينجم من لقاء مباشر، فإنّهما كانا يستخدمان الطّبيعة كمرشّح عملاق لتحويل الماء الشّديد الملوحة إلى ماء قابل للشرب.

أسفل مقدّمة السّفينة تشونج لين، امتدّ المرسى الأكثر خفّة، مثل تراكم خشب طافٍ، أوحت العلامات والإشارات على البرج الإسمنتي لحظر مرور السّيّارات بما يعقب لعبة الحجلة. انطلق دخان متّسخ من مكان ما، وتناهى هدير محرّكات لا يتوقّف.

كان الطّلاء قد تقشّر من هيكل السّفينة تشونج لين، ورسم اللّون الأحمر المتألّق لمانع الصّدأ شكلاً، حول المقدّمة، يشبه خريطة مصوّرة من الجو لمنشآت الميناء. تشبّثت المرساة الصّدئة، الخفيفة، بقناة باب القلس، وكأنّها سلطعون هائل.

راح هوندا يدقّق النّظر في القائمين بتفريغ السّفينة تشونج لين:
ـ ما هي الحمولة الّتي وضعت كلّها في حزم طويلة مرتّبة مثل المغازل؟
ـ أتصوّر أنّها صناديق من أحد الأنواع.

وإذ اغتبط هوندا لأنّ ابنه لا يعرف ما يتجاوز ما يلمّ هو به فقد حوّل انتباهه إلى صيحات عمّال التّفريغ وعملهم الّذي لم يعرفه من قبل في حياته.

كان الأمر المدهش أنّ اللّحم والعضلات والأعضاء (مع تنحيه المخ جانباً) الّتي منحت للكائن البشري قد خُلعت عليها عبر حياة طويلة من التّراخي الصّحةُ ووفرةُ المال. كما أنّ هوندا لم يحظَ

بقدرات هائلة على الإبداع أو التخيُّل. لم يمتلك إلاّ ناصية التّحليل البارد والحكم الصّائب، ومن خلالهما وصل إلى ما يكفي من النّقود. ولم يشعر بوخزات الضّمير إزاء عمّال التّفريغ النّاضحين عرقاً، الّذين رآهم في عملهم أو في الصّور، ولكنّه شعر بضيق لا سبيل إلى تحديده. لم تكن المشاهد والموضوعات والحركات الماثلة أمامه واقع شيء لمسه واستفاد منه، وإنّما كانت حاجزاً، سوراً قاتماً يضحك إلى الأبد ساخراً على الجانبين، مطلياً على امتداده بطلاء نفّاذ الرّائحة، يفصله عن لاواقع غير مرئي والنّاس غير المرئيين الّذين يستفيدون. والشّخوص البالغة الحيويّة على السّور كانت هي نفسها وقد ربطت ربطاً محكماً تحت سيطرة شخص آخر. لم يرغب هوندا قطّ في أن يكون مقيّداً على هذا النّحو بقيد كامد اللّون، ولكنه لم يساوره شكّ في أنّهم كانوا الأشخاص الّذين لهم مراسيهم، كالسّفن، عميقة في الحياة والوجود. والمجتمع لم يقدّم مكافأة إلاّ مقابل التضحية، والذّكاء يدفع له بدرجة تتكافأ مع ما يدفع مقابل التضحية بالحياة والوجود.

ولكن لم يكن هناك معنى للقلق، في هذا الموعد المتأخّر، وكلّ ما كان عليه القيام به هو الاستمتاع بالحركات أمامه. فكّر في السّفن الّتي ستصل إلى الميناء، بعد موته، وتجرّ منطلقة إلى أراض مشمسة. فاض العالم بآمال لم يكن هو جزءاً منها. لو أنّه كان ميناء، مهما كانت تعاسته، لمنح مرسىً لعدد من الآمال. ولكن، والحال على ما هو عليه، فإنّه قد يعلن للعالم وللبحر أنّه ليس إلاّ وفرة كاملة.

ولو أنّه كان ميناء؟

ألقى نظرة عجلى على السّفينة الوحيدة في مرفأ هوندا، تورو، الواقف ها هنا إلى جواره، الغارق في تأمّل عمليات التّفريغ. سفينة كانت كالميناء تماماً، تتحلّل مع الميناء، وترفض إلى الأبد الإقلاع. كان هوندا، على الأقلّ، يعلم ذلك. كانت السّفينة مسمّرة بالأسمنت إلى البرج. كانا أباً وابناً نموذجيين.

كانت عنابر السّفينة تشونج لين السّوداء الهائلة مفتوحة على اتّساعها، والحمولة تتدفّق من فتحاتها، وكانت شخوص عمّال التّفريغ في ستراتهم البنية وأحزمتهم الخضراء المزخرفة بخيوط الصّوف الذّهبيّة بادية للعيان جزئياً فوق جبال الحمولة، وأغطية رؤوسهم الصّفراء تبرز فيما هم يصيحون هاتفين بالعاملين على الرّوافع. اهتزّت الخطوط الحديديّة الهائلة للمرافع بتأثير صيحاتهم، وفيما الحمولة تتأرجح مهتزّة في الهواء حجبت ثمّ أظهرت من جديد الحروف الذّهبيّة لاسم ناقلة الرّكاب الرّاسية عند البرج المركزي.

مضى ضابط يعتمر قلنسوة بيضاء يتابع الإشراف على هذه العمليات. كان يبتسم، ويبدو أنّه قد صاح مردّداً طُرفة، بقصد تشجيع عمّال التّفريغ.

سئم الأبّ والابن عمليات التّفريغ فسارا إلى موضع يمكنهما منه أن يقارنا مؤخّرة تشونج لين بمقدّمة السّفينة السّوفياتيّة.

كانت المقدّمة تضجّ بالحياة، والمؤخّرة مهجورة. أشارت فتحات صفراء في اتجاهات عديدة. أكوام خشنة من القمامة. براميل خشبيّة ذات عوارض حديديّة صدئة. سترات نجاة على درابزون أبيض. لوزام سفن، لفّات حبال، الطّيات الرّقيقة البيضاء لزوارق النّجاة

تحت أغطية صفراء. قنديل عتيق مايزال يضيء تحت علم بُنِّيّ..

كان السّكوت شبيهاً بما يسود لوحة من لوحات الطّبيعة الصّامتة الهولنديّة، متّشحة بحزن البحر. كما لو أنّ لوحة تثاقلت والأعضاء الحسّاسة لمن في اللّوحة معرّضة للنظرة المحرّمة الّتي يرمقها بها بحارة أغرار على امتداد السّاعات الطويلة الّتي يسودها الضّجر على سطح السّفينة.

بدت المقدّمة السّوداء للسفينة السّوفياتيّة بروافعها الثّلاث عشرة الفضّيّة اللّون، وقد ضغط عليها من أعلى إلى أسفل. رسم صدأ المرساة المتشبّثة بقناة باب القلس خيوطاً حمراء تشبه خيوط العنكبوت على هيكل السّفينة.

شكّلت الحبال الّتي تشدّ السّفن إلى البرّ مجازات هائلة، ثلاثة حبال متقاطعة لكلّ سفينة، تجرّ وراءها لحى من قنب مانيلا، وبين ستائر الحديد الّتي لا سبيل إلى تحريكها انطلق ضجيج الميناء الّذي لا يعرف الرّاحة. وفي كلّ مرّة ينطلق مركب صغير للقطر وقد تدلّت على جانبه إطارات سوداء عتيقة أو زورق قبطان أبيض، يترك أثراً ناعماً في أعقابه، ويهدأ الضّيق المظلم لبعض الوقت.

كان تورو يفكّر في شيميزو، على نحو ما درسها وحيداً في إجازاته. وفي كلّ مرّة كان هناك شيء يُنتزع من فؤاده، ويحسّ بشيء يشبه التّنهيدة من رِئتَيِ الميناء الهائلتين، وفيما هو يغطّي أُذنيه تجنّباً للصياح والهدير والصّرير، يحسّ في الوقت نفسه بالقهر وبالتحرّر، ويمتلئ بالخواء العذب. كان الأمر على النّحو ذاته اليوم، على الرّغم من أنّ أباه كان له تأثير حاجب.

قال هوندا:

ـ أعتقد أنّه كان شيئاً طيباً أنّنا وصلنا إلى القطيعة مع تلك الفتاة من آل هاماناكا، في أوائل الرّبيع. الآن بمقدوري أن أحدّثك في الأمر، بعد أن تغلّبت عليه، وبدوت منغمساً في دراساتك.

ـ لايهمّ.

قالها تورو متضايقاً، وقد وضع لمسة من الكآبة والجسارة الصّبيانيّة فيما قاله. غير أنّ ما قاله لم يكن كافياً لإيقاف هوندا. وقد كمن الغرض الحقيقي للأخير لا في الاعتذار، وإنّما في السّؤال الّذي أراد طرحه منذ وقت طويل.

ـ ولكنّ تلك الرّسالة. ألا تبدو لك بالغة السّخف تماماً؟ ألم يكن كثيراً حقّاً جعل فتاة صغيرة تتحدّث صراحة عمّا كنا ندركه تمام الإدراك وأغمضنا أعيننا عنه؟ لقد انتحل أبواها أنواع الأعذار كافّة، ولم يجد الرّجل الّذي حمل اقتراح الخطبة في المقام الأوّل شيئاً يقوله على الإطلاق، عندما رأى الرّسالة.

أثار استياء تورو أنّ هوندا الّذي لم يمسّ الموضوع حتّى الآن، قد تحدّث بمثل هذا الوضوح، بل بوضوح يفوق ما ينبغي. وقد أحسّ بأنّ هوندا قد شعر بسعادة في فضّ الخطبة تعادل سعادته في التقدّم إليها.

لم يرفع تورو رأسه، وقد أسند مرفقه على الدرابزون.

ـ ولكن ألا تحسب أنّ كلّ اقتراحات الخطبة الّتي تأتي إلينا هي من النّوعية عينها؟ لقد كانت مومكو صريحة، وهكذا كان بمقدورنا اتّخاذ إجراءات احترازيّة في وقت مبكر.

ـ أوافقك الرّأي تماماً. ولكن علينا ألاّ نستسلم، فرغم ذلك سنجد فتاة طيبة، ولكن تلك الرّسالة. . .

ـ لماذا يتعيّن أن تهتمّ بها الآن؟

لكز هوندا، برقّة، تورو بمرفقه، فأحسّ تورو بأنّه قد لُطِمَ بعظمة:

ـ لقد جعلتها تكتبها؟

كان تورو يتوقّع هذا السّؤال.

ـ لنفرض أنّني فعلت ذلك، فماذا عساك تصنع؟

ـ لا شيء على الإطلاق. فالأمر المهمّ الوحيد هو أنّك وجدت طريقاً تشقّه في حياتك، ويتعيّن علينا أن نصفه بالطّريق المظلم الّذي لا رقّة فيه.

أحسّ تورو بأنّ احترامه لنفسه قد وجّهت إليه لطمة.

ـ لست أرغب في أن يحسبني الآخرون رقيقاً.

ـ لكنك كنت بالغ الرّقّة فيما يجري الأمر بأسره في أعنته.

ـ أتصوّر أنّني كنت أقوم بما أردتني أن أفعله.

ـ نعم.

أخذت الرّعدة تورو، فيما كان العجوز يبدي أسنانه لرياح البحر. لقد وصلا إلى نقطة الاتّفاق، ودفع ذلك بخواطر القتل العمد إلى ذهن تورو. وكان بوسعه أن يطلق لها العنان، في يسر، بدفع هوندا إلى البحر عبر الدرابزون، ولكنّه خشي أن يكون هوندا مدركاً لهذا الدّافع فتراجع عنه. كان الاضطرار إلى الحياة أكثر سواداً من أشدّ ضروب السّواد افتقاراً للمرح، أن يضطرّ كلّ يوم لرؤية رجل يسعى لفهم أعمق شيء بداخله، وينجح في ذلك.

لم يكن لديهما الكثير ليتبادلا الحديث عنه، وبعد جولة في المحطة النّهائيّة، وقفا لبعض الوقت يتطلّعان إلى السّفينة الفلبينيّة الرّاسية على الجانب البعيد.

كان أمامهما مباشرة باب مفتوح يُفضي إلى قمرات الطّاقم. واستطاعا رؤية مشمع الأرضية الملطّخ، وهو يلتمع على نحو كئيب، وعند الرّكن الحاجز الحديدي لدرج يُفضي إلى أسفل. الممشى القصير الخاوي للعادي والمبتذل، للحياة البشريّة المجمّدة، لا يبعد قطّ للحظة عن الكائنات البشريّة، في بحار مائيّة كائنة ما كانت. في السّفينة البيضاء، الهائلة، القصيرة الإقامة، كانت تلك البقعة الواحدة ممثّلة لممشى معتم، كئيب، يكسوه الأصيل، في كلّ دار. وفي دار رحبة كذلك، لا يقطنها أحد، إلاّ عجوز وفتى.

حنى هوندا رأسه، مسرعاً، وكان تورو قد قام لتوّه بحركة عنيفة. ولمح هوندا كلمة «كرّاسة» على مجموعة من أوراق الكتابة كان تورو قد أخرجها من حقيبة أوراقه، وأطاح بها عبر مؤخّرة السّفينة الفلبينيّة.

ـ ماذا تصنع؟

ـ إنّها ملاحظات لست بحاجة إليها. كتابات متعجّلة.

ـ ستُفرض عليك غرامة، إذا ضبطوك تقوم بهذا.

ولكن لم يكن هناك أحد بالبرج، وعلى السّفينة لا وجود إلاّ لبحار فلبيني تطلّع إلى البحر دهشاً. رفرفت مجموعة أوراق الكتابة الملفوفة بالمطّاط في الهواء للحظة، وغاصت في الماء.

كانت سفينة قطر بصوارٍ بلون جراد بحر مشويّ، خشن، تجلب

سفينة سوڤياتيّة بيضاء، لها نجمة حمراء في مقدّمتها، وقد كتب اسمها «خباروفسك» بحروف ذهبيّة. وكان هناك جمع من المستقبلين عند الحاجز، والرّيح تتلاعب بشعرهم، وقد وقف بعضهم على أطراف أصابعه، وراح الأطفال يهتفون ويلوّحون، من فوق أكتاف الكبار.

- ٢٦ -

كان السّؤال نفسه مترعاً بالحنق عندما سألت كيكو هوندا عن الكيفيّة الّتي يعتزم بها تورو قضاء أعياد الميلاد لعام ١٩٧٤، ومنذ حادث أيلول (سبتمبر) كان هوندا، الّذي بلغ الثّمانين من العمر، يخاف كلّ شيء. وقد تخلّى عنه مضاء عزمه، وبدا أنّه يجبن ويرتجف بشكل دائم، ليغدو ضحية لقلق لا يعرف الاسترخاء.

لم يكن بالوسع تفسير هذه الحالة بحادث أيلول (سبتمبر) وحده. كانوا الآن في العام الرّابع منذ تبنّي هوندا تورو. وعلى امتداد معظم هذه السّنوات بدا تورو هادئاً ولطيفاً، ولم يطرأ كبير تغيّر عليه. ولكنه بلغ سنّ الرّشد هذا الرّبيع، والتحق بجامعة طوكيو، وتغيّر كلّ شيء، وأصبح فجأة يعامل أباه وكأنّه عدوّ له، وسارع إلى قمع أي إشارة لإبداء المقاومة، وبعد أن قام بضرب هوندا على جبينه بقضيب معدني يُستخدم في إذكاء النّار، مضى الأخير إلى إحدى العيادات، حيث أمضى عدّة أيّام لعلاج الجرح، وأبلغ الأطباء بأنّه سقط سقطة بليغة. وعقب ذلك أصبح بالغ اللّماحيّة في رصد رغبات تورو وتلبيتها. وكان تورو وقحاً، على نحو متعمَّد، مع كيكو الّتي رأى فيها حليفة لهوندا.

من جرّاء سنوات طويلة من تجنّب الأقارب الّذين قد يسعون وراء مال هوندا، لم يكن له حلفاء على استعداد للتعاطف معه. وأسعد الأمر من عارضوا التّبنّي؛ فقد سار كلّ شيء حسب المتوقَّع، ولم

يقيموا وزناً، كائناً ما كان لشكاوى هوندا، فقد كان يحاول إثارة التّعاطف معه فحسب. وكان تعاطفهم منصرفاً إلى تورو. مثل هاتين العينين الجميلتين، مثل هذه الوقفة الّتي لا تشوبها شائبة، مثل هذا الشّعور المخلص بالواجب نحو الأب... ما كان بوسعهم إلاَّ أن يخلصوا إلى أنّ العجوز الشكّاك يحاول تلطيخ صورته، وكانت أخلاق تورو حقّاً تعلو على أي لوم.

ـ يبدو أنّ هناك من يثير المتاعب. منذا الّذي يمكن أن يكون قد أبلغكم بمثل هذه القصّة السّخيفة؟ إنّني على يقين من أنّها السّيّدة هيساماتسو. إنّها سيّدة لطيفة، ولكنّها تصدّق كلّ ما يقوله لها الأب. أخشى أنّه قد أوغل كثيراً في العمر، وتساوره الأوهام. وأتصوّر أنّ ذلك هو ما يحدث عندما تقضي كلّ هذه السّنين شاعراً بالقلق على المال، ولكنه يعاملني، أنا نفسي، هنا تحت هذا السّقف ذاته، كما لو كنت لصّاً. وفي نهاية المطاف فإنّني شاب في مقتبل العمر، وعندما أردّ عليه فإنّه يشرع في إبلاغ النّاس بأنّني لا أحسن معاملته. في المرّة الّتي سقط فيها في الحديقة وارتطم رأسه بجذر شجرة الخوخ... أتذكرونها؟ قال للسيدة هيساماتسو إنّني ضربته بمسعر النّار. وقد صدّقته بالفعل، حتّى آخر كلمة قالها، وذلك لا يتيح لي كبير مجال للردّ.

وكان تورو قد جلب، في ذلك الصّيف، المجنونة كينوي من شيميزو، وجعلها تقيم في الكوخ، القائم بالحديقة.

ـ هي؟ آه. إنّها حالة محزنة. لقد ساعدتني خلال أيامي في شيميزو في هذا وذاك من الأمور. وقد أرادت المجيء إلى طوكيو لأنّ الجميع هناك يسخر منها، والأطفال يطاردونها على الدّوام

ويصيحون هاتفين حولها، ولذا أقنعت والديها بتركها تحت رعايتي. لسوف يقتلانها إذا ما أودعاها مصّحاً. نعم، إنّها مجنونة، لاشكّ في ذلك، ولكنّها لا تؤذي أحداً.

سحر تورو المعارف العابرين من بين كبار العائلة، ولكنهم رُدّوا على أعقابهم بلطف وحذق، عندما سعوا لدخول حياته. وقد مالوا إلى التحسّر على أنّ رجلاً كان يوماً شديد اللّماحية والذّكاء، مثل هوندا، قد سقط على هذا النّحو الّذي لا يرجى معه أمل، في قبضة أوهام الشّيخوخة. وكانت لهم ذكريات بعيدة، منها هبة السّماء الّتي هبطت على هوندا قبل عشرين عاماً. وهكذا أحدث الحسد مفعوله.

يوم في حياة تورو.

لم تعد هناك حاجة إلى النّظر للبحر، وانتظار السّفن.

وبالمثال لم تعد هناك حاجة لحضور المحاضرات، لكنّ تورو حضرها ليوحي بالثقة. كان يمضي بالسّيّارة على الرّغم من أنّ الجامعة تقع على مسيرة عشر دقائق من الدّار.

لم تفارقه عادة النّهوض مبكّرا. وإذ يقدّر من الضّوء المنساب متخلّلاً السّتائر أنّ مطراً صيفياً ينهلّ، فإنّه يمضي إلى ترتيب العالم الّذي يسيطر عليه. هل كان الشّرّ والصّلف يمضيان في دقّة السّاعة؟ ألم يدرك أحد بعد الحقيقة القائلة بأنّ العالم تحت سيطرة الشّرّ بصورة كاملة؟ هل يتمّ الحفاظ على النّظام ويمضي كلّ شيء بحسب القوانين دون بقعة حبّ واحدة يمكن رصدها في أي مكان؟ هل النّاس سعداء تحت ظلّ هيمنته؟ هل نشر الشّرّ الشّفّاف في صورة قصيدة فوق رؤوسهم؟ هل أجريت ترتيبات دقيقة لكى تتمّ السّخرية من كلّ إشارة موحية بالدّفء؟ هل ماتت الرّوح تماماً؟

كان تورو على يقين من أنّه لو وضع مجرّد يد بيضاء على العالم لسقط الأخير مصاباً بمرض جميل. وكان من الطّبيعي كذلك أن يتوقّع هبة من السّماء في أعقاب هبة غير متوقّعة منها، فلأسباب لم يعلمها اختير رجل إشارة فقير ليكون الابن الّذي تبنّاه عجوز ثريّ، عجوز وضع إحدى قدميه في القبر. لسوف يُقبل ملك من بلد أو آخر ذات يوم ويطلب تبنّيه.

وحتّى في الشّتاء كان يسرع إلى غرفة الحمّام الّتي ألحقها بغرفة نومه، ويأخذ حمّاماً بارداً؛ فقد كان ذلك أفضل شيء لإيقاظ المرء.

يدفع الماء البارد الحياة في نبضه، وينهال على صدره بسوطه الشفّاف، وتخز آلاف من الإبر بشرته. يدع الماء ينهال على ظهره لبعض الوقت، ثمّ يستدير ويواجهه مرّة أخرى. وفؤاده لم يصادقه بعد. بدا الأمر كما لو أنّ لوحاً من الصّاج يضغط على صدره، وكأنّما لحمه العاري يوضع في قلب درع محكم. راح يتلوّى ويتقلّب، كجثّة تتدلّى من حبل من ماء. وأخيراً استيقظت بشرته. استقامت البشرة الشّابة هنالك، على نحو يليق بالملوك، وردّت عنها قطرات الماء. وفي تلك اللّحظة رفع ذراعه اليسرى، وتطلّع هابطاً بنظره إلى الشّامات الثّلاث الّتي تشبه ثلاث حصوات سوداء لامعة في شلّال. كانت علامة الانتماء إلى الصّفوة، لا يراها أحد، محتجبة تحت الجناح المطويّ.

جفّف نفسه، وتنفّس بعمق، وقد احمرّ جسمه.

كان واجب الخادم تسوني إحضار طعام إفطاره في اللّحظة الّتي يطلبه فيها. وكانت تسوني فتاة التقطها من مقهى بكاندا، وقد أطاعت أوامره كافّة.

انقضى عامان فحسب، منذ عرف امرأة، لكنه تعلّم مسرعاً قواعد جعل امرأة تخدم تفعل ما يأمرها به. وقد طرد كلّ الخادمات اللاّتي يحتمل أن يحقّقن رغبات هوندا، وعيّن نساء اكتشفهن، وضاجعهن، ومنحهن لقب شغّالة، مستخدماً كلمة «ميد» الإنجليزيّة. وكانت تسوني أعظمهنّ غباءً، أوأنهدهنّ صدراً.

عندما استقرّ الإفطار على المائدة، لكز صدرها، كنوع من تحية الصّباح.

ـ جميل ومتماسك.

ـ نعم، بشكل جميل للغاية.

قالتها تسوني في معرض الرّدّ باحترام، وإن لم يرتسم تعبير محدّد على محيّاها. كان اللّحم الثّقيل الأسمر نفسه مفعماً بالاحترام. والتزمت بالتّوقير على نحو خاصّ السّرّة العميقة كالبئر. لم تكن ساقا تسوني الجميلتان متماشيتين إلى حدّ مع باقي جسمها. وكانت تدرك هذه الحقيقة. وكان تورو قد رأى كيف أنّها وهي تجلب القهوة ماشية على الأرضيّة غير المستوية للمقهى، قد احتكّت ربلتها بالفروع السّفلى لنبتة المطّاط المتضوّرة وكأنّها قطّة تحتكّ بشجيرة.

فكّر تورو في شيء ما. مضى إلى النّافذة، وأطلّ على الحديقة، وقد فتح صدر رداء حمّامه في مواجهة نسيم الصّباح. كان هوندا حتّى الآن يلتزم، بمزيد من التّدقيق بساعة نزهته الصّباحيّة، بعد نهوضه من الفراش مباشرة.

ابتسم هوندا، مترنّحاً في مشيته، مستنَداً على عصاه، في مستطيلات ضوء شمس تشرين الثّاني (نوفمبر)، وأفلح في توجيه تحية صباح استطاع تورو بجهد سماعها.

ابتسم تورو، ولوّح بيده:

ـ لتحلّ عليَّ اللّعنة! مازال العجوز على قيد الحياة.

كانت تلك تحية صباحه.

تجنّب هوندا، وهو مايزال على ابتسامه، عثرة خطرة. لم يكن يدري ما الّذي عساه يسقط عليه إذا لم يلتزم بالحذر بحيث لا يتلفّظ بشيء آخر. وكان عليه أن يحتمل لحظة الإذلال هذه فحسب، فسرعان ما يغادر تورو الدّار حتّى المساء على الأقلّ.

ـ رائحة العجائز كريهة. ابتعد!

كان كلّ جرم هوندا هو الاقتراب.

توتّرت وجنة هوندا حنقاً، ولكنه لم يكن لديه ما يفعله. لو أنّ تورو صاح به لكان بوسعه، ولأقدم على الرّدّ عليه بالمثل. ولكن تورو تحدّث بنعومة وببرودة محدّقاً في هوندا بعينيه الصّافيتين الجميلتين، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة شاحبة.

بدا أنّ كره تورو قد نما على امتداد السّنوات الأربع الّتي أمضياها معاً. لقد كره كلّ شيء، اللّحم القبيح، العاجز، والثّرثرة الّتي لا جدوى منها والّتي تستر العجز، التّكرار المضجر، خمس وستّ مرّات على التّوالي. الآلية الذّاتيّة الّتي غدت شكسة عند التّكرار ذاته، أهمّية الذّات والجبن، البخل والعكوف على الذّات، الخور الكامل في غمار الخوف الدّائب من الموت، الانحلال التّام، اليدان المعروقتان، المشية الّتي تشبه مسيرة دودة وئيدة، مزيج الصّلف والخنوع على الوجه. واليابان تعجّ بكبار السّن.

على مائدة الإفطار، أبقى تسوني قائمة على خدمته لتصبّ له

القهوة، وجعلها تضيف السّكر. وأعرب عن شكواه من الخبز المحمّص.

كان بمثابة نوع من الأسطورة الخرافيّة أنّ نجاح يوم يعتمد على البداية الهادئة. ينبغي أن يكون الصّباح بلّورة خالية من العيوب. لقد تمكّن من احتمال ضجر الحياة في محطّة الإشارة لأنّ رصد السّفن لم يلحق ضرراً باحترام النّفس.

ذات مرّة قالت تسوني:

ـ اعتاد مدير المقهى أن يناديني بالهليونة؛ لأنّي طويلة وبيضاء، حسبما قال.

ردّ تورو بضغط سيجارته المشتعلة على ظاهر كفّها. وعلى الرّغم من غبائها فإنّها قد أحسنت فيما بعد انتقاء ما تتفوّه به، ولاسيّما حينما تقوم على خدمته وهو يتناول طعام الإفطار. تناوبت «الشّغّالات» الأربع على نوبات العمل. كانت ثلاث منهن يعنين بأمر تورو وهوندا وكينوي، فيما تُعفى الرّابعة من العمل. ومن تخدم تورو على مائدة الإفطار يستقبلها في فراشه ليلاً، وعندما يفرغ منها يصرفها، فلم يكن مسموحاً لأحد بقضاء اللّيل معه. وهكذا استمتعت كلّ منهنّ معه مرّة كلّ أربعة أيام، وسمح لهن بمغادرة الدّار مرّة كلّ أسبوع. وقد أعجب هوندا، سرّاً، بدقّة السّيطرة وغياب الخروج على التّعليمات، فقد تبعت الخادمات أوامر تورو وكأنّ القيام بذلك من طبائع الأمور.

علّمهنّ مناداة هوندا بـ «السّيّد العجوز» وخلافاً لذلك كان تدريبهن لا غبار عليه. وكان الزوّار العابرون يقولون إنّهم لا يرون، هذه

الأيام، في أيٍّ مكان آخر، مثل هؤلاء الخادمات المدرّبات جيداً. ولم يُبْقِ تورو هوندا بحاجة إلى شيء حتّى خلال إذلاله له.

كان تورو يمضي على الدّوام، بعد إعداد نفسه للذهاب إلى الكليّة، لتفقد أمر الكوخ القائم بالحديقة. وكانت كينوي تستقبله دائماً، وقد تزّينت بعناية، وارتدت ثوباً نسوياً فضفاضاً، وجلست على المقعد الطّويل، في الشّرفة. وكانت أحدث ضروب الدّلال الّتي لجأت إليها، هي عملية التّظاهر بالمرض.

ـ صباح الخير. وكيف حالك هذا الصّباح؟

ـ لست في حالة سيّئة للغاية. أشكرك. أشكّ في أنّ في هذه الدّنيا شيئاً أجمل من اللّحظة الّتي تقوم فيها امرأة جميلة لا تملك من القوّة إلاّ ما يكفي لتجمّلها، وقد قبعت ضعيفة في جلستها، باستقبال زائر، وتفلح في أن تقول كلمات واهنة «لست في حالة سيئة للغاية. أشكرك». ويميس جمال الأمر كلّه كأنّه زهرة ثقيلة، وهي تستقرّ هناك على جفنيها، فيما هي تغمض عينيها. أليس كذلك؟ إنّني أنظر إلى ذلك باعتباره الأمر الوحيد الّذي أستطيع القيام به مقابل رقّتك ولكنّني ممتنّة للغاية فأنت الرّجل الوحيد الرّقيق في العالم الّذي يمنحني كلّ شيء، ولا يطلب شيئاً بالمقابل. والآن، وفيما أنا هنا، فإنّ بمقدوري أن أراك كلّ يوم، وليس عليَّ أن أبارح الدّار. لو أنّ أباك لم يكن هنا فحسب!

ـ لا تقلقي بشأنه، لسوف يستسلم، ويموت ذات يوم. لقد تمّت معالجة موضوع أيلول (سبتمبر)، وكلّ شيء يسير على ما يرام. وأظنّ أنّني قد أستطيع في العام المقبل شراء خاتم ماسيّ لك.

ـ ما أجمل ذلك! ذلك هو ما سيبقيني على قيد الحياة، مجرّد

التّفكير فيه. ولكن ستعيّن عليَّ اليوم الاكتفاء بالزّهور. وزهرة الأقحوان البيضاء في الحديقة هي زهرتي الأثيرة اليوم. هل تقطفها لي؟ ما أجمل ذلك إلا، ليست تلك الزّهرة، بل الزّهرة الموجودة في الأصيص. تلك بعينها، الزّهرة البيضاء الكبيرة ذات البَتَلات المتدلّية كالخيوط.

دونما اكتراث قطف تورو زهرة الأقحوان البيضاء الّتي رعاها هوندا بعناية بالغة. وشأن حسناء مريضة، راحت كينوي تقلّبها في تراخٍ بين أصابعها، ثمّ بابتسامة سريعة للغاية ارتسمت على شفتيها، وضعتها في شعرها.

- هيّا انطلق! فلسوف تتأخّر عن موعد الكليّة. فكّر فيَّ بين المحاضرات.

ولوّحت له مودّعة.

مضى تورو إلى المرأب. وقام بتشغيل السّيّارة الموستانج الرّياضيّة الّتي كان قد جعل هوندا يشتريها في ذلك الرّبيع لدى التحاقه بالجامعة. إذا كان بمقدور المحرّك الرّومانسي الغائب الخاص بالسّفينة أن يشقّ الأمواج بنظافة بالغة، وأن ينثر وراءه مثل هذا الأثر، فلماذا إذن لا تستطيع أسطوانات السّيّارة الموستانج السّتّ المنطلقة برقّة أن تبدّد الجموع الغبية، وتشقّ طريقها وسط كتل اللّحم، وتلقي نثاراً من الحمرة، مثلما يلقي الآخر نثاراً من البياض؟

ولكنّ السّيّارة أبقيت في ظلّ سيطرة هادئة. اجتذبت ودفعت نحو ادعاء رقيق باللطف. وأعجب النّاس بها مثلما يعجبون بنصل حادّ، ملتمع، واغتصبت ابتسامة من غطائها الجميل، المطلي بأكمله على نحو متألّق، لتؤكّد لهم أنّها ليست خطيرة.

وإذ كان بمقدورها أن تنطلق بسرعة مائة وخمسة وعشرين ميلاً في السّاعة، فقد حقّرت من شأن نفسها من خلال الالتزام بمدى الخمسة والعشرين ميلاً وهي تشقّ طريقها وسط حشود حي هونجو الصّباحيّة.

حادث الثّالث من أيلول (سبتمبر).

بدأ الأمر بمشاحنة صغيرة، ثارت بين تورو وهوندا، في الصّباح.

كان تورو قد تخلّص، سعيداً، على امتداد الصّيف من هوندا الّذي اعتصم من الحرّ في هاكوني. وإذ تردّد هوندا في البناء من جديد بعد احتراق دارته في جوتمبا، فقد ترك الأرض على ما هي عليه، وإزاء حساسيته دائماً تجاه الحرّ فقد أمضى مواسم صيفه في نزل هاكوني. وفضّل تورو البقاء في طوكيو والانطلاق بالسّيّارة هنا وهناك إلى الجبال والبحر. ورأى تورو للمرّة الأولى في غضون عدّة أسابيع. وكان هناك غضب واضح في العينين اللّتين طالعتاه من الوجه الّذي لوّحته الشّمس، فاستشعر هوندا خوفاً بداخله.

تساءل مندهشاً، وهو يلج الحديقة، في صبيحة اليوم الثّالث، أين اللاّجرسمية الهنديّة، فقد اجتثت اللاّجرسيمة الهنديّة من جذورها قرب الكوخ القائم بالحديقة.

كانت كينوي الّتي أقامت في الدّار الرّئيسيّة قد انتقلت إلى الكوخ في أوائل تموز(يوليو). وقد كان هوندا، في إطار الخوف من تورو في أعقاب حادثة مسعر النّار، قد سمح بنزولها في الدّار.

خرج تورو، وكان يمسك مسعر النّار بيسراه. وكانت غرفته قاعة استقبال أعيد تجهيزها. وكانت بها المدفأة الوحيدة في الدّار. وحتّى في الصّيف كان هناك مسعر نار معلّق على المسمار بجوار المدفأة.

كان تورو يعرف بالطّبع أن مجرّد رؤية مسعر النّار ستجعل هوندا بتراجع، مثل كلب ألهبته السّياط.

ـ ما الّذي تصنعه بذلك الشّيء؟ هذه المرّة سأستدعي الشّرطة. في المرّة الماضية لزمت الصّمت لأنّني لم أرغب في إعلان الأمر على الملأ، ولكنها لن تمضي في يسر بالنّسبة إليك هذه المرّة.

كانت كتفا هوندا ترتعشان، واقتضى الأمر الشّجاعة منه لكي يتحدّث.

ـ لديك عصا. أليس كذلك؟ دافع عن نفسك بها!

كان هوندا يتطلّع إلى ازدهار اللاّجرسميّة الهنديّة الّتي تبدو براعهما متألّقة إزاء ساقٍ ناعمة كأنّها بشرة مجذوم بيضاء. ولكن لم يكن هناك شيء من هذا. كان يعرف أنّ الحديقة قد حُوّلت في «الآلايا»، المستودع، إلى حديقة أخرى. الحدائق بدورها ينبغي أن تتغيّر. ولكن في اللّحظة الّتي شعر فيها بهذا أقبل غضب جارف من مصدر آخر. صاح، بل هتف صارخاً بأنّه خائف.

لقد انتهت أمطار الصّيف، وأعقب الحرّ انتقال كينوي إلى الكوخ. وكانت اللاّجرسميّة الهنديّة مزدهرة، وقالت كينوي إنّها تكرهها، فهي تسبّب لها الصّداع. وشرعت في القول بأنّ هوندا قد غرسها هناك ليثير جنونها، وهكذا اجتثها تورو عقب رحيل هوندا إلى هاكوني. كان الأمر على هذا القدرمن البساطة.

غابت كينوي نفسها عن العيان، قابعة في دواخل الكوخ الّتي عمّها الغسق. ولم يقدّم تورو تفسيراً لهوندا؛ فلن تكون هناك ميزة في القيام بذلك.

قال هوندا بقدر أكبر من اللّين:

ـ أحسب أنّك قمت باجتثاثها؟

تناهى ردّ تورر، مرحاً:

ـ لقد قمت بذلك.

ـ ولِمَ؟

ـ كانت عتيقة، ولا جدوى منها.

ابتسم تورو ابتسامة جميلة.

في مثل هذه الأوقات، كان تورو يسدل باباً زجاجياً سميكاً أمام عينيه. زجاج ينزل من السّماء. زجاج مصنوع من المادّة الّتي صنعت منها سماء الصّبح الصّافية. وعرف هوندا أنّه ما من صيحة، ما من كلمة، ستبلغ أُذُنيْ تورو. ولن يرى إلاّ أضراساً اصطناعيّة. وكانت لهوندا بالفعل أسنان غير عضويّة، كان قد شرع بالفعل يلقى حتفه.

ـ فهمت. لا فرق في الأمر.

جلس هوندا، طَوال اليوم، ساكناً في غرفته. ولم يمسّ الطّعام الّذي جلبته «الشّغّالة» إلاّ لِماماً. فقد كان يعرف أنها ستبلّغ تورو بذلك.

ـ الرّجل العجوز عابس علٰى نحو فظيع.

ربّما لم تسفر عذابات العجوز، في حقيقة الأمر، عمّا يتجاوز العبوس. وكان بمقدور هوندا أن يرى في هذا العذابات حماقة لا سبيل إلى الدّفاع عنها. فالأمر كلّه جنته يداه، لا يدا تورو. ولم تكن هناك حاجة للدهشة إزاء التغيّر الّذي طرأ على تورو، فقد رأى هوندا من النّظرة الأولى «الشّرّ» في الصّبي.

ولكنّه أراد، في الوقت الرّاهن، أن يقيس عمق الجرح الّذي ألحقه باحترامه لنفسه ما جلبه لذاته.

كره هوندا تكييف الهواء، وكان في عمر يخاف معه الدّرج. وكانت له غرفة رحبة في الطّابق الأرضي تمتدّ بمساحة اثنتي عشرة حصيرة، وتطلّ عبر الحديقة على الكوخ. وكانت هذه الغرفة الّتي بنيت على طراز «شوين» المنتمي إلى القرون الوسطى، هي أقدم غرف الدّار وأكثرها كآبة. وقد صفّ هوندا أربع وسائد من الكتّان في صفّ واحد. رقد، ثمّ أقعى على عقبيْه، وترك الحرّ يتجمّع، إذا أغلق الأبواب الجرّارة كافّة. وفي بعض الأحيان كان يزحف إلى المائدة ليتناول قدحاً من الماء. كان الجو حارّاً كما لو كان تحت ضياء الشّمس وقد تلبّدت السّماء.

مرّ الوقت منطلقاً على امتداد الخطّ الفاصل بين اليقظة والنّوم، كإغفاءة عند النّهاية المطلقة للغضب والحزن. وحتّى الألم في وركيه كان يمكن أن يكون عنصر تشتيت، ولكنّه لم يحس بهذا الألم اليوم، وإنّما كان مجهداً فحسب.

بدت كارثة لا يُسبر لها غور وكأنّها في الطّريق إليه، ولم يزدها إلاّ تفاقماً كونها لها تدرجات دقيقة، لينة، وشأن جرعة مراوغة التّركيب كانت تحدث أثرها الّذي تمّ التّنبؤ به. كان ينبغي لشيخوخة هوندا أن تكون متحرّرة من الغرور، الطّموح، الفخار، المكانة، المنطق، وفي المقام الأوّل من العاطفة. ولكنّها كانت بحاجة إلى الانتعاش. وعلى الرّغم من أنّه كان ينبغي أن يكون قد نسي الإحساس بأسره منذ وقت طويل فإنّ ضيقاً وغضباً أسودين واصلا اتّقادهما وكأنّهما فراش من

جمرات. وإذ سُعّرت هذه الجمرات فقد مضت تطلق دخاناً قويّ الرّائحة.

كان ثمّة خريف في سنى الشّمس المرسوم على ورق الأبواب، ولكن العزلة لم تضمّ إيماءة إلى الحركة، إلى التّغيير لشيء آخر، كالتغيير في الفصول. وساد الرّكود كلّ شيء. وكان بوسعه أن يراهما بوضوح في نفسه، الغضب والحزن اللّذين ما كان ينبغي أن يكونا هناك. شأن بريكات غِبّ المطر. كان الشّعور الّذي وُلِد هذا الصّباح مثل فراش من وريقات شجر عمرها عشر سنوات، وجديدة في كلّ لحظة. تقاطرت عليه كلّ الذّكريات السّيئة، ولكن لم يكن بوسعه القول، شأن شاب في مقتبل العمر، إنّ حياته كانت تعسة.

عندما أوحى له الضّوء عند النّافذة بأنّ المساء يوشك أن يخيّم، تقلقلت الرّغبة الجنسيّة في بدنه الجاثم. لم تكن انقضاضة مفاجئة للرغبة، وإنّما كانت بالأحرى شيئاً فاتراً تكوّن وتطوّر خلال ساعات الحزن والغضب، والتفّ حول فمه كدودة حمراء.

كان السّائق الّذي عمل لديه على امتداد سنوات، قد تقاعد، وارتكب السّائق الّذي خلفه إساءات معيّنة، وهكذا باع سيّارته، وأصبح الآن يستخدم سيّارات أجرة. وفي السّاعة العاشرة استدعى إحدى الخادمات عبر الهاتف الدّاخلي، وطلب منها استدعاء سيّارة، واستخرج من خزانته حلّة صيفيّة سوداء وقميصاً رياضياً، رمادي اللّون.

لم يكن تورو بالدّار. تطلّعت الخادمات بفضول إلى الرّحيل اللّيلي لهوندا البالغ من العمر ثمانين عاماً.

عندما انعطفت السّيّارة إلى حدائق ميجي كانت رغبة هوندا قد أصبحت شيئاً يشبه نوبة غثيان خفيفة. هوذا هنا، مرّة أخرى، بعد عشرين عاماً.

ولكن لم تكن الرّغبة الجنسيّة هي الّتي اتّقدت في أعماقه، على امتداد الرّحلة بالسّيّارة.

استقرّت يداه على عصاه أكثر انتصاباً من المألوف، وراح يغمغم لنفسه: «ليس عليَّ إلاَّ أن أحتمل الأمر ستّة أشهر أخرى. مجرّد ستّة أشهر أخرى. إذا كان هو الشّخص الحقيقي».

جعلته «إذا» تلك يرتجف فرقاً. إذا قُدِّر لتورو أن يموت قبل عيد ميلاده الحادي والعشرين بستّة أشهر، فإنّ كلّ شيء يمكن اغتفاره. وقد جعل الوعي بعيد الميلاد ذاك وحده من الممكن بالنّسبة إلى هوندا أن يحتمل الصّلف. وإذا كان تورو زائفاً؟

كانت فكرة موت تورو مصدر ارتياح عظيم. وفي غمرة شعور هوندا بالذّلّ ركّز على موت تورو، وفي قرارة فؤاده قتله بالفعل. عمّ الهدوء قلبه، وتدفّقت السّعادة. ارتعش أنفه بالاحتمال والإشفاق، عندما رأى الموت، مثل الشّمس خلال غراء السّمك، فيما وراء العنف والقسوة. كان يمكن أن يشمل بالقسوة الصّارخة لما يسمّى بالعمل الخيري. وربّما كان ذلك ما وجده في الضّوء على السّهل الهندي، الرّحب، الخاوي.

لم يكن قد رصد في نفسه بعدُ أعراض مرض قاتل. وليس ثمّة ما يثير الانزعاج في ضغط دمه أو قلبه. وكان واثقاً من أنّه إذا قُدِّر له أن يواصل الحياة لمدّة نصف عام، فإنّه سيحيا بعد موت تورو، ربّما

لبضعة أيّام أخرى فقط. أي دموع هادئة، آمنة، سيكون بمقدوره أن يذرفها! وأمام العالم الأحمق سيؤدّي دور الأب المفجوع وقد حُرم من الابن الّذي وصل إليه في مثل هذا الوقت المتأخّر من العمر. لم يكن بمقدوره إنكار أنّ هناك لذّة في التطّلع إلى موت تورو، في ترقّب هذا الموت بحبّ هادئ، وبسمّ حلو يتدفّق من شخص يعرف كلّ شيء. إنّ عنف تورو المخاتل الّذي يمكن أن يحبّ، ينظر إليه من خلال الزّمن الآتي كأنّما من خلال جناح ذبابة أيّار (مايو). النّاس لا يحبّون الحيوانات الأليفة الّتي ستواصل الحياة بعدهم، فالعمر القصير شرط للحبّ.

وربّما كان تورو يضطرب ويهتاج إزاء صورة ذهنيّة لشيء سيحدث، شأن سفينة غريبة، لم يسمع بها أحد، تظهر فجأة في أفق كان يرصده طَوال أيّام. ربّما كان الطّعْم المسبّق للموت يحرّكه، ويثير ضيقه. جلب هذا الاحتمال لهوندا رقّة لا حدود لها، وأحسّ بأنّ في وسعه لا أن يحبّ تورو وحده، وإنّما الجنس البشري بأسره، فقد كان يعرف طبيعة الحبّ البشري.

ولكن إذا كان تورو زائفاً؟ إذا ما قُدِّر له أن يواصل البقاء على قيد الحياة ولهوندا أن يذوي إذ يعجز عن ملاحقته؟

كمنت جذور الرّغبة الخانقة، القابعة في أعماقه، في غياب اليقين. لئن كان مقدَّراً له أن يموت أوّلاً، فليس بوسعه، إذن، أن يرفض أشدّ الرّغبات انحطاطاً. ربّما قُدِّر له طَوال الوقت أن يموت في غمارالذّل وإساءة التّقدير. وربّما كانت إساءة التّقدير فيما يتعلّق بتورو في ذاتها شَرَكاً نصبه له قدره، إذا كان لشخص مثله قدر.

كانت الحقيقة القائلة بأنّ وعي تورو مشابه إلى حدّ بعيد لوعيه بذرة اضطراب. ربّما قرأ تورو كلّ شيء. ربّما كان يعرف أنّه سيعيش حياة طويلة، وحاك خيوط مؤامرة انتقامه بعد أن قرأ الخبث المتعمَّد في التّربية العمليّة الّتي ربّاه عليها عجوز واثق من موته المبكّر.

ربّما كان العجوز الثّمانيني والشّاب العشريني غارقين، حتّى في الوقت الرّاهن، في معركة حياة أو موت.

اللّيل، في حدائق ميجي، للمرّة الأولى منذ عشرين عاماً.

انعطفت السّيّارة يساراً من مدخل جونداوارا، وانطلقت في المسار الدّائري.

ـ واصل المسير! واصل المسير!

في كلّ مرّة أصدر هوندا فيها هذا الأمر كانت تندّ عنه سعلة وكأنّها عنصر مكمّل يبعث الضّيق.

راحت قمصان في لون البيض تظهر وتختفي، وسط الأشجار الّتي أسدل اللّيل ستاره عليها. وللمرّة الأولى منذ وقت طويل للغاية شعر هوندا بتلك الخفقة الشّديدة الخصوصيّة في صدره. رغبة عتيقة ماتزال تقبع متكوّمة تحت الأشجار وكأنّها أوراق شجر العام الماضي.

ـ استمرّ! استمرّ!

انعطفت السّيّارة يميناً، وراء المعرض الفنّي، حيث كانت الأجمات أكثر كثافة. كان هناك زوجان أو ثلاثة أزواج، وكان الضّوء غير مناسب كعهده دائماً. وفجأة لاحت أضواء باهرة متجمّعة إلى اليسار. في منتصف المرأب، بدا مدخل الطّريق السّريع متّسعاً

كالهوّة، ومحتشداً بدفق من الأضواء، مثل حديقة ملاهٍ مهجورة.

إلى اليمين ستكون هناك أجمّة الأشجار، على الجانب الأيسر من المعرض الفنّي. حجبت الأشجار اللّيليّة القبّة، وتهدّلت الأغصان على الممشى الجانبي، مجموعة مشتبكة من أشجار التّنوب وموز الجنّة والصّنوبر. وحتّى من السّيّارة المنطلقة، كان بمقدوره أن يسمع الحشرات في أجمة الصبّار الأميركي. وتذكّر، وكأنّما كان ذلك بالأمس، ضراوة البعوض في الأجمات، وصوت الأكفّ وهي تهوي على الجلد العاري.

صرف السّيّارة عند المرأب، قرب المعرض الفنّي، فألقى السّائق عليه نظرة سريعة من تحت جبين ضيّق. كانت من نوع النّظرات الّتي تدفع في بعض الأحيان إلى الانهيار. قال هوندا مرّة أخرى، بمزيد من القوّة، بمقدورك الذّهاب! دفع عصاه في الممشى أمامه، وترجّل من السّيّارة.

كان المرأب مغلقاً في اللّيل. وكتب على لافتة أنّ الدّخول محظور. وحال حاجز دون الدّخول. ولم يكن هناك ضوء في مأوى المُشْرِف، ولم تبدُ إشارة توحي بالحياة.

أطلّ هوندا على السّيّارة، وهبط في سيره الممشى الجانبي، متجاوزاً الصبّار الأميركي. كانت وريقات خشنة تمتدّ منه، وقد بدا لونها شاحب الخضرة في الظّلام، وخيّم الهدوء عليها وكأنّها أجمة خبث. كانت هناك قلّة من المارّة، رجل وامرأة على الممشى المقابل.

بعد أن وصل هوندا إلى واجهة المعرض الفنّي، توقّف وألقى نظرة

على الموضع الخاوي الهائل الّذي ألفى نفسه فيه. ارتفع الجناحان والقبّة بقوّة إلى اللّيل الخالي من القمر. البحيرة المستطيلة الشّكل وحصى الشّرفة الأبيض، وخيوط الضّوء الطّويلة الممتدة من المصابيح وقد قطعت البياض الأشهب للحصى مثل خطّ المدّ. وإلى اليسار، لاح السّور الدّائري للأستاد الأوليمبي وقد ارتفعت مصابيحه القويّة، المطفأة الآن، في مواجهة السّماء. وأسفلها بمسافة طويلة مسّت المصابيح، مثل سديم، غصون الأشجار الأكثر بروزاً.

في السّاحة المتساوقة الّتي لا تحتوي ظلاًّ للرغبة، أحسّ هوندا أنّه في قلب ماندالا الرَّحِم.

ماندالا الرّحم، أحد عالميْن للعناصر، وتقترن بماندالا الماسة. ورمزها زهرة اللّوتس، وبوذاتها تتجلّى على أيديهم فضيلة العمل الخيري.

للرَّحِم أيضاً معنى الاحتواء. وكما أن رَحِم الشّحاذة قد حملت جنين إلَه النّور فإنّ القلب الملوّث للإنسان العادي يحمل حكمة كلّ البوذات ورحمتهم.

يضمّ التّساوق التامّ للماندالا المتألقة في وسط بلاط زهرة اللّوتس ذات البتلات الثّماني، معقل إلَه النّور العظيم. تمتدّ البلاطات الاثنتا عشرة في الاتجاهات الأربعة ومعاقل البوذات العديدين ترتبط بتساوق رقيق وتفصيلي.

إذا اعتُقد أنّ قبّة المعرض الفنّي السّامقة في اللّيل الّذي غاب عنه القمر، ليست إلاّ البلاط المركزي، فإنّ الجادّة الّتي يقف فيها هوندا،

والّتي تفصلها البحيرة عن القبّة، ربّما كانت معقل إلّه الطّاووس، وإلى الغرب بلاط الخواء.

بالبوذات الموزعة هندسياً على المندالا الذّهبيّة المحوَّلة إلى الأجمات المظلمة للساحة المتساوقة، امتلأ مدى الحصى وخواء الممشى الجانبي فجأة، ولاحت في كلّ مكان وجوه رحيمة بهرها ضوء النّهار الكامل. الوجوه القدسيّة الّتي يتجاوز عددها المائتين، والوجوه المائتان للماندالا الماسيّة كذلك، راحت تتألّق في الأجمات، وتألّقت الأرض بالنّور.

تراجعت الرّؤية متلاشية وهو يمضي مبتعداً. امتلأ اللّيل بأزيز الحشرات، وربطت أصوات صرّار اللّيل الظّلال وكأنّها الإبر.

كان الممرّ المألوف مايزال على حاله، عبر الأجمات، إلى يمين المعرض الفنّي. تُذكّر، بالحنين، أنّ عبق العشب، والأشجار اللّيليّة كانت جزءاً لا سبيل إلى الاستغناء عنه من الرّغبة.

ساوره شعور بعودة الإحساس الحادّ باللّذة، وكأنّما كان يعبر برّاً كسته مياه المدّ، وعند قدميه تلاعبات الأسماك والمحار وقناديل البحر والقشريات وأفراس البحر، كما في اللّيل على صيد مرجاني، والماء ينداح دافئاً نحو باطنيْ قدميه اللّذين يتعرّضان مع كلّ خطوة لخطر تمزيق الصّخور الحادّة لهما. اندفعت اللّذّة إلى الأمام، وكان الجسم عاجزاً عن ملاحقتها. كانت العلامات والمؤشّرات في كلّ مكان. وإذ اعتادت عيناه الظّلام فقد رأى قمصاناً بيضاء، متناثرة، عبر الأجمات، وكأنّها بقايا ذبح.

كان هناك زائر سبق هوندا إلى المكان الّذي أخفى نفسه فيه. وكان

بمقدور هوندا أن يحدّد من القميص القاتم، إن لم يكن من أي شيء آخر، أنّه متلصّص مخضرم. كان الرّجل بالغ القصر، لا يصل إلاَّ إلى مستوى كتفيْ هوندا، حتّى إنّ هذا الأخير حسبه أوّل الأمر مجرّد فتى. وعندما تبيّن الرّأس الّذي خالط الشّيب سواده، بدا النّفس الرّطب البالغ القرب ثقيلاً، وسخيفاً.

تركت عينا الرّجل، في التوّ، هدفهما، واستقرّتا على الملمح الجانبي لوجه هوندا، فأشاح الأخير بناظريه بعيداً في حرص، ولكنه كان قد شعر بأنّ الشّعر الرّمادي القصير المنتصب من الصّدغين مرتبط على نحو ما بذكرى مقلقة، فكافح لاستعادتها، وارتفعت السّعلة المعتادة إلى زوره على الرّغم من أنّه جالد لكتمها.

تسلّلت ثقة معينة إلى نفس الرّجل، رفع نفسه إلى الطّول الكامل لقامته وهمس في أذن هوندا:

ـ هكذا، نلتقي، مرّة أخرى. مازلت تجيء. أليس كذلك. لم تنسَ؟

التفت هوندا إلى العينين القارضتين. عاودته ذكرى من رحاب عشرين عاماً خلت. كان هو الرّجل الّذي استوقفه أمام البي. إكس بالجينزا.

وتذكّر بخوف كيف أنّه عامل الرّجل ببرودة، مؤكّداً أنّه قد أخطأ في تعرف هويته.

ـ لا حاجة بك إلى القلق؛ فلكلّ مقام مقال، دعنا نترك الماضي للماضي.

أضافت هذه الطّريقة في تهدئة خواطر هوندا المزيد إلى شعوره بعدم الارتياح.

ـ ولكن عليك بإيقاف هذا السّعال!

قالها الرّجل، وانعطف لينظر بانشغال، فيما وراء جذوع الأشجار.

تنفّس هوندا بارتياح أكبر، فيما كان الرّجل يمضي إلى مبعدة، وراح يتطلّع إلى الأعشاب، وراء الأشجار. غير أنّ الخفقان كان قد بارحه، وحلّ محلّه شعور بعدم الارتياح، ثمّ الغضب والحزن من جديد، وانسحب نسيان الذّات وهو يطارد هذا النسيان. وعلى الرغم من أنّ البقعة كانت مناسبة تماماً لرؤية الرّجل والمرأة على العشب، فقد كانت هناك سمّة زائفة حولهما، وكأنّهما كانا يعلمان أنّهما موضع مراقبة ويمثّلان دورين أُسندا إليهما. لم يكن هناك شيء من النّشوة في الرّؤية، كما لم يكن هناك ذلك الضّغط العذب من مسافات التّمحيص، ولا الثّمل من الوضوح ذاته.

على الرّغم من أنّهما كانا على بعد متر أو مترين، فإنّ الأضواء كانت معتمة للغاية بحيث لم تسمح له بتبيّن التّفاصيل أو التّعبيرات المرتسمة على الوجهين. لم يبدُ أنّ هناك ستاراً بينه وبينهما، وما كان بوسعه أن يدنو أكثر من ذلك. وتعلّق بالأمل في أنّه إذا واصل التطلّع فإنّ الخفقة القديمة ستعود. أسند يداً على جذع الشّجرة وأخرى على عصاه وتطلّع إلى المرأة والرّجل.

رغم أنّ الرّجل الضّئيل الجرم لم يُبْدِ توجهاً إلى التدخّل في رياضته، فإنّ هوندا واصل تذكّر أمور ما كان ينبغي أن يتذكّرها. ولمّا لم تكن عصاه معقوفة فإنّه لم يستطع أن يعلّق أملاً على تقليد

البراعة الفائقة الّتي يبديها ذلك العجوز الّذي يستخدم عصاه في رفع تنورات النّسوة. كان ذلك الرّجل عجوزاً، في ذلك العهد، ولاشكّ في أنّ الموت قد طواه. لاشكّ في أنّ عدداً كبيراً من كبار السنّ في صفوف «المتفرجين» قد طواهم الموت على مدار هذه السّنوات العشرين. وعدد ليس بالقليل كذلك في صفوف «مقدّمي العروض» الشّبّان قد تزوجوا، ومضوا بعيداً، أو لقوا حتفهم في حوادث مرور، أو بسبب السّرطان الّذي يصيب الشّباب، أو ارتفاع ضغط الدّم، أو أمراض القلب والكلى. ولأنّ الحركات والانتقالات أكثر حدّة في صفوف مقدّمي العروض منها في حالة المتفرّجين، فإنّ بعضاً منهم سيكون في مجمّعات الشّقق في المدن السّكنية الّتي تقع على بعد ساعة أو نحوها بقطار مملوكٍ لشركة خاصة عن طوكيو، متجاهلين الزّوجات والأطفال ومُسْلِمين أنفسهم لمباهج التّلفزيون. وكان قريباً ذلك اليوم الّذي سينضمّ فيه بعضهم إلى صفوف المتفرّجين.

احتكّ شيء ليّن بيده اليمنى. كان حلزون كبير يشقّ طريقه منحدراً على جذع الشّجرة.

سحب يده برفق، مبعداً إيّاها. خلّف اللّحم والقوقعة على التّوالي، شأن سلّيلوييد وعاد الصّابون المعقّر، بعد الفقاقيع اللّزجة، شعوراً بالتقزّز. من مثل هذا الانطباع اللّمسي فحسب كان يمكن للعالم أن يذوب، شأن جثّة في خزّان لحمض الكبريتيك.

أطلّ هوندا من جديد على الرّجل والمرأة. وأوشك أن يرتسم ابتهال في عينيه، يا شباب العالم، دعوني، في جهل وصمت، أصل إلى حدّ الثّمل، مثلما يهوي فؤادي، بصور عاطفتكم الّتي لا مجال فيها للكبار!

رفعت المرأة، المستلقية وسط أصوات الحشرات، نفسها، ولفّت ذراعيها حول عنق الرّجل. وأمّا الرّجل الّذي كان يعتمر قلنسوة ليّنة، مستديرة، سوداء اللّون، فقد دسّ يده عميقاً تحت تنورتها. راحت أطراف أصابعها تتحرك بنشاط عارم فوق ثنيات قميصه. كانت ملتوية في مقابل صدره، مثل درج حلزوني. رفعت رأسها، لاهثة، وقبّلته وكأنّها تبتلع دواء.

فيما هوندا يحدّق، بإمعان بالغ، حتّى لقد آلمته عيناه، استشعر دفقاً من الرّغبة، كالأشعّة الأولى المنهلّة من شمس الصّباح، من أعماق كانت حتّى الآن خاوية.

مدّ الرّجل يده إلى جيبه الخلفي. جلبت فكرة أنّه في قلب الرّغبة قد خشي من أن يتعرّض للسرقة برودةً مفاجئةً إلى رغبة هوندا. وفي اللّحظة التالية ساوره الشكّ فيما تراه عيناه.

لم يكن الشّيء الّذي استخرجه الرّجل من جيبه إلاّ سكّيناً ذات نابض. لمسها بإصبعه السّبّابة فندّ عنها صوت يشبه فحيح لسان أفعى مهتاج. التمع النّصل في الظّلام. لم يستطع هوندا التيقّن من الموضع الّذي طعنت فيه المرأة، ولكن صرخة دوت. وثب الرّجل واقفاً، ونظر حوله، كانت القلنسوة قد تراجعت إلى الوراء. وللمرّة الأولى رأى هوندا الشّعر والوجه. كان الشّعر خالص البياض والوجه الهضيم وجه رجل في السّتين من عمره، وقد تجعّدت أركانه كافّة.

اندفع الرّجل متجاوزاً هوندا الّذي كان في حالة صدمة الآن، ومضى يعدو بسرعة كذّبت سنوات عمره.

غمغم الرّجل الشّبيه بالجرذ في أذن هوندا:

ـ دعنا نبتعد عن هذا المكان، فسوف ندفع الثّمن جحيماً!

قال هوندا بضعف:

ـ ليس بمقدوري العدو إذا أردت.

قضم الرّجل أظفره.

ـ أمر سيّئ للغاية. سيشتبهون بك إذا لم تمضِ بعيداً. ربّما كان ينبغي أن تبقى وتغدو شاهداً.

دوت صفّارة، ووقع أقدام مندفعة، وهرج أناس يتواثبون واقفين. أقبل شعاع مصباح نقّال من مسافة قريبة، على نحو مدهش، في الشّجيرات. وقف رجال شرطة حول المرأة، وهم يناقشون المشكلة بأصوات عالية.

ـ أين أصابها؟

ـ في الفخذ.

ـ ليس بالجرح الخطير.

ـ أي نوع من الرّجال هو؟ أخبرينا من أي أنواع الرّجال كان!

نهض رجل الشّرطة الّذي كان قد جثم إلى جوار المرأة موجّهاً المصباح النقّال إلى وجهها، واقفاً.

فتح هوندا عينيه قليلاً. كان بمقدوره أن يستشعر شعاع المصباح النقّال. دفعه أحدهم من اتّجاه خفيض، بحيث لم يكن من شكّ في أنّه الرّجل الضّئيل الجرم، فتعثّر متهاوياً من حمى الشّجرة الكبيرة. سقط وجهه تقريباً على أحد رجال الشّرطة، فأمسك الأخير برسغه في إحكام.

تصادف أنّ صحافياً بإحدى المجلّات المتخصّصة في الفضائح كان في مخفر الشّرطة. وقد ابتهج لنبأ حادث الطّعن الّذي وقع بحدائق ميجي.

طلب من المرأة الّتي وضعت ضمادات ثقيلة حول ساقيها، أن تتعرّف هوندا، واستغرق الأمر ثلاث ساعات لإثبات براءته.

قالت المرأة:

ـ أنا متأكّدة تماماً من أنّه لم يكن هذا السّيّد العجوز. التقيت الآخر قبل ساعتين في حافلة. كان رجلاً عجوزاً، ولكنه يرتدي ملابس كالّتي يرتديها الفتية الصّغار، وكان متحدّثاً لبقاً، ويمكنك القول إنّه يجيد خلط الأمور. لم أحلم أنّ بمقدوره القيام بمثل هذا الشيء. صحيح. لست أعرف البديهيات عنه، اسمه أو عنوانه أو عمله أو أي شيء.

قبل مواجهة هوندا بالمرأة، شُدّ وثاقه، وتمّ التحقّق من هويته، وأرغم على الكشف عن الظّروف الّتي جلبت شخصاً في مكانته إلى الحديقة في مثل هذه الساعة. كان أمراً كابوسياً أن تصبح القصّة السّخيفة الّتي سمعها قبل عشرين عاماً من زميل له في القضاء، تجربته الذّاتية، الآن، على وجه الدّقّة. وبدا أنّ كلّ الأشياء لها الوضوح الّذي يميّز الكابوس، ومنفصله تماماً عن الواقع. مخفر الشّرطة المتهالك، جدران غرفة التّحقيق المتّسخة، الضّوء المتألّق على نحو غريب، رأس التّحري الأصلع.

سُمح له بالذّهاب إلى الدّار، في الثّالثة من بعد منتصف اللّيل. نهضت خادم وفتحت البوّابة في تشكّك، ومضى إلى غرفته فداهمته الكوابيس.

أصيب بنوبة برد، في صباح اليوم التّالي، ومضى يتعافى منها بعد أسبوع

في صباح اليوم الّذي بدأ يحسّ فيه بتحسّن قليل، قام تورو بزيارة غير متوقَّعة له. وضع على وسادة هوندا، والابتسامة تعلو شفتيه، مجلّة أسبوعيّة.

حملت المجلّة هذا العنوان «متاعب سعادة القاضي المتلصّص. اتّهام جائر بطعن امرأة».

وضع هوندا عويناته. كان هناك خفقان لا يدعو للسرور في صدره. كان الموضوع دقيقاً على نحو مدهش، بل إنّه حمل اسم هوندا الحقيقي. وكانت عبارة الذّروة هي: «يبدو أنّ ظهور متلصّص في الثّمانين من العمر يشير إلى أنّ سيطرة كبار السّن على اليابان تمتدّ حتّى إلى عالم المنحرفين».

دفع القول الوارد في الموضوع بأنّ نزعته لم تكن حديثة العهد، وإنّما كان له على امتداد حوالي عشرين عاماً عدد من المعارف في صفوف المتلصّصين ـ دفع هوندا إلى التيقّن من هوية المرشد. ولابدّ أنّ رجال الشّرطة أنفسهم هم الّذين عرّفوا الصّحافي بالرّجل الضّئيل الجرم. ولن يسفر رفع قضية قذف إلاّ عن إضافة المزيد من الإحراج.

كانت حادثة مبتذلة جديرة بأنّ تشيّع بالضّحك إلى عالم النّسيان، ولكن هوندا الّذي كان قد علّق الآمال على أنّه لم يعد لديه مكانة واسم رفيع ليفقدهما، أدرك في غمرة خسارته لهما أنّهما كانا مايزالان باقيين.

بدا من المؤكّد أنّه لوقت طويل للغاية سيربط النّاس اسمه لا بعطاياه الرّوحيّة والفكريّة، وإنّما بهذه الفضيحة. فالنّاس لا يسارعون

بنسيان الفضائح. وليس الحنق الأخلاقي هو الّذي يجعلهم يتذكّرون، فلتجميد شخص ما تعدّ الفضيحة هي وعاء الحفظ الأبسط والأكثر فعالية.

أبلغه إمساك البرد بتلابيبه بأنّه يتداعى عضوياً. كان تعرّضه للشكّ فيه تجربة بدا أنّها، في ظلّ الغياب الكامل للمكانة الفكريّة، تجلب انهيار اللّحم والعظام. وما كان يمكن للمعرفة والتعلّم والفكر القيام بشيء حيال ذلك. أي جدوى كان يمكن أن تأتي من وراء مواجهة التحرّي بالتّفاصيل الدّقيقة للمفاهيم الّتي تفهّمها في الهند؟

منذ ذلك الوقت فصاعداً سيُخرج هوندا بطاقة التّعريف به

شيجيكوني هوندا

محامٍ

لسوف يضع النّاس سطراً في المسافة الضّيقة بين السّطرين الآخرين:

شيجيكوني هوندا

متلصّص على امتداد ثمانين عاماً

محامٍ

وهكذا فإنّ حياة هوندا العملية ستختزل في سطر واحد.

قاضٍ سابق. متلصّص على امتداد ثمانين عاماً.

وعلى هذا النّحو فإنّ الصّرح الخفي الّذي شاده وعي هوندا على امتداد عمره الطّويل، قد انهار في لحظة، ونقش سطر واحد على الأساس. كان مختصراً كنصل أبيض من فرط الاتّقاد في النّار، وحقيقياً.

بعد حادث أيلول (سبتمبر)، انتقل تورو ببرودة إلى تسيير الأمور بطريقته الخاصّة.

اتّخذ، كمحام له، محامياً كان هودا قد تنازع معه، واستشاره في إمكانية إعلان عدم أهلية هوندا قانونياً، وسيقتضيَ الأمر إجراء فحص لإقرار ضعفه الذّهني، ولكن المحامي بدا واثقاً من النّتائج.

وفي حقيقة الأمر أنّ التغيّر الّذي طرأ على هوندا كان جليّاً. فقد توقّف بعد الحادث عن الخروج، وبدا خائفاً من كلّ شيء. ويتعيّن أن يكون من اليسير إثبات أعراض نوبات خرف الشّيخوخة. وما على تورو إلاَّ الوقوف أمام محكمة الأحوال الشّخصيّة والوصول إلى إعلان عدم أهلية هوندا قانونياً، وسيُعيَّن محامٍ كوصيّ.

استشار المحامي طبيباً نفسياً كان على صلة طيبة به. ورسم الطّبيب صورة من قلق الشّيخوخة وراء سلوك هوندا المعوجّ الّذي لاكته الألسنة كثيراً. وظهر مرضان على السّطح «رغبة جنسيّة بديليّة» وهو استحواذ يشبه ناراً منعكسة على صِقال مرآة، وهذا أمر لا ينبغي الاستخفاف به، والانقياد للشهوة الجنسيّة النّاجم عن الخرف. وقال المحامي إنّ كلّ ما عدا ذلك يمكن تركه للنظام القانوني. وأضاف أنّه سيكون أمراً طيباً إذا ما بدأ هوندا بإنفاق ماله على نحو يفتقر إلى الحكمة، وبشكلٍ يثير المخاوف من أن تتعرّض ممتلكاته للخطر، ولكن من سوء الطّالع أنّ مثل هذه التوجّهات لم يكن لها وجود. وعلى أيّة حال فقد كان هوندا أقلّ قلقاً على المال منه على السّلطة.

- ٢٧ -

في أواخر تشرين الثّاني (نوفمبر)، وصلت إلى تورو من كيكو بطاقة دعوة رائعة باللّغة الإنجليزيّة بحروف غائرة في الورق.

وكانت معها رسالة.

العزيز تورو

كنت مهملة للغاية، فيما يتعلق بالبقاء على اتّصال بك.

يبدو أنّ الجميع قد أنجز ترتيباته فيما يتعلق بمساء عيد الميلاد، وهكذا فإنّني أقيم حفل عيد ميلاد قبل موعده، في العشرين من كانون الأوّل (ديسمبر). لقد دعوت دائماً، حتّى الآن، أباك ولكني اضطررت إلى استنتاج أنّه بسبب إيغاله في العمر فإنّ توجيه دعوة له سيكون مصدر إزعاج. إنّني أدعوك بدلاً منه. وأعتقد أنّنا ينبغي أن نُبقي هذا الأمر سرّاً بيننا، وذلك هو السّرّ في أنّني وجّهت الدّعوة إليك، وجعلتها معنونة باسمك.

أخشى أن يكشف قول ذلك أكثر ممّا ينبغي، فيما يتعلّق بما أسرّه، ولكنّ الحقيقة هي أنّه منذ حادث أيلول (سبتمبر) وجدت من الصّعب أن أوجّه الدّعوة إلى أبيك، توقيراً للضيوف الآخرين. أعلم أنّني سأبدو لك صديقة سيّئة، ولكن في عالمنا فإنّ الضّربة الأخيرة تحلّ عندما يصبح الخاصّ عاماً. ويتعيّن عليَّ التزام الحذر البالغ.

إنّ السّبب الحقيقي الّذي يدعوني إلى دعوتك هو أنّني من خلالك

أواصل علاقاتي بعائلة هوندا، ومن هنا سيسعدني أن يكون بمقدورك قبول هذه الدّعوة.

هكذا، شرّفني، لطفاً، بحضورك وحدك! سيكون بين الضّيوف الآخرين كثير من السّفراء وزوجاتهم وبناتهم ووزير الخارجيّة وزوجته ورئيس اتّحاد المنظّمات الاقتصاديّة وزوجته وأعداد من السّيّدات الأخريات الجميلات كذلك. وسترى من الدّعوة أنّها لحفلة بملابس السّهرة السّوداء، وسيكون مصدر عون كبير أن يكون بمقدورك إبلاغي، عاجلاً، ما إذا كنت ستتمكّن من الحضور أو لا.

المخلصة

كيكو هيساماتسو

بمقدور المرء، إذا ما اختار ذلك، أن ينظر إلى هذه الرّسالة باعتبارها رسالة وقحة، متعالية، ولكنّ تورو ابتسم إزاء فكرة حيرة كيكو، بعد حادث أيلول (سبتمبر). واستطاع أن يقرأ بين السّطور أنّ كيكو الّتي كانت شديدة الفخر بتجاهلها للأخلاق، قد تراجعت، مرتجفة، لتعتصم وراء بوّابات مُرْتَجَة، في مواجهة الفضيحة.

لكنّ شيئاً في الرّسالة أثار إحساساً حذراً مرهفاً في نفس تورو. أن تقوم كيكو، تلك الحليفة العتيدة لأبيه، بتوجيه الدّعوة إليه ـ ألا يمكن أن يكون ذلك بقصد السّخرية منه والعبث به؟ أليس من الممكن أن يكون قصدها من تقديمه إلى كلّ أولئك الضّيوف المغرورين باعتباره ابن شيجيكوني هوندا هو استثارتهم ومن ثمّ إحراجه هو، لا هوندا؟ ذلك هو القصد. لاشكّ في ذلك.

استثيرت غرائز تورو القتالية. لسوف يمضي إلى الحفل باعتباره ابن هوندا السيّئ الصّيت. لن يتناول أحد الموضوع، بالطبع. ولكنّه سيتألّق باعتباره ابناً لا يلتمس الصّفح عن أبٍ سيّئ الصّيت.

لسوف تتحرّك الرّوح الشّاحبة، في صمت، وسطهم، وعلى شفتيها ابتسامة جميلة، واهنة، وحزينة بعض الشّيء، فيما الهياكل العظميّة لفضيحة عائليّة (يا لها من أمور بهيميّة هيّنة الشّأن) لم تقترف من الأمر شيئاً لتصطفّ بجانبها. كان بوسع تورو أن يدرك كلّ ذلك الشِّعر الشّاحب. لسوف يدفع الازدراء والتدخّل من جانب الكبار بالفتيات، على نحو لا يقاوم، باتّجاه تورو. ولسوف يبين خطأ تقديرات كيكو.

اضطرّ تورو الّذي لم يكن لديه زيّ السّهرة الرّسمي إلى طلبه على نحو عاجل، وارتداه متعجّلاً، عندما تلقّاه في التّاسع عشر من كانون الأوّل (ديسمبر)، ومضى ليريه لكينوي.

ـ تبدو فيه أنيقاً للغاية. جميل. أعلم مدى عمق رغبتك في أن تصحبني للرقص مرتدياً إياه. يا له من أمر مثير للرثاء أن أكون مريضة على هذا النّحو دائماً! يا له من أمر مثير للرثاء حقّاً! وذلك هو السّرّ في مجيئك لتريني إيّاه. ما أرقّ ذلك منك! لذلك أحبّك.

كان الترهّل هو الّذي جعل كينوي عاجزة عن الحركة، فقد كانت في خير صحّة، ولم تمارس أيّة رياضة، وخلال هذه الأشهر ازدادت بدانة؛ بحيث غدا من المستحيل التعرّف عليها، وأضفى الثّقل والعجز عن الحركة المزيد من الحدّة على أمراضها. وكانت تتناول باستمرار أقراص الكبد، وتغرق في التّحديق من المقعد الطّويل في السّماء الزّرقاء عبر الأشجار. وكانت العبارة الّتي لا تملّ ترديدها هي أنّها لم

تتزوّد لهذا العالم. وكانت ابتلاء عظيماً للخادمات اللآتي أبلغهن تورو بأنّ عليهن ألاّ يضحكن، في أي ظرف من الظّروف

تمثّل ما أعجب به تورو في المكر الّذي تقوم به إذا ووجّهت بمجموعة من الظّروف، بالالتفاف حولها، وإقامة دفاعات تجعل التفوّق من نصيبها، وتعزّز جمالها، وربّما تضفي عليه مسحة من الطّابع المأساوي. وكانت قد أحسّت، على الفور، أنّه لم يقصد اصطحابها إلى خارج الدّار، ولذا استخدمت مرضها للتعامل مع الموقف. وحدّث تورو نفسه بأنّ لديه أموراً يتعلّمها من هذه الكبرياء الّتي تُرعى في عناد بالغ. لقد أصبحت كينوي معلّمته.

ـ استدر! إنّه بديع التّفصيل، وخطّ الكتف جميل. كلّ شيء يبدو مناسباً، عندما ترتديه، تماماً كما هو الحال بالنّسبة إليّ. طيّب، لابدّ أن تنساني مساء الغد، وتمتّع نفسك. ولكن عندما تصل إلى ذروة المتعة فكّر، للحظة واحدة، في الفتاة المريضة الّتي تركتها وراءك في الدّار، ولكن للحظة واحدة. إنّك بحاجة إلى زهرة في طيّة صدر سترتك. لو أنّني كنت قويّة بما فيه الكفاية فقط لمضيت، وقطفت زهرة بنفسي من أجلك. أيتها الخادم، لطفاً! وردة الشّتاء، الوردة الحمراء، إذا سمحت!

جعلت الخادم تقطف وردة صغيرة، قرمزيّة اللّون، تكاد تشقّ طريقها إلى التفتّح، ودسّتها بنفسها في عروته.

ـ هكذا!

دفعت بأشدّ الأصابع وهناً، وقرباً من الاضمحلال، ساق الزّهرة عبر العروة، وأضافت:

ـ اخرج إلى الحديقة ودعني أنظر إليك!
بدا القوام البدين وكأنّه يلفظ آخر أنفاسه.

في الموعد المحدَّد، السّابعة مساء، توقّف تور بسيّارته الموستانج، حسبما وجّهته الخريطة، عند ممشى مفروش بالحصى البيضاء، في أزابو. ولم تكن هناك سيّارات أخرى، بعد.

دهش إزاء مدى قِدَم طراز دارة كيكو. حدّدت المصابيح تحت الأشجار بأضوائها واجهة دائريّة، وأحاط بالمكان شيء يبدو شجياً للغاية، وتعمّق هذا الأثر من خلال اللّبلاب الأحمر الّذي ألقى اللّيل عليه بظلمته.

أدخله كبير خدم دسّ كفّيه في قفّازين أبيضين، عبر الرّواق الدّائري، المقبّب، إلى قاعة استقبال على طراز مومویاما المترف، وهناك دُعي للجلوس في مقعد من طراز لويس الخامس عشر. أحسّ بخجل بالغ إذ ألفى نفسه أوّل الضّيوف. كانت الدّار مضاءة على نحو متألّق، ولكنّها ساكنة. وكانت هناك شجرة عيد ميلاد في أحد الأركان، بدت ناتئة عن المكان. وإذ تُرك وحيداً، عندما تلقّى كبير الخدم أمره بجلب الشراب، انحنى على النّافذة العتيقة الطّراز، المزوّدة، بألواح زجاجيّة متميّزة، وتطلّع عبر الأشجار نحو أنوار المدينة وسماءٍ جعلها النّيون تضرب إلى لون الأرجوان.

فتح باب ودلفت كيكو إلى القاعة.

بهره الثّوب الرّسمي، المتألّق، الّذي ارتدته المرأة السّبعينيّة، الواقفة أمامه، إلى حدّ لم يُجِرْ معه حديثاً. تدلّى رُدنا الرّداء اللّيلي حتّى أسفله، وبدا مزيناً بالخرز على امتداد سطحه بكامله. كانت الألوان المتغيّرة وأشكال الخرز المتقلّبة من الجمال بحيث تذهل

العين. على الصّدر كان هناك جناحا طاووس باللّون الأخضر، على أرضيّة ذهبيّة، وموجات من الأرجوان على الرُّدنين، ونموذج زخرفي بلون النّبيذ، يمتدّ حتّى الخصر، وأمواج أرجوانيّة وسحب ذهبيّة على التّنورة، وقد أبرزت الحدود الكثيرة باللّون الذّهبي. وحُدِّد بياض أرضيّة الأورجندي بنمط زخرفي غربيّ ثلاثيّ الطيّات في شبكة فضيّة. ومن التّنورة ظهر أصبع خفّ من السّاتان الأرجواني. وعند الجيد الأتلع دثار زمردي من قماش الجورجيت، وقد تدلّى على الكتفين، وامتدّ حتّى بلغ الأرضيّة. وأسفل شعرهها الّذي قصّ أقصر وأقرب للرأس من المعتاد، تدلّى قرطان ذهبيان. وبدا على وجهها الطّابع المتجمّد لامرأة شملها بالعناية أكثر من مرّة أطباء جراحات التّجميل، ولكنّ الأجزاء الّتي كانت ماتزال تحت سيطرتها بدت وكأنّها تؤكّد نفسها، بمزيد من الكبرياء. العينان اللّتان توقع نظرتهما رهبة وجلالاً في النّفوس. الأنف الأشمّ. الشّفتان اللّتان تشبهان قطعاً سوداء ـ حمراء من تفّاحة شرع العطب يدبّ إليها، عذبت لتدفع نحو حمرة أشدّ تألّقاً.

ـ معذرة لإبقائك في الانتظار!

قالتها كيكو، متألقة، ودنا منه الوجه بابتسامته المنحوتة.

ـ تبدين في مظهر باهر.

ـ شكراً لك.

لوقت قصير، وعلى نحو مجرّد، وبالأسلوب الغربي، أبدت له خيشوميها البديعي التكوين.

جُلبت المقبّلات.

ـ ربّما كان ينبغي أن تخفض حدّ الأنوار.

أطفأ كبير الخدم أنوار الثّريا. وفي توهّج ضوء شجرة عيد الميلاد، توهّجت عينا كيكو توهُّجَ الخرز في ثوبها. شرع تورو في الشّعور بعدم الارتياح.

تأخّر الآخرون. أم تراني جئت مبكّراً؟

ـ الآخرون؟ أنت ضيفي الوحيد هذا المساء؟

ـ هكذا، كنت تكذبين، فيما يتعلّق بالآخرين.

ـ آه، آسفة. لقد غيّرت خططي، وحدّثت نفسي بأنّني سأقيم حفلة عيد الميلاد وحدي معك.

ـ أحسب أنّني سأستأذن في الانصراف.

ـ لِمَ؟

قالتها كيكو وقد جلست بهدوء، دون أن تأتي بحركة توحي بالاتّجاه لمنعه.

ـ نوع من المؤامرات، أو فخّ. شيء تحدّثت بشأنه، على أيّة حال، مع الأب. لقد سمئت العبث به.

كان قد كره هذه العجوز، منذ أوّل لقاء لهما.

لزمت كيكو السّكون.

ـ لو أنّه كان شيئاً تحدّثت بشأنه مع السّيّد هوندا لما جشّمت نفسي كلّ هذا العناء. لقد دعوتك لأنّني أردت التحدّث معك مطوّلاً، على انفراد. صحيح أنّني كذبت عليك لأنّني كنت أعرف أنّك لن تحضر إذا ما كنت ضيفي الوحيد. ولكنّ عشاء عيد ميلاد يحضره اثنان يظلّ عشاء عيد ميلاد. وها نحن وحدنا نرتدي ملابس الحفلات.

ـ أحسب أنّك تريدين إلقاء محاضرة مستفيضة عليَّ.

غضب تورو من نفسه لأنّه تركها تنتحل الأعذار.

ـ لا شيء من هذا النّوع، فكلّ ما أردته هو الحديث معك بهدوء عن بعض الأمور الّتي سيخنقني السّيّد هوندا بسببها، إذا ما عرف بحديثنا عنها. إنّها أسرار لا يعرفها إلاّ أنا والسّيّد هوندا. وإذا لم تُرِد سماعها فشأنك وما تريد.

ـ أسرار؟

ـ ما عليك إلاّ الجلوس هنالك، بهدوء، إذا سمحت!

أشارت، وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة ساخرة على نحو رائع، إلى حفل الحديقة البالي بعض الشّيء من إبداع واتو على المقعد الّذي تركه تورو لتوّه.

أعلن كبير الخدم عن تناول طعام العشاء، وفتح أبواباً خالها تورو جداراً، وصحبهما إلى الغرفة المجاورة حيث أعدّت المائدة وأضيئت عليها شموع حمراء، وأصدر ثوب كيكو خشخشة مميّزة.

عكف تورو الّذي لم يكن ممّن يشجّعون على الحوار، على تناول طعامه بصمت. استشاط غضباً من جديد، عندما خطرت بباله فكرة أنّ المهارة الّتي استخدم بها الشّوكة والسّكين كانت نتيجة لإشراف هوندا الدّؤوب، إشراف لجعل النّاس يظنّونه خبيراً منذ وقت طويل في توق لم يكن قد عرفه إلى أن قابل هوندا وكيكو.

كانت أصابع كيكو الممسكة بالشّوكة والسّكين فيما وراء الشّمعدان المنتمي إلى فنّ الباروك، وقد بدت هادئة في شرود، شأن عجوز عاكفة على نسج الصّوف يدوياً، تبدو كأصابع فتاة في مقتبل العمر دُفعت إلى الشّيخوخة دفعاً.

كان لحم الدّيك الرّومي البارد بلا طعم وكأنّه جلد جافّ لامرأة عجوز، وبالنّسبة إلى تورو كان لطعم الحشو، المؤلّف من الكستناء وحلوى هلام التّوت البرّي، المذاق السّكاريني للنفاق.

ـ أتعلم لماذا تمّ السّعي وراءك فجأة لتغدو وريث آل هوندا؟

ـ كيف لي أن أعلم؟

ـ ما أعظم تساهلك! لم ترغب في أن تعرف؟

لم يُحِر تورو ردّاً. وضعت كيكو سكّينها وشوكتها، وأشارت من خلال دخان الشّمعة إلى صدر زيّ سهرته.

ـ الأمر كلّه بسيط. إنّه راجع إلى أنّ لديك ثلاث شامات على الجانب الأيسر من صدرك.

عجز تور عن إخفاء دهشته. لقد عرفت كيكو بأمر هاته الشّامات الثّلاث، جذر كبريائه، وما كان ينبغي أن تجذب انتباه أحد ما خلاه. وبعد لحظة استعاد سيطرته على نفسه. جاءت الدّهشة من الحقيقة القائلة بأنّ رمز كبريائه قد تطابق مع رمز شيء ما لشخص آخر. وعلى الرّغم من أنّ الشّامات ربّما أطلقت العنان لذلك الشّيء فإنّ ذلك لا يعني، بالضّرور، أنّ تورو قد تم اكتشاف أمره. ولكنّه كان قد قلّل من شأن بديهة الكبار.

بدا أنّ الدّهشة البالغة الوضوح على وجهه قد منحت كيكو ثقة أعظم، فتدفّقت الكلمات.

ـ أترى؟ ليس بمقدورك تقدير الأمر. كان الأمر فارغاً للغاية، وبالغ الحمق، في البداية. لقد حدّثت نفسك بأنّك أفلحت في تدبير كلّ شيء ببرودة وواقعيّة، ولكنّك ابتلعت المقدّمات العبثيّة كاملة.

منذا الّذي يبلغ به الحمق حدّ الرّغبة في تبنّي غريب عنه لا تربطه به صلة لدى لقاء واحد لا لشيء إلاّ لأنّه شعر بالودّ نحوه؟ ما الّذي حسبته عندما طرحنا الاقتراح للمرّة الأولى؟ لقد انتحلنا أنواع الأعذار كافّة لك ولرؤسائك، بالطّبع. ولكن ما الّذي حسبته حقّاً؟ أتصوّر أنّ الأمر ملأ نفسك تيهاً؛ فالنّاس يحبّون الاعتقاد بأنّ لهم مواضع قوتهم. لقد ظننت أنّ أحلامك الطّفوليّة واقتراحنا قد تقابلا على نحو رائع؟ أنّ ثقتك الطّفوليّة الغريبة قد تمّ تبريرها؟ أذلك ما حسبته؟

شعر تورو للمرّة الأولى بالخوف من كيكو. لم يحسّ بأدنى ارتباك بسبب الفارق الطّبقي، ولكن هناك أشخاصاً يحظون بالقدرة على شمّ ما يستحقّ المطاردة. إنّهم قاتلو الملائكة.

انقطع خيط الحوار لدى تقديم الحلوى. وكان تورو قد ترك اللّحظة المناسبة للردّ تنقضي؛ فقد عرف أنّه لم يفِ عدوّته حقّها.

ـ أتحسب أنّ آمالك تتوافق مع آمال شخص آخر، وأنّ آمالك يمكن أن يحقّقها لك آخر؟ إنّ النّاس يحيون من أجل أنفسهم، ولا يفكّرون إلاّ في ذواتهم، وأنت، يا من تفكّر في نفسك فحسب أكثر من معظم النّاس، مضيت إلى أبعد ممّا ينبغي، وتركت نفسك للعمى!

حسبت أنّ للتاريخ استثناءاته. ليس هناك استثناءات، حسبت أنّ للعرق استثناءاته. ليست هناك استثناءات.

ليس هناك حقّ خاصّ في السّعادة، ولا حقّ خاصّ في التّعاسة. ليست هناك مأساة، وليست هناك عبقريّة، وثقتك وأحلامك لا أساس لها. وإذا كان هناك على هذه الأرض شيء استثنائي، جمال

استثنائي، أو شرّ استثنائي، فإنّ الطّبيعة تكتشفه وتقتلعه من جذوره. وينبغي الآن أن نكون جميعاً قد تعلّمنا الدّرس الصّعب، القائل بأنّه ليس هناك شخص مختار أو من الصّفوة.

لقد ظننتَ ـ أليس كذلك؟ ـ أنّك عبقري، على نحو لا يمكن تعويضه. لقد نظرتَ إلى نفسك ـ أليس كذلك؟ ـ باعتبارك سحابة صغيرة من الشّرّ تنداح فوق البشر.

وقد أدرك السّيّد هوندا كلّ شيء في لحظة رؤية شاماتك، فقرّر في تلك اللّحظة أنّه لابدّ أن يبقيك بجواره؛ لينقذك من الخطر، وظنّ أنّه إذا ما تركك على نحو ما كنت، إذا تركك «لقدرك» فسوف تقتلك الطّبيعة في العشرين من العمر.

حاول إنقاذك بتبنّيك، بأن يسحق إلى قطع صغيرة كبرياءك «الّتي تليق بالآلهة»، بأن يدفع إلى أعماقك بقواعد العالم الخاصّة بالثّقافة والسّعادة بتحويلك إلى شاب عادي تماماً. لم تدرك أنّ لك المنطلقات الّتي نحظى بها جميعاً. وكانت تلك الشّامات هي رمز رفضك للإدراك. كانت العاطفة هي الّتي جعلته يتبناك، دون أن يخبرك بالسّبب في أنّه أراد انقاذك. بالطّبع، عاطفة رجل يعرف الكثير للغاية عن هذا العالم.

تفاقم شعور تورو بالاضطراب.

ـ لم تقولين إنّي سأموت في العشرين؟

ـ أحسب أنّ الخطر ربّما انحسر. دعنا نتحدّث عنه في الغرفة المجاورة!

كانت نيران متألّقة قد أضرمت في المدفأة. وتحت رفّ المائدة كانت ثمّة فجوة تزينها سحب ذهبيّة على الطّراز الياباني، وقد تدلّى

منها كوتاتسو، وفتح بابان ذهبيان صغيران للكشف عن موضع اتّقاد النّار. جلس تورو وكيكو أمام النّار، وقد وضعت منضدة صغيرة بينهما، وكرّرت كيكو قصّة الميلاد وإعادة الميلاد الطّويلة الّتي كانت قد سمعتها من هوندا.

أصغى تورو محدِّقاً في النّار، وانتفض لدى سماعه الصّوت الخافت النّاجم عن انهيار كتلة خشبيّة في المدفأة.

كان اللّهيب، في غمرة تشبّثه بكتلة خشبيّة ينبعث الدّخان منها، يتلوّى، ويعلو، ثمّ يتجلّى من جديد في الظّلمة القابعة بين كتلة وأخرى وقد بدا مرقده مترعاً باسترخاء. متألّق، هادئ. وشأن مسكن، كانت الأرضيّة الصّغيرة في رحاب دوار من ألوانها الحمراء والقرمزيّة موغلة في الهدوء، وقد حدّدها إطار خشن من الكتل الخشبيّة.

كان الدّخان، في بعض الأحيان، يتدفّق من خلال الكتل الجهمة، وقد حاكى حريقاً في الأعشاب، بعيداً في سهل ليلي. كانت هناك مجازات عظيمة في النّار، وكانت الظّلال، في غمرة حركتها في أعماق المدفأة، منمنمة لألسنة لهب لجيشان سياسي تطارد الظّلال عبر السّماء.

فيما لفظت ألسنة اللّهب أنفاسها الأخيرة على كتلة خشبيّة، كان مدى متوازن من اللّون القرمزي الهادئ يطلّ من أسفل مرقد الرّماد الرّقيق المصنوع من عظم ظهر السّلحفاة، مرتعشاً مثلما كومة من الرّيش الأشهب، وينهار الالتصاق الوثيق لكتل الخشب عند قواعدها، ثمّ يحترق محافظاً على توازن حرج، كصخرة هائلة في الهواء.

كان كلّ شيء يتدفّق، في غمرة الحراك. ومضت سلسلة الدّخان الهادئة، البالغة الثّبات، تتقطع، وكأنّما إلى الأبد. وجلب انهيار كتلة خشبيّة انتهت مهمّتها نوعاً من السّكون.

قال تورو، على نحو لاذع للغاية، عندما انتهى من سماع القصّة حتّى نهايتها.

ـ أمر مثير للاهتمام للغاية. ولكن أين البرهان.

تردّدت كيكو.

ـ البرهان؟ أهناك برهان على الحقيقة؟

ـ عندما تقولين كلمة «حقيقة» فإنّها تبدو زائفة.

ـ إذا طلبت البرهان فإنّني أتصوّر أنّ السّيّد هوندا قد حفظ، طوال كلّ هذه السّنوات، مذكّرات كيواكي ماتسوجاي. ويمكنك أن تطلب منه الاطّلاع عليها. لقد كتب عن الأحلام وحدها، ويقول السّيّد هوندا إنّها قد تحقّقت جميعها. ولكن ربّما لم تكن للأمر أهميّة. ربّما لم يكن لشيء ممّا قلته علاقة بك. فقد ولدت في العشرين من آذار (مارس)، وماتت ينج تشان في الرّبيع، ولديك هاته العلامات الثّلاث. وهكذا، يبدو أنّك تناسخها، ولكنّنا لم نتمكن من معرفة وقت موتها. وقد قالت شقيقتها التّوأم إنّ ذلك كان في الرّبيع فحسب، ولكن يبدو أنّها لم تستطع تذكّر اليوم، على وجه التّحديد، وتحرّى السّيّد هوندا الأمر بطرق لا حصر لها، ولكن دونما نجاح. وإذا كان ثعبان قد لدغها، بعد الحادي والعشرين من آذار (مارس)، فإنّك تمضي دونما عبء على كاهلك؛ فالرّوح تضرب في الأرجاء لمدّة أسبوع على الأقلّ، وهكذا فإنّ يوم مولدك ينبغي أن يكون بعد موتها بأسبوع.

ـ لست أعرف، في حقيقة الأمر، يوم مولدي، فقد كـان والـدي في البحر، ولـم يكن هناك من يُعنى بأمر التّفاصيل، وقد دُوِّن موعد التّسجيل باعتباره يوم الميلاد. ولكنّي ولدت قبل العشرين من آذار (مارس).

ـ كلّما كـان المـوعـد أكثر تبكيراً ضعـف الاحتمـال. ولكـن قـد لا يكون للأمر أهمّية، على أيّ حال.

ـ ليست للأمر أهمّية؟

بدت علامات الحنق جليّة على تورو.

بغضّ النّظر تماماً عمّا إذا كان قد صدّق القصّة الرّهيبة الّتي سمعها أو لا، فقد بدا إغفال أهمّيتها إنكاراً صارخاً لأسباب وجوده. وكانت كيكو تتمتّع بمقدرة على جعل الشّخص يبدو كالحشرة، وكان ذلك يقبع وراء مرحها الّذي لا يتغيّر.

في الضّـوء المنبعـث مـن النّـار، كـان زيّ السّهـرة المتعـدّد الألـوان يمجّ درجات لونيّة عميقة، ثريّة، وراح يتقوّس، ويلتفّ حولها وكأنّه قوس قزح في اللّيل.

ـ قد لا يكون للأمر أهمّية. ربّما كنت مخادعاً منذ البداية. وفي حقيقة الأمر فإنّني على يقين تامّ من أنّك مخادع.

ألقى نظرة عجلى على صورتها الجانبيّة. كانت قد تحدّثت إلى النّار وكأنّها تقدّم التماساً. لم يكن هناك سبيل إلى وصف روعة تلك الصّـورة الجـانبيّـة الّتـي تبـدّت متـوهّجـة بجـوار النّـار، وزادت النّـار المتألّقة في العينيين من شموخ الأنف الأشمّ الّذي ألقى الجميع في رحاب الاضطّراب الطّفولي وساد دونما هوادة.

راودت أفكار القتل ذهن تورو. كيف يمكنه أن يضايق هذه المرأة وأن يتركها مبتهلة من أجل الإبقاء على حياتها؟ كان على يقين من أنّه إذا خنقها أو دفع برأسها إلى ألسنة اللّهيب فإنّها ستنظر إليه بوجه محترق في كبرياء، وقد التفّت مَعْرَفة شامخة من النّار حولها. أصيب احترامه لنفسه في الصّميم، وخشي من كلماتها التالية الّتي يحتمل أن تجلب معها الدّم. كان أشدّ ما يخافه هو اندفاع الدّم من جرح مفتوح في احترامه لذاته. ولن يسمح المزاج النّزفيّ لهذا الاحترام للذات بوقف هذا الاندفاع. وهكذا كان حتّى الآن قد استخدم المشاعر كافّة لرسم خطّ فاصل بين العاطفة واحترام الذّات، وإذ تجنّب خطر الحبّ فقد سلّح نفسه بأشواك لا حصر لها.

لاحت كيكو وقد عقدت العزم، بهدوء وجلال، على قول ما يتعيّن أن يُقال.

ـ لسوف نعلم يقيناً أنّك مخادع، إذا لم تَمُتْ خلال الأشهر السّتّة المقبلة، لسوف نعلم أنّك لست النّمو من جديد للبذرة الجميلة الّتي كان هوندا يسعى وراءها، وأنّك ما يسمّيه عالم الحشرات بالمقلّد. وإنّي لأشك في أنّه سيتعيّن علينا الانتظار عاماً، فلا يبدو لي أنّه مقدّر لك أن تلقى حتفك خلال ستّة أشهر. وليس هناك فيما يتعلّق بك شيء حتمي، لا شيء يكره المرء أن يفقده. ليس فيك شيء يجعل المرء الّذي يتصوّر موتك يحسّ بأنّ ظلاًّ قد ارتمى على العالم.

إنّك فتى ريفي، صغير، خبيث، من النّوع الّذي يلقاه المرء في كلّ مكان. تريد أن تضع يديك على مال أبيك، وهكذا تدبّر لإعلام عدم أهليته قانوناً. إنّك مندهش. أليس كذلك؟ إنّني أعرف كلّ شيء. وعندما تملك المال والجاه فما الّذي تقترح السّعي وراءه بعد

ذلك؟ النّجاح؟ إنّ أفكارك لا تمضي خطوة واحدة فيما وراء أفكار أي فتى عادي. والطّريقة الوحيدة الّتي جافى الصّواب بها تدريب السّيّد هوندا لك هي أنّ هذا التّدريب لم يزد على أن أبرز طبيعتك الجوهريّة.

ليس هناك شيء مميّز على الإطلاق فيما يتعلّق بك، وإنّي لأضمن لك عمراً مديداً. لم تخترك الآلهة، ولن تتوحّد مع أفعالك قطّ، فليس في أعماقك ضوء أخضر يأتلق كبرق يتبرعم بسرعة، فتقضي على نفسك. وكلّ ما لديك لا يعدو أن يكون شيخوخة معينة حلّت قبل أوانها، لسوف تكون حياتك مناسبة لقصّ القسائم الورقيّة، ولا شيء أكثر من ذلك.

إنّك لا تستطيع قتلي، ولا قتل السّيّد، فنوع الشّرّ الّذي تنتمي إليه هو نوع قانوني، وإذ انتفخت بالأوهام الّتي وُلِدتْ من مفاهيم مجرّدة فقد مضيت تتبختر وكأنّك سيّد القدر، على الرّغم من أنّك لا تملك أيّاً من مؤهّلات ذلك. تحسب أنّ نظرك يمتدّ إلى أطراف الأرض، ولكنّك لم تتلقَّ مرّة واحدة دعوة إلى ما يتجاوز الأفق، وليس لك شأن بالنّور أو الاستنارة، وليست لك روح حقيقيّة، لا في اللّحم ولا في الفؤاد. وعلى الأقل فقد كانت روح ينج تشان تكمن في جمال لحمها المتألّق. وأمّا أنت فإنّ الطّبيعة لم تُلْقِ عليك نظرة واحدة، بل ولم تتألّق بالعِداء نحوك. إنّ من يبحث عنه السّيّد هوندا يتعيّن أن يثير في الطّبيعة مكامن الغيرة ممّا أبدعته.

لست إلاّ فتى حاذقاً، لا غير. وإذا ما دفع لك أحد المصروفات فإنّك تقطع الطّريق سباحة مجتازاً امتحانات القبول، وثمّة وظيفة جيّدة تنتظرك عند الطّرف الآخر. طالب مثالي لصندوق التّربية. مادّة

دعائيّة لفاعلي الخير الّذين يقولون إنّه إذا ما تمّ التكفّل باحتياجات المادّيّة فإنّ أنواع الكنوز كافّة ستظهر للعيان. لقد كان السّيّد هوندا أطيب ممّا ينبغي معك، ومحضك ثقة تفوق ما يجب. وقد وصف لك الجرعة الخاطئة، ذلك كلّ ما في الأمر. وأمّا إذا أعْطِيت الجرعة الصّحيحة فسوف تعود إلى جادّة الصّواب. وجعلك كاتم أسرار لسّياسي مبتذل من شأنه أن يجعلك تتدفّق نشاطاً. ولسوف يسعدني تقديمك إلى أحد هؤلاء السّاسة، على النّحو الّذي يناسبك، في أي وقت تشاء.

يحسن بك أن تتذكّر ما قلته لك. لقد رأيت، وتحسب أنّك رأيت كلّ شيء، ولكنّك لم ترَ ما يتجاوز الدّائرة الصّغيرة للتلسكوب الثّلاثيني. وأحسب أنّه كان حرياً بك أن تكون أسعد حالاً لو أنّنا تركناك تواصل الاعتقاد بأنّ ذلك هو كلّ العالم.

ـ لقد كنتما أنتما اللّذين جذباني جذباً خارج هذا العالم.

ـ أمّا الّذي جعلك تغادر فكان الظنّ بأنّك مختلف عن الآخرين.

لقد أوتي كيواكي ماتسوجاي من قبل حبّاً لا سبيل إلى التّنبؤ به، وانقض القدر على إيساو إينوما، وأُوتيت ينج تشان من قبل اللّحم. وأنت؟ ربّما من قِبَل شعور لا أساس له بأنّك مختلف؟

لو أنّ القدر كان شيئاً يمسك بتلابيب المرء من الخارج ويجرّه عقب ذلك جرّاً فإنّ الثّلاثة الآخرين كان لهم قدر. وهل أمسك بك شيء؟ نحن وحدنا، أنا والسّيّد هوندا.

ضحكت كيكو وهي تدع الطّاووس الأخضر والذّهبي المرتسم على صدرها ينال النّار، حسبما شاء، وأضافت:

ـ إنّنا عجوزان ضجران، باردان، كلبيّاً المزاج. هل بمقدور كبريائك أن تسمح لك حقّاً بأن تسمّينا قدراً؟ رجل وامرأة كريهان موغلان في العمر؟ متلصّص عجوز، وسحاقيّة كهلة؟

قد تظنّ أنّك عرفت الدّنيا حقّ المعرفة، ولكن العجوزين اللّذين يستدعيان فتى مثلك هما اللّذان عرفاها حقّاً. ومن يجتذب المزوِّد المغرور بالوعي هو الممارس المخضرم للتزويد بالوعي. ما من أحد آخر كان يمكن أن يجيء ليطرق بابك، بوسعك التيقّن من ذلك، وكان يمكن أن تمضي في الحياة دون الطّرقة، وكان من شأن النّتائج أن تكون على الحال ذاته، لأنّك لم يكن لك قدر، والموت الجميل ليس لك. ليس لك أن تكون كالثّلاثة الآخرين. الوارث الرّتيب، الكئيب، ذلك هو الدّور المناسب لك، لقد دعوتك اليوم لأتيح لك الفرصة لتعلم كلّ شيء عن الأمر.

راح تورو يرتجف، واستقرّت عينه على مسعر النّار بجوار المدفأة. كان من اليسير أن يمدّ يده إليه، متظاهراً بإذكاء النّار. ولن يثير فضولاً، ثمّ ليس عليه عندئذٍ إلاّ أن يهوي به. كان بمقدوره أن يحسّ بثقله في يده، وبوسعه أن يرى الدّم متناثراً، على المقعد الذّهبي والأبواب الذّهبيّة. ولكنّه لم يمدّ يده. شعر بالظّمأ، على نحو مخيف، ولكنّه لم يطلب الماء. بدا له الغضب الّذي أطلق اللّهب في وجنتيه كأوّل عاطفة عرفها، وظلّ هذا الغضب قابعاً في أعماقه.

- ٢٨ -

أقبل تورو، على نحو لم يفت أحداً، على هوندا متقدِّماً بمطلب، فقد أراد استعارة مذكّرات كيواكي.

تردّد هوندا في إعارته إيّاها، لكنّه كان أشدّ تردداً في عدم إعارتها.

سمح له باستعارتها يومين أو ثلاثة أيّام أصبحت أسبوعاً. وفي صبيحة الثّامن والعشرين، عندما عقد العزم على استعادتها، روّعته على حين غرّة صرخة مدوية أطلقتها الخادمات؛ فقد تجرّع تورو، في غرفة نومه، سمّاً.

ولمّا كان ذلك في نهاية العام فقد تعذّر استدعاء طبيب العائلة، واضطرّ هوندا إلى المخاطرة بتعرّض الأمر للانتشار واستدعى سيّارة إسعاف. وعندما جاءت، مطلقة صفيرها، امتدّ حائط من الفضوليين الّذين اشتدّ تلهّفهم إلى فضيحة من الدّار الّتي سبق أن قدّمت فضيحة بالفعل.

ظلّ تورو في غيبوبة، وكانت هناك تشنّجات، ولكنّ حياته لم تكن في خطر. غير أنّه أحسّ بآلام قاسية في عينيه عندما استردّ الوعي. ظهرت عوائق للرؤية في كلا العينين، وفقد البصر كليّة. كان السّمّ قد هاجم القرنيّة الّتي تدهورت حالتها، فلم يعد يُجدي فيها الإصلاح.

كان السّمّ كحول خشب صناعياً سُرق تحت جناح الفوضى الّتي تسود فترة نهاية العام من مصنع يملكه قريب لإحدى الخادمات.

وانخـرطـت الخـادم الّتـي اتّبعـت تعليمـات تـورو دون أن تطـرح أيّـة أسئلة، في البكاء، وأصرّت على أنّها لم تحلم بأنّه سيتجرّعه.

لم يُجِر تورو، الّذي أصابه العمى، قولاً على وجه التّقريب. وبعد انتهاء العام سأله هوندا عن المذكّرات.

ردّ بإيجاز:

ـ أحرقتها، قبيل تجرعي السّمّ.

وكـانـت إجابته في الصّميم عندما سئل عن تفسير لإقدامه على ذلك.

ـ لأنّني لا أحلم على الإطلاق.

طلب هوندا العون مرّات لا حصر لها من كيكو، في غضون وقوع هذه الأحداث. وكان ثمّة أمر غريب فيما يتعلّق بها، فقد بدا الأمر كما لو أنّها وحدها كانت تعلم بالدّافع الكامن وراء محاولة الانتحار.

ـ إنّ لـه ضعـف كبرياء معظـم الفتيـة. أتصـوّر أنّـه أقـدم على ذلـك ليبرهن على أنّه عبقريّ.

ولدى الضّغط عليها أقرّت بأنّها كشفت النّقاب عن كلّ شيء في حفل عيد الميلاد الّذي أقامته. وقالت إنّها قامت بذلك من منطلق الصّداقة، ولكنّ هوندا ردّ بأنّه لم يعد يرغب في رؤيتها بعد الآن. وهكـذا أعلـن نهـايـة صـداقـة جميلـة دامـت مـا يـزيـد على عقـديـن مـن الزّمان.

أُلغي إعلان عدم أهليّة هوندا قانونياً، والآن أصبح تورو الأعمى هو الّذي تمسّ حاجته إلى وصيّ. وكتب هوندا وصية موثّقة، وأتى فيهـا علـى ذكـر أكثـر الأوصيـاء الّـذيـن استطـاع التّفكيـر فيهـم قـابليـة للاعتماد عليه.

ترك تورو الجامعة، وظلّ مقيماً بالدّار لا يبرحها، ولم يبادل أحداً الحديث، إلاّ كينوي. وطردت الخادمات، واستعان هوندا بامرأة تحظى بتجربة في التّمريض. وقضى تورو معظم الأيّام في كوخ كينوي. وطوال اليوم كان يمكن سماع صوت كينوي الرّقيق، عبر الأبواب، ولم يبدُ على تورو الضّجر من الردّ.

مرّ عيد ميلاده في العشرين من آذار (مارس). ولم تبدُ عليه مظاهر الاحتضار. وتعلّم القراءة بطريقة بريل. ولدى انفراده بنفسه كان يصغي إلى الأسطوانات الموسيقيّة. وكان بوسعه تعرف الطّيور بشدوها. وذات يوم، بعد صمت امتدّ طويلاً، حادث هوندا وطلب أن يدعه يتزوّج كينوي. وعلى الرّغم من أنّ هوندا كان يدرك أنّ الجنون وراثي فقد منحه الإذن بذلك على الفور.

أوغل السّقوط في مساره، ولاحت علامات النّهاية بهدوء. وشأن شعرات تخز عنقه لدى عودته من حانوت الحلاق، فإنّ الموت الذي نسيه معظم الوقت، كان يعود ليخزه عندما يتذكّره. وبدا غريباً لهوندا أنّه على الرّغم من أنّ كافّة الاستعدادات قد اتّخذت لاستقبال الموت فإنّه لم يُقبِل.

كان هوندا مدركاً خلال هذه الأحداث المثيرة للانفعال لوجود ثقل معيّن في منطقة المعدّة، ولكنّه، خلافاً لما كان حريّاً به أن يفعله، لم يندفع في الطّريق إلى الطّبيب. وقد حدّده باعتباره عسراً في الهضم، واستمرّ ضعف شهيته بعد إقبال العام الجديد. ولم يكن ممّا درج عليه أن ينحّي الأمر جانباً باعتباره شيئاً ناجماً عن المتاعب الّتي واجهها، كما لم يكن من عاداته أن يرى في النّحول نتيجة للعناء الذّهني.

لكنّ ما حدث هو أنّه لم يبدُ أنّ هناك فارقاً بين ألم الرّوح وألم الجسم. ما الفارق بين الإذلال وتضخّم البروستاتا؟ بين لذعات الألم وذات الرّئة؟ كانت الشّيخوخة مرضاً مناسباً لكلّ من الرّوح والجسم. وكانت الحقيقة القائلة بأنّ الشّيخوخة مرض لا سبيل إلى البرء منه تعني أنّ الوجود مرض لا سبيل إلى البرء منه. كانت مرضاً لا يرتبط بالنّظريّات الوجوديّة، فقد كان الجسم نفسه هو المرض، كان موتاً باطناً.

لو أنّ سبب السّقوط الوئيد كان مرضاً لكان السّبب الأساسي لذلك، أي الجسم، مرضاً بدوره. كان جوهر الجسم سقوطاً وئيداً. كانت له في الزّمن بقعته الّتي تتيح له تقديم البرهان على الهلاك والسّقوط الوئيد.

لماذا لا يعي النّاس تلك الحقيقة لأوّل مرّة إلاّ والشّيخوخة تحلّ بهم؟ لماذا عندما تظن في ضعف مجتازةً آذانهم في مدّ الجسم القصير يلحظونها، لا لشيء إلاّ لينْسوها؟ لماذا لا يدرك الرّياضي الشّاب الممتلئ صحّة في الحمّام عقب تمارينه وهو يرقب قطرات الماء تلطم جسمه المتألّق كالفيض أنّ مدّ الحياة العالي هو نفسه أشدّ الأمراض قوّة، كتلة قاتمة عنبريّة؟

ما الحياة، الآن، بالنّسبة إلى هوندا، إلاّ الهرم، وما الهرم إلاّ الحياة. كان من الخطأ أن تواصل هاتان الكلمتان بلا انتهاء طعنهما إحداهما في الأخرى. الآن فحسب يعرف هوندا بعد سقوطه إلى هذا العالم بإحدى وثمانين سنة الجوهرَ المرتكس القابع في قلب كلّ اللّذات.

وإذ يظهر هذا الجوهر على هذا الجانب من الإرادة الإنسانيّة الآن،

وعلى الجانب الآخر بعد حين، فإنّه يرسل غمامة كمداء، دفاع الإرادة ضدّ الطّرح القاسي والرّهيب القائل بأنّ الحياة والهرم مترادفان. إنّ التّاريخ يعرف الحقيقة. التّاريخ هو النّتاج الأكثر بُعْداً عن الإنسانيّة للبشر. إنّه يجرف الإرادة الإنسانيّة بأسرها، وشأن الرّبّة كالي في كلكتا، يتقاطر الدّم من فيه، وهو يمزّق الأشلاء، ويُعْمِل أسنانه فيها طحناً.

إنّنا طعام يستخدم لملء معدة حيوان. وقد كان إمانيشي الّذي لقي حتفه في الحريق يدرك ذلك بطريقته السّطحية. وبالنّسبة إلى الآلهة، إلى القدر، إلى التّاريخ، وهو الجهد الإنساني الوحيد لتقليد الآلهة والقدر، كان من الحكمة ترك الإنسان بعيداً عن إدراك الحقيقة، إلى أن يوغل في العمر.

أي طعام كان هوندا! أي طعام لا غَناء فيه ولا طعم له ويعلوه التّراب! رافضاً بالغريزة أن يغدو ممّا تستطيبه اللّهاة، ها هوذا الآن في نهاية الأمر بأسره قد رغب في أن يطعن فم ملتهمه بعِظام وعيه الّتي لا طعم لها. ولكن الإخفاق كان أمراً مؤكّداً.

أصاب العمى تورو في غمرة محاولته الانتحار. أقبل عيد ميلاده الحادي والعشرون، وانقضى. ولم تكن لدى هوندا الرّغبة في رصد الآثار المحتملة الّتي خلّفها وراءه الشّخص المجهول الّذي لقي حتفه في العشرين، والّذي كان التّناسخ الحقّ. لو أنّه كان هناك مثل هذا الشّخص، طيّب. لم تعد لدى هوندا الطّاقة للإطلال على حياة ذلك الشّخص، كما أنّه لم يكن من شأنه القيام بهذا الجهد. لقد تركته حركات الأجسام السّماويّة جانباً. وبسوء تقدير بسيط مضت بهوندا،

وبتناسخ ينج تشان، إلى جُزأَيْن منفصلين من العالم. لقد شغلت ثلاثة تناسخات حياة هوندا، وبعد أن رسمت دروبها النّورانيّة عبر هذه الحياة (وتلك بدورها كانت حادثة أبعد ما تكون عن احتمال الوقوع) انطلقت بعيداً في انبثاقة نورانيّة أخرى إلى ركن مجهول من علّيين، ربّما في مكان ما، وفي زمان بعينه، سيقدّر لهوندا أن يلتقي فيهما بالتّناسخ المائة، الألف، المائة مليون.

لم يكن هناك ما يدعو إلى العجلة.

لِمَ التعجّل؟ إنّه لم يكن يدري حتّى إلى أين يمضي به دربه. إلى هذا وصل هوندا، الرّجل الّذي لم يكن في عجلة من أمر الموت. كان ما رآه في بنارس قابليّة البشر للدمار كجوهر أساسي للكون. لم يكن العالم الآخر قابعاً يرتجف فيما وراء الزّمن، كما أنّه لم يكن جاثماً يتألّق فيما وراء المكان. ولو أنّ الموت كان يعني العودة إلى العناصر الأربعة، التّحلل إلى الكيان المشترك، فإنّه لم يكن هناك قانون ينصّ على أنّ مكان الميلاد والميلاد من جديد يتعيّن ألاّ يكون مكاناً آخر غير هنا. كان حدثاً عارضاً، حدثاً عارضاً مجرّداً من المعنى تماماً أنّ كيواكي وإيساو وينج تشان قد ظهروا جميعاً إلى جوار هوندا. إذا كان عنصر في هوندا من النّوعية التي ينتمي إليها عنصر عند النّهاية الأخرى للكون، فليس هناك إجراء يقضي بالتبادل، ما إن تضيع الذّاتية الفردية الّتي من خلالها يستطيعون المجيء معاً عبر المكان والزّمان. والجزئي هنا والجزئي هناك لهما الأهمّية ذاتها، على وجه الدّقّة. ولم يكن هناك ما يمنع هوندا العالم التّالي من أن يكون عند أبعد جوانب الكون. وعندما تنظم الحبّات في نظام مختلف، بعد أن ينقطع الخيط، وتتناثر الحبّات على المائدة، فإن القاعدة الّتي لا

سبيل إلى التخلّص منها هي أنّه ما لم تكن حبّات قد سقطت تحت المائدة فلابدّ للعدد أن يكون كذي قبل.

إنّ الأبديّة لا تأتي إلى العالم لأنّني أظنّ أنّني على قيد الوجود. الآن بدا المذهب البوذي لهوندا صحيحاً من النّاحية الرّياضيّة. فالذّات هي نظام الحبّات الّذي تحدّده الذّات، ومن هنا فإنّه لا صلاحية له.

مضى تحلّل الجسم الّذي يكاد لا يكون ملحوظاً، مع هذه الخواطر جنباً إلى جنب، مثل عجلات عربة يجرّها حصان. وكان أمراً لابأس به، بل بهيجاً، أن يُعبَّر عن الموضوع على هذا النّحو.

في أيّار (مايو)، أو نحو ذلك، شرع يعاني من آلام في البطن. كانت آلاماً شرسة للغاية، وتمتدّ في بعض الأحيان إلى الظهر. وفي الوقت الّذي كان مايزال يلتقي فيه كيكو، كانت الأوجاع تشقّ طريقها على نحو حتمي إلى الحوار، فيتحدّث عرضاً عن وجع خطير، وباندفاع كبير تضع هذا الوجع على مائدة التّشريح، ويتنافس نوع ضارب من الرّقّة مع ميل ودّي إلى المبالغة، فتسند إلى هذا الوجع كلّ الاصطلاحات الطّبيّة الموحية بالأذى الّتي يمكن أن تَرِد على ذهنها، وسرعان ما ينطلق إلى المستشفى بروح ما يوشك أن يكون تهريجاً. أمّا الآن وهو لم يعد يلتقي بكيكو فإنّه فقد إلى درجة مذهلة هذا النّوع الحماسي من القلق. وترك أمر الألم، الّذي يمكنه تحمّله، لرعاية القائمة بتدليكه. وحتّى فكرة الذّهاب إلى طبيب بدت له مرهقة

جلب الاستنزاف العام والهجمات المتواترة الّتي يشنّها المرض حقّاً قوى جديدة ساعدته على التفكير. كان مخّه الموغل في العمر

قد فقد القدرة على التّركيز. ولكنّها عادت إليه الآن، بل إنّ الألم أوغل فيه بمزيد من العدوانيّة، ليجلب خواصَّ جوهريّة معيّنة غير الخواصّ العقلانيّة الخالصة. كان هوندا في الحادية والثّمانين من العمر قد ارتقى إلى أقنوم عجيب، وغامض، كان مُوصَداً في وجهه قبل الآن. وأصبح الآن يعرف أنّ رؤية أكثر شمولاً يمكن تملّك ناصيتها من التّداعي العضوي بأكثر ممّا يمكن تحقيقها من الذّكاء، من ألم كئيب في الأمعاء بأكثر ممّا تستمدّ من العقل، من فقدان الشّهية بأكثر ممّا تتحقّق من التّحليل. فما إن تضاف إضافة واحدة من ألم غامض في الظّهر إلى عالم كان بالنّسبة إلى عين العقل الصّافية هيكلاً دقيق التّفاصيل حتّى تبدأ التصّدعات بالظّهور في الأعمدة والعقود، وما بدا صخرة صلبة برهن على أنّه فلّينة هشّة، وما لاح شكلاً متماسكاً تحوّل إلى هُلام بدائي.

وصل هوندا، من تلقاء ذاته، إلى ذلك الشّحذ للحواس الّذي لا تحقّقه إلاّ قلّة في العالم، إلى أن يعيش الموت من الدّاخل. وعندما تطلّع إلى الوراء ملقياً نظرة على الحياة من جانبها القصيّ البعيد باعتبارها شيئاً يتجاوز رحلة على سطح مستوٍ، معلّقاً الآمال على أن ما ناله الانحطاط سيعود إلى الانتعاش، وساعياً إلى الاعتقاد بأنّ الألم عابر، ومتشبّثاً بشَرَهٍ بالسّعادة باعتبارها شيئاً ينتمي إلى اللّحظة الرّاهنة، ومفكّراً في أنّ الحظّ الحسن لابدّ أن يعقبه حظّ سيّئ، ومشاهداً في كلّ الارتفاعات والانخفاضات، الارتفاعات والسّقطات، الأساس للاحتمالات الّتي تنتظره ـ ألفى كلّ شيء في موضعه، متماسكاً بإحكام، والمسيرة نحو النّهاية تمضي بانتظام. اختفى الجاحز بين الإنسان والشيء. وحظي المبنى الهائل ذو الطّوابق

العشرة المقام على الطراز الأميركي والبشر الّذين يسيرون عند أدناه بوضعيّة قوامها أنّهم سيبقون بعد هوندا، ولكن هناك وضعية مماثلة في الأهمّية هي أنّهم سيسقطون، شأن اللاجرسميّة الهنديّة الّتي اجتُثت بوقاحة. لم يعد لدى هوندا سبب يدفعه إلى التّعاطف، وكان قد فقد الخيال الّذي يثير التّعاطف. وكانت الخسارة سهلة الاحتمال، ذلك أنّه كان على الدّوام ينقصه الخيال.

كان العقل مايزال يعمل، ولكنّه مجمّد. وغدا الجمال شبحاً.

وفقد أعظم ما تُبتلى به الرّوح، النّزوع إلى الإرادة، وإلى التّخطيط، وقد كان ذلك بأحد المعاني أعظم تحرّر أتاحه الألم.

سمع هوندا الثّرثرة الّتي تلفّ العالم وكأنّها غبار ذهبي، وهي تزعم بضجيجٍ عال، أنها باقية دائماً.

ـ دعنا نَمْضِ إلى أحد الينابيع الحارّة، يا جدي، عندما تشعر بتحسّن. أتحبّ الذّهاب إلى نبع يوموتو أم أن نبع إكاهو سيكون أفضل؟

ـ دعنا نتناول شراباً، عندما يوقّع العقد.

ـ دعنا نفعل ذلك.

ـ أصحيح أنّ الوقت الحالي هو الوقت المناسب لدخول سوق الأوراق الماليّة؟

ـ هل أستطيع أن أتناول عندما أكبر علبة بكاملها من فطائر القشدة المنتفخة وحدي؟

ـ دعنا نذهب إلى أوروبا في العام المقبل..

ـ خلال ثلاث سنوات سيكون بمقدوري شراء زورق من مدّخراتي.

ـ ليس بمقدوري أن ألقى حتفي مطمئناً إلاّ بعد أن يكبر.
ـ سأحصل على معاشي ونبني داراً ونحظى بشيخوخة هادئة.
ـ الثّالثة من بعد غد؟ لست أدري ما إذا كان بمقدوري الذّهاب في ذلك الوقت أو لا. لا، عليك أن تصدّقني! لست حقّاً أراوغ. لنفرض أنّنا نقول إنّك ستكون هناك، إذا راق لك ذلك.
ـ سيتعيّن علينا شراء مكيّف هواء جديد.
ـ إنّها مشكلة حقيقيّة. أليس بمقدورنا خفض نفقات التّرفيه على الأقلّ في العام المقبل.
ـ يقولون إنّ بمقدورك عندما تبلغ العشرين أن تحصل على ما تشاء من الخمر والسّجائر.
ـ شكراً لك. هذا لطف منك. في السّادسة من مساء الثّلاثاء المقبل.
ـ ذلك هو لبّ الموضوع. ذلك هو طبعه. ما عليك إلاّ الانتظار يومين أو ثلاثة أيام وستراه مقبلاً ليعتذر، وقد ارتسم الخنوع على ملامحه.
ـ إلى اللّقاء. أراك غداً.

ثعالب كلّهم، يسيرون على درب الثّعالب. وما على الصيّاد إلاّ أن يقبع منتظراً في الأجمة.

بدا لهوندا أنّه كان ثعلباً بعينيْ صيّاد، يمضي على درب الثّعالب حتّى وإن كان يعلم أنّه سيُصاد.

دنا الصّيف والنّضج.

كان منتصف تمّوز (يوليو) قد حلّ عندما دفع هوندا نفسه دفعاً إلى تحديد موعد للفحص، في معهد بحوث السّرطان.

في اليوم السّابق ليوم الموعد ألقى هوندا نظرة نادرة من نظراته على جهاز التّلفزيون. كان الأصيل مشمساً، وقد أقلعت السّماء لتوّها، عقب انهمار أمطار الصّيف. وكانت هناك لقطة لمسبح. وفي زرقة الماء المصطنعة على نحو لا يسرّ النّاظرين، راح شبان ينثرون الماء، ويتقافزون، ويسبحون.

يا لرائحة الجسد الجميل الواهنة المتبدّدة سريعاً!

كان إنكار الجسد والنّظر إليهم باعتبارهم هياكل عظميّة تلهو قرب مسبح تحت شمس الصّيف شيئاً عادياً، كئيباً. بمقدور أي أحد أن ينكر الحياة، وأن يرى العظام تحت السّطح المترع شباباً. بمقدور أكثر الأشخاص عادية وابتذالاً أن يقوم بهذا.

أي انتقام يمكن أن يكون في ذلك؟ لسوف يُنهي هوندا حياته دون أن يكون قد عرف مشاعر صاحب الجسد الجميل. لو أنّه كان بمقدوره أن يحيا في إهابه لشهر واحد! كان ينبغي عليه أن يجرّب ذلك. ما الّذي يتعيّن أن يكون عليه ارتداء هذا الإهاب الجميل؟ أن يرى النّاس وهم يتهاوون أمامه. عندما يتجاوز الإعجاب مرحلة الرّقة واللّطف ويغدو عبادة جنونيّة فإنّه يصبح عذاباً لصاحب الجسد الجميل. وفي الهذيان والعذاب قداسة حقيقيّة. كان ما فات هوندا هو الممرّ المظلم، الضيّق، عبر الجسد، إلى القداسة. وكان الرّحيل عبر ذلك الممرّ، بالطّبع، امتيازاً مقتصراً على القلّة.

سيجري له فحص دقيق في الغد. ولم يكن يدري ماذا عساها تكون النّتائج. يتعيّن عليه، على الأقلّ، أن يكون نظيفاً. أمر بإعداد الحمّام قبل طعام العشاء.

كانت مدبّرة الدّار، المتوسطة العمر، والممرضة السّابقة الّتي عيّنها هوندا دون الرّجوع إلى تورو امرأة تعسة، ترمّلت مرّتين، ولكنّها كانت نموذجاً للطيبة والإخلاص. وحدّث هوندا نفسه بأنّ عليه أن يأتي على ذكرها في وصيّته، بل إنّها كانت تصحبه حتّى يصل إلى حوض الحمّام، خوفاً من سقوطه، وتترك وراءها مناظرات قلقها وكأنّها خيوط في غرفة تغيير الملابس. ولم يحسّ هوندا بالارتياح لرؤية امرأة له عارياً. خلع رداء حمّامه أمام المرآة الّتي ضبَّبها البخار. وتطلّع إلى نفسه. كانت أضلاعه بارزة على نحو حادّ، وبطنه مدلّى، وفي ظلّه تدلّى عضو ذاوٍ، أبيض، وفي الأسفل ساقان بيضاوان بدا أنّ اللّحم قد قطع منهما قطعاً. كانت الرّكبتان تبدوان كورمين. كم من السّنين من خداع النّفس يقتضي الأمر للعثور على تجدّد الشّباب في هذا القبح؟ ولكنّه كان بمقدوره أن يعزّي نفسه بابتسامة رثاء ممتدّة إزاء فكرة مدى سوء الوضع لو أنّه كان جميلاً في المقام الأوّل.

استغرقت الفحوص أسبوعاً. ومضى إلى المستشفى للاطّلاع على النّتائج.

ـ ينبغي أن تحضر في الحال، وكلّما أسرعت كان أفضل.

هكذا وقعت الواقعة. ابتسم الطّبيب ابتسامة بهيجة وكأنّه يلوم هوندا على إهماله.

ـ لم نعثر له على أثر في كلّ تلك المرّات الأخرى. ويبدو من الإجحاف أن يقفز ناهضاً، على حين غرّة، دون سابق إنذار. ولكن يبدو أنّه لا يوجد أكثر من ورم حميد على البنكرياس. وكلّ ما يتعيّن علينا القيام به هو استئصاله.

ـ لم تكن المعدة؟

ـ البنكرياس. إذا ظهرت الصّور الملتقطة بالمنظار الدّاخلي فسوف أريها لك.

تطابق التّشخيص مع تشخيصه الشّخصي، وطلب الإرجاء لمدّة أسبوع.

كتب رسالة ضافية، وبعث بها بالبريد المضمون. وكان المراد منها إبلاغ معبد جيشو أنّه سيزوره في الثّامن والعشرين من تمّوز (يوليو). ولمّا كانت الرّسالة ستصل في العشرين من تمّوز (يوليو)، أي اليوم التّالي للإرسال، أو في الحادي والعشرين، فقد علّق الآمال على أنّ رئيسة الكاهنات قد يمكن إقناعها باستقباله. أتى، في الرّسالة، على ذكر حياته العمليّة، عبر السّنوات السّتين الماضية، واعتذر لعدم انتظاره وصول دعوة إليه، وأوضح أنّ الأمر عاجل للغاية.

في الحادي والعشرين من تمّوز (يوليو)، صبيحة مغادرته الدّار مضى إلى الكوخ.

ناشدته مدبّرة الدّار أن يصحبها معه إلى نارا، ولكنّه قال إنّه يتعيّن عليه القيام بهذه الرّحلة وحيداً، فأعطته تعليمات مُسْهَبة. ملأت حقيبته بالملابس الثّقيلة، لحمايته من تكييف الهواء. وكانت الحقيبة أثقل، على وجه التّقريب، ممّا يمكن لرجل عجوز أن يحمله.

زوّدته كذلك بتعليمات مفصّلة عن زيارته للكوخ. وبدا له أنّها تعتذر عمّا اعتبرته اختلاسات للنظر من جانبها.

ـ لابدّ لي من أن أقول لك إنّ السّيّد تورو يرتدي ذلك الكيمونو الأبيض مثلما يكتسي الطّير بريشه. والآنسة كينوي مولعة به على نحو

فظيع، وعندما حاولت انتزاعه وغسله عضت إصبعها. وهكذا فإنّه مايزال يرتديه. وكما تعلم، فإنّه ليس بالشخص الكثير المطالب. ولم يُبْدِ اكتراثاً بارتدائه لهذا الكيمونو الواحد ليلاً ونهاراً. يتعيّن عليك أن تستعدّ لذلك، ثمّ، ولست أعرف كيف أعبّر عن الأمر، فالخادمة الّتي ترعى شؤون الكوخ تقول إنّ من ستكون السّيّدة هوندا تتقيّأ كثيراً ولها عادت غريبة في تناول الطّعام. وهي تبدو مبتهجة لأنّها مريضة حقاً. على أيّة حال ينبغي أن تكون مستعداً.

ربّما لم يقدّر لها أن ترى كيف التمعت عينا هوندا إزاء هذه النّبوءة الّتي تقول له إنّ خطّه سيُفصم عن عين الحقل.

استند هوندا إلى عصاه، وجلس في الشّرفة. كان الباب مفتوحاً. وكان بمقدوره أن يرى داخل الكوخ من الحديقة.

قالت كينوي:

ـ طيّب، يا أبي! صباح الخير.

ـ صباح الخير. إنّني ماضٍ إلى كيوتو ونارا لأيّام قلائل، وأردت أن أطلب منك أن ترعي الدّار.

ـ رحلة؟ ما أجمل هذا!

قالتها دونما اهتمام، وهي تعود إلى عملها.

ـ ما الّذي تفعلينه؟

ـ أستعدّ للزفاف. هل يعجبك الأمر؟ لا بالنّسبة إليّ وحدي، وإنّما إلى تورو أيضاً. يقول النّاس إنّهم لم يروا من قبل قطّ ثنائياً أكثر جمالاً.

جلس تورو، واضعاً عوينات سوداء، ملتزماً الصّمت بين الاثنين.

لم يعرف هوندا شيئاً عن حياة تورو الدّاخليّة منذ فقد بصره وأبقى قواه على الخيال، وكانت محدودة دائماً، تحت السّيطرة. لقد واصل تورو الحياة. ولكن ما من شيء كان أكثر قدرة على نقل الشّعور بالثّقل إلى هوندا من كتلة الصّمت هذه الّتي لم تَعُدْ تهديداً.

كانت الوجنتان، تحت العوينات القاتمة، أشدّ شحوباً، والشّفتان أكثر حمرة. كان تورو على الدّوام يتعرّق بغزارة. وكانت هناك حبّات من العرق، عند عنق الكيمونو المفتوح. جلس متصالب السّاقين، وترك كلّ شيء لكينوي، ولكن الجهد المبذول لتنحية هوندا جانباً كان جليّاً في العصبيّة الّتي راح يهرش بها ساقه، ويجفّف صدره. لم تكن حركاته موحية بالقوّة، وبدا كما لو كانت خيوط مدلاّة من السّقف هي الّتي تحرّكه.

وعلى الرّغم من أنّ سمعه كان حادّاً، فيما يبدو، إلاّ أنّه لم يُبْدِ ما يوحي بأنّه يستوعب العالم الخارجي عن طريق أذنيه. ولا شكّ في أنّ الآخرين، باستثناء كينوي، كان سيتكوّن لديهم الانطباع نفسه، ولكن أياً كان النّحو الموحي بالثّقة الّذي يدنو به الزّائر من تورو، فإنّه بالنّسبة إلى تورو ما كان يتجاوز نفاية مهملة من نفايات العالم الخارجي، علبة صدئة غطّتها أعشاب الصّيف.

لم يستشعر تورو احتقاراً، ولم يُبْدِ مقاومة، وإنّما جلس بصمت.

وعلى الرّغم من اشتهارها بالاحتيال فإنّ العينين الجميلتين والابتسامة جلبت له الاعتراف المؤقّت من العالم بقدره. وأمّا الآن فقد فارقته الابتسامة. وربّما كان يمكن أن يكون هناك بعض العزاء، لو أنّ النّدم والأسى كانا جليين، ولكنّه لم يظهر انفعالاته لأحد، باستثناء كينوي الّتي لم تحدّث أحداً بما رأته.

أصدرت الزّيزان صريرها منذ الصّباح. وتألّقت السّماء، من خلال غصون أشجار الحديقة المهملة، وكأنّها خيط من حبّات زرقاء. وبدا الكوخ أكثر عتمة من المألوف.

ارتمت صورة حديقة الشّاي على صقال دائرتَي العوينات القاتمتين اللّتين كان حرياً بهما، على أيّة حال، أن تُبعدا العالم الخارجي. لم تكن هناك أشجار مزهرة، الآن وقد اجتثت اللاّجرسميّة الهنديّة من جوار الحوض الحجري. وارتمت على العوينات صورة الشّجيرات بين الأحجار الّتي لم تُضِفْ كثيراً إلى معالم الطّبيعة، ونفذ الضّوء المنساب عبر الأشجار إلى العوينات أيضاً.

لم تَعُدْ عينا تورو تستقبلان العالم الخارجي. وملأ المشهد الممتدّ في الخارج، الّذي لم يعد مرتبطاً بالرّؤية والوعي، العدستين السّوداوين بتفصيل متشابك. بدا غريباً لهوندا أنّ كلّ ما رآه كان ذاته والحديقة الصّغيرة خلفه. وإذا كان البحر والسّفن الّتي رآها تورو على امتداد النّهار بأسره وعلامات مداخن السّفن القوية، كلّ ذلك كان جزءاً حميمياً من وعيه، فلابدّ أنّ الصّور وراء العوينات والعينين المتحركتين على نحو مبيضّ بين الفينة والأخرى، قد استقرّت هناك إلى الأبد. وإذا كانت فعاليات تورو الدّاخليّة قد أصبحت، بالنّسبة إلى هوندا والجميع، لغواً للأبد، فإنّه ليس ممّا يُعَدّ مفاجأة لهم أنّ البحر والسّفن وعلامات المداخن قد استقرّت هناك في الأعماق.

ولكن إذا كانت تنتمي إلى العالم الخارجي، ولا أهمّية لها، بالنّسبة إلى تورو، فإنّها ينبغي أن ترتسم بالتّفصيل على العدستين. تُرى هل دمج تورو تماماً العالمين الدّاخلي والخارجي، وحلّقت فراشة بيضاء عبر الصّورة المرتسمة على الزّجاج المعتم؟

ظهر عقبا قَدَمَيْ تورو من أسفل الكيمونو الّذي يرتديه. وكانا أبيضين ومجعّدين وكأنّهما لغريق، وقد تناثرت بقع من القذارة، مثل قطع من الرّقائق، فوقهما. وقد غدا الكيمونو مجعّداً تماماً، ورسم العرق حشوداً من السّحب الصّفراء عند خطّ العنق.

كان هوندا قد أدرك، منذ بعض الوقت، وجود رائحة غريبة. ولاحظ أنّ القذارة والزّيت على الكيمونو قد اختلطا بالعرق، في إطار رائحة تشبه الرّائحة الرّطبة على نحو مزعج، الّتي تصدر عن الشّبّان صيفاً. لقد فقد تورو ولعه بالنّظافة.

ولم تكن هناك رائحة للزهور. لقد امتلأت الغرفة بها، ولكنّها لم تصدر عنها رائحة. كانت خطميات حمراء وبيضاء متناثرة في كلّ مكان، ولاشكّ أنّها طلبت من متجر للزهور، ولكنّها كانت تعود إلى عدّة أيام خلت، وقد جفّت وذبلت.

كُلِّل شعر كينوي بخطميّات بيضاء لم تغرس في شعرها وإنّما مالت على هذا النّحو وذاك، وقد ثبتتها في موضعها على نحو غير متوازن عصابات مطّاطيّة. وفيما كان رأسها يعلو راحت الخطميات تصدر حفيفاً جافّاً.

كانت تنبعث واقفة، وتجلس من جديد، وهي تجمّل شعر تورو، وكان مايزال كثيفاً، بالخطميّات الحمراء. كانت هناك عصابة تلتفّ حول رأسه. وكانت تدسّ ثلاث خطميّات حمراء أو أربعاً في العصابة، ثمّ شأن دارسة لفنّ تنسيق الزّهور، تقف مائلة إلى الوراء وترقب النّتائج. ومن المؤكّد أنّ الزّهور المتهدّلة فوق أذنيه ووجنتيه

كانت مصدر ضيق، ولكنّ تورو تخلّى عن السّيطرة على ما يعلو عنقه.

مضى هوندا، بعد قليل، ليرتدي ثيابه، استعداداً للرحلة.

- ٢٩ -

حجز هوندا غرفة في كيوتو، بعد أن علم أنّ الطّريق إلى نارا ممتاز الآن. نزل في فندق مياكو، واستأجر سيّارة لفترة الظّهر من اليوم الثّاني والعشرين. لم تبدُ السّحب متساوقة مع الحرّ. وبدا من المحتمل أن ينهمر المطر على التّلال.

حدَّث هوندا نفسه بأنّه الآن هنا، وقد عمَّه الرّضا. وانهلّت الأحاسيس، كأنّما عبر ستائر، على جسده وقلبه المرهقين، تحت كتّان عتيق الطّراز، غير مبيّض. وكان قد جلب معه بطّانية كوقاية من تكييف الهواء، وترامى صرير الزّيزان عبر النّوافذ في «كياجي» قرب الفندق.

عقد العزم، فيما كانت السّيّارة تنطلق. اليوم لن أرى الهياكل العظميّة تحت اللّحم. إنّها مفهوم مجرّد فحسب. سأرى الأشياء وأتذكّرها على نحو ما هي عليه. سيكون ذلك لذّتي الأخيرة وجهدي الأخير. نظرتي الأخيرة المتفحّصة. لابدّ أن أنظر، لابدّ أن أستوعب كلّ شيء، بقلب خليّ.

تجاوزت السّيّارة معبد سامبوين في دايجو. ومن الجسر المُقام على معبد كاجوجي إلى طريق نارا الوطني، ومن حديقة نارا إلى طريق تنري الرّئيسي. وفي غضون ساعة وصلت إلى أوبيتوكي.

كان هوندا قد لاحظ أعداداً من نساء كيوتو، وهنّ يحملن

المظلاّت الواقية، وهو مشهد لا يُرى غالباً في طوكيو. كان بعض الوجوه يتألّق تحت المظلاّت، والبعض ـ ربّما بسبب تصميمات المظلاّت ـ يبدو شديد السّمرة. وكان بعض الوجوه جميلاً متألّقاً، وبعضها جميلاً أسمر.

فيما هما ينعطفان من المشارف الجنوبيّة لياما شينا، بدت وسط ضياع الضواحي مساحة هائلة من المصانع الصّغيرة الّتي تنفث مداخنها الدّخان تحت شمس الصّيف. وفي غمرة الانتظار مع كثير من النّشوة والأطفال عند محطّة للحافلات، كانت هناك امرأة حامل، وقد بدت موحية بالدّفء، وهي ترتدي زياً من قماش غربيّ جريء التّصميم. وارتسم على الوجوه ركود معيّن، كركود وريقات شاي تطفو على بُريكات الحياة، وفيما وراء ذلك امتدّت بقعة مزروعة ببندورة كساها الغبار.

كانت منطقة دايجو نثاراً من كلّ التّفاصيل الكئيبة للمعمار الحديث الّذي يُشاهَد في اليابان بأسرها. مواد بناء خشنة، سقوف من قرميد أزرق، أبراج تلفزيون وخطوط للطاقة الكهربائيّة، إعلانات عن الكوكا كولا ومشارب لتناول الوجبات الخفيفة والمشروبات في السّيّارات. ووسط أكوام كسارة الحجارة تحت الصّخور، حيث تندفع زهور اللّؤلؤيّة الصّغرى نحو السّماء وكأنّها تطعنها، تناثرت مقابر السّيّارات، الزّرقاء، والصّفراء، والسّوداء وقد تكوّمت متقلقلة إحداها على الأخرى، وقد توهّجت الألوان المبهرجة في وقدة الشّمس. عند هذا التّراكم الحزين الّذي تبقيه السّيّارات محتجباً عن الأنظار، في معظم الأحيان، راح هوندا يفكّر في قصّة مغامرة كان قرأها في طفولته، وفي أكوام العاج في المستنقع الّذي تمضي إليه

الفيلة لتلقى حتفها. ربّما كانت السّيّارات، إذ تحسّ بدبيب الموت، تمضي بدورها لتتجمّع في مقبرتها. وعلى أيّة حال فإنّ الألق والانفتاح وغياب الشّعور بالعار بدت له ممّا يتماشى مع السّيّارات.

ابتداء من أوجي غدت التّلال، للمرّة الأولى، مكسوّة بالخضرة. وكُتب على لافتة «حلوى لذيذة مبرّدة»، وتقوّست وريقات الخيزران فوق الطّريق.

عبرا جسر القمر في أوجي، وانطلقا على طريق نارا الرّئيسي، وتجاوزا فوشيمي وياماشيرو. وأبلغتهما لافتة بأنّ نارا على بعد عشرين ميلاً. مرّ الوقت سريعاً. وعند كلّ علامة إشادريّة على الطّريق كان هوندا يفكّر في التّعبير «معالم على الطّريق إلى القبر». بدا له أمراً لا مجال للتفكير فيه أنّه سيعود عبر الطّريق ذاته. وتتابعت اللاّفتات واحدة إثر الأخرى، محدِّدة بوضوح الطّريق الّذي ينبغي أن يمضي فيه. تسعة عشرة ميلاً إلى نارا. أقرب إلى القبر بمقدار ميل. فتح نافذة، . مختلساً مساحة مقدارها بوصة هرباً من تكييف الهواء. راح صرير الزّيزان يتردّد في أذنيه وكأنّ العالم بأسره يصدر عنه الصّرير، في غمرة العزلة، تحت شمس الصّيف.

محطّة وقود أخرى. مزيد من الكوكا كولا.

امتدّت ضفّة نهر كيزو الخضراء الجميلة بعيداً إلى اليمين، كانت مهجورة، وسحب قاتمة تحدّد أجماتها البديعة. وتألّقت في السّماء رقاع زرقاء.

حدَّث هوندا نفسه شارداً: وماذا عساها تكون؟ كانت الضفّة الخضراء شبيهة بمنصّة دمية. وجعلتها السّحب المحتدمة تبدو كما لو أنّ الدّمى قد اصطفت، ثمّ انداحت للضَياع، أو ربّما كانت صفوف

من الدّمى الشّفافة ماتزال هناك. أتراها صور من مستودع للجثث؟ ربّما كانت صوراً من ظلام مزّقتها عاصفة من ضياء مازالت تترك آثاراً في مواجهة السّماء، وهذا هو السّرّ في أن الضّفّة بدت شامخة للغاية، وجليلة على نحو يبثّ التّوقير في النّفس، ورفعت إلى عنان السّماء الضّوء الّذي تركته وراءها صفوف الدّمى. أو ربّما كان الضّياء الّذي بدا أنّه لاح لعينيه صورة سلبيّة لظلمة بلا قرار.

أحسّ من جديد بعيون تسعى إلى النّفاذ إلى وراء الأشياء. كانت هي ما حظره لدى مغادرته الفندق. لو أنّه كان قد غادرها في منتصف الطّريق لانهار العالم الاسمنتي من جديد، مثل حاجز من الحفرة الّتي اخترقتها نظرته، ينبغي أن يثابر قليلاً، عليه أن يمسك وقتاً إضافياً محدوداً بذلك العمل من الزّجاج البالغ الرّهافة والمتأهّب للانكسار.

ترامى نهر كيزو إلى اليمين لبعض الوقت، ومياهه الضّحلة غير بعيد عن هوندا، وتهالك خطّ للطاقة الكهربائيّة فوقه وكأنّما أذابته الحرارة وجعلته ينحني ملتوياً.

انعطف الطّريق تواً ليتقاطع مع نهر كيزو على جسر من الصّلب، وأبلغته لافتة بأنّ نارا لا تبعد إلاّ مسيرة خمسة أميال. عَبَرا أعداداً من الطّرق الرّيفيّة الضّيقة الّتي حفّت بها الأعشاب الّتي لم تطلّ النّباتات الرّيشيّة منها بعد. لاحت أجمات الخيزران كثيفة. تألّقت وريقات الخيزران الصّغيرة بسنى الشّمس وكأنّها اكتست بماء ساخن، واكتسبت بريقاً لطيفاً، ذهبياً، مثل جلود الثّعالب الوليدة في مواجهة السّواد الصّامت للنباتات الدّائمة الخضرة.

لاحت نارا للعيان.

فيما هما ينحدران عبر أشجار الصّنوبر على امتداد التّلال،

اختزلت نارا في سقف «التّوداجي» الشّاهق الحارس وذيول الطّائرات الورقيّة الذّهبيّة عند جَمَلونه.

انطلقت السّيّارة عبر شوارع هادئة، مجتازة حوانيت عتيقة تحتمي بالظّلال، وقد تدلّت خارجها معروضة للبيع قفّازات بيضاء وغيرها من السّلع. وصلا إلى حديقة نارا. بدت الشّمس أكثر اتّقاداً، واحتدم صرير الزّيزان المتواصل وراء طهر هوندا. طفت بقع بيضاء على ظهر أيّل وكأنّها تتصاعد عبر سنى الشّمس الأرقط.

عندما انعطفا إلى طريق تنري الرّئيسي واجتازا حقولاً متألّقة إلى اليمين من جسر صغير أقيم كيفما اتّفق، أفضى طريق إلى أوبيتوكي ومحطّة أوبيتوكي، وإلى اليسار أفضى طريق آخر إلى التّلال الّتي شمخ على قاعدتها جيشو. وإذ امتدّ الطّريق على حافة الحقول المسطّحة بدا الآن ممهّداً، وكانت المسيرة إلى البوّابة الأكثر انخفاضاً مسيرة يسيرة.

- ٣٠ -

كان بمقدورهما أن ينطلقا على نحو جيّد تماماً إلى البوّابة الجبليّة الّتي تقع على مسافة لا يستهان بها صعداً في التلّ، البعيدة للغاية بالنّسبة إلى رجل عجوز بحيث يستعصي عليه الوصول إليها، على نحو ما قال السّائق، وهو ينظر عالياً نحو الشّمس الّتي غدت أكثر شراسة في السّماء المجرّدة من الغيوم ولكنّ هوندا رفض، وأبلغه بأنّ عليه أن ينتظر عند البوّابة السّفلى، فقد كان عليه أن يحقّق لنفسه المعرفة بالمشاقّ الّتي تكبّدها كيواكي قبل ستّين عاماً.

اتّكأ على عصاه وأطلّ من البوّابة وظهره للظلّ الّذي كان يدعوه من أعماقه.

ملأ صرير الزّيزان والجداجد الهواء. ولقد حاكى مع مثل هذا الهدوء هديرَ السّيّارات على طريق تنري الرّئيسي، فيما وراء الحقول. لم تكن هناك سيّارات على الطّريق الّذي امتدّ أمامه. وأخذ الحصى الأبيض في رقّة بأكناف الطّريق.

كان جلال سهل ياماتو على عهده دائماً، وامتدّ مسطّحاً كعالم الرّجل. وتألّقت أوبيتوكي في البعيد، وقد لاحت سقوفها كالمحار، وقبعت فوقها بقية دخان، ربّما ضمّت الآن مصانع صغيرة. وكان النّزل الّذي رقد فيه كيواكي مريضاً عند سفح منحدر صخري، من النّوع الّذي يحتمل أن يوجد في القرية حتّى الآن، ولكنّه حدّث نفسه بأنّه سيكونِ ممّا لا طائل وراءه البحث عن النّزل نفسه.

ترامت سماء زرقاء بلا انتهاء متقوّسة فوق القرية والسّهل، وجرّت السّحب مِزَقاً من الأطلس الأشهب، مثل آماد من السّراب انبعثت من التّلال الّتي لفّها السّديم في البعيد. وغاصت الخطوط العليا في السّماء بجمال صافٍ يوشك أن يكون صرحيّاً.

أقعى هوندا وقد غلبه الحرّ والتّعب، وأحسّ كما لو أنّ ضوءاً مؤذياً من نصال الأعشاب راح يطعن عينيه، وشعر بأنّ ذبابة اجتازت أنفه محتكّة به قد اشتمّت التحلّل.

وجّه اللّوم بعينيه إلى السّائق الّذي ترجّل من السّيّارة وشرع بتأثير القلق في الصّعود نحوه.

كان الشكّ قد بدأ يساوره في أنّ بمقدوره، في حقيقة الأمر، الوصول إلى البوّابة الجبليّة. وكان ظهره ومعدته يؤلمانه، وأشار إلى السّائق بالابتعاد، ومضى داخل البوّابة، وقد عقد العزم على أن يبدو في خير صحّة مادام الرّجل يرقبه. وشقّ طريقه لاهثاً مستمدّاً العون من المنعطفات، على الطّريق غير المستوي المكسوّ بالحصى، ملتقطاً بطرف عينه اليسرى صغار الأشنة الفاقع، وكأنّه مرض، على جذع شجرة برسيمون، وعلى يمينه الرّؤوس الأرجوانيّة الشّاحبة، للجريس وقد تساقطت البَتَلات من معظمها.

حظيت الظّلال الّتي سدّت الطّريق أمامه بنوع من الهدوء الصّوفي، وتألّق الطّريق غير المستوي، الّذي يمكن أن يكون قاع نهر لدى انهمار المطر، أنّى سقطت الشّمس، وكأنّما هو حصيلة عملية تعدين، وهمس من خلال برودة ظلاله. كان هناك سبب للظلال، ولكنّ هوندا ساوره الشكّ في أنّ السّبب يكمن في الأشجار ذاتها.

سأل نفسه وعصاه عن الظلّ الّذي يمكن أن يستريح عنده، الظلّ الرّابع الّذي يحتجب عن العيان إذا نُظر إليه من السّيّارة، وقد راح يدعوه في هدوء. وإذ وصل إليه فقد اقتعد الأرض متهالكاً على وجه التّقريب، متّخذاً من جذع شجرة كستناء متّكَأً.

حدَّث نفسه وكأنّه يتحدّث عن واقع لا مِراء فيه: «تقرّر في البدء أنّني سأرتاح، في هذا اليوم، عند هذه اللّحظة، في ظلّ هذه الشّجرة».

وفيما هو جالس عاد العرق وصرير الحشرات اللّذان كان قد نسيهما خلال سيره. وأسند جبينه إلى عصاه فزاد ضغط رأس العصا الفضّيّ الألمَ النّابض في معدته وظهره.

كان الطّبيب قد أبلغه بأنّ لديه ورماً في البنكرياس. وقد قال له، باسماً، إنّه ورم حميد. باسماً، ورم. وكان تعليق الآمال على مثل هاتين الكلمتين دهساً لكبرياء رجل عاش واحداً وثمانين عاماً. وأمعن النّظر في أمر رفض إجراء الجراحة لدى عودته إلى طوكيو، غير أنّه لو قام بذلك، فمن المؤكّد أنّ الطّبيب سيمارس الضّغط على «الأقارب الأَدْنَيْن». لقد سقط بالفعل في شَرَك. كان قد هوى في شرك عندما ولد في رحاب هذه الدّنيا، وينبغي ألاّ يكون هناك شَرَك آخر بانتظاره في نهاية الطّريق. وحدَّث نفسه بأنّه ينبغي عليه أن يُنَحّي الأمر بأسره ضاحكاً، عليه أن يتظاهر بالأمل، فلقد مضى جدي الأضحية في المجالدة بعد وقت طويل من سقوط رأسه.

لم تَعُدْ عين الرّاصد المُقْلِق عليه، فاستند إلى عصاه، وراح يترنّح مُكْثِراً، فيما هو يشقّ طريقه صاعداً المنحدر. بدأ يشعر وكأنّه كان هزلياً، وغادره الألم، وغدت خطوته أكثر حدّة.

ملأت رائحة أعشاب الصّيف الهواء. كانت أشجار الصّنوبر كثيفة على امتداد الطّريق. واتّكأ على عصاه وتطلّع إلى السّماء. تحت ضياء الشّمس القوي بدت الأقماع وسط الغصون الكثيفة وكأنّها رُسمت قشرةً فأخرى. ووصل إلى رقعة مزروعة بالشّاي، وقد بدت مهجورة، إلى اليسار، وحفّت بها خيوط العناكب والنّباتات الزّاحفة.

كانت هناك شرائح طوليّة من الظّلّ أمامه، وبدت الشّرائح الأدنى منه مثل وصلات مصراع نافذة محطّم، وأمّا الشّرائح الأكثر بعداً فقد بدت سحماء ومتجمّعة في صورة ثلاث شرائح أو أربع، مثل نطاقات ممّا يُتّخذ لثياب الحداد.

لمح قمع صنوبر ساقطاً على الأرض أمامه، وبدعوى التقاطه جلس على جذع شجرة صنوبر عملاقة. كانت معدته حارّة على نحو ثقيل ومؤلم. وإذ لم يجد الإعياء مُنْصَرَفاً له فقد انحنى، شأن سلك صدئ. وفيما هو يعبث بالقمع الّذي تفتّح تماماً وجفّ فقد أبدت القشور الّتي يحاكي لونها الشّاي مقاومة قوية لأصابعه. ورقّشت زهور النّدى الدّرب، وقد ذوت براعمها تحت الشّمس، وبدت آثار رقيقة للّون الأرجواني الشّاحب المائل إلى الخضرة وسط الوريقات مثل أجنحة قُبَّرات صغيرة. وكان أديم السّماء فوقه وشجرة الصّنوبر الّتي أوى إليها، والسّحب الّتي تشبه بقايا مقشّة ـ كلّ شيء يبدو جافّاً على نحو مُتْرَع بالنذير وموحٍ بالخطر.

لم يكن بمقدور هوندا تعرّف صرير الحشرات، الّذي ملأ كلّ شيء. صوت يشبه الأزيز الجهير لكلّ الحشرات، وآخر يحاكي صوت أسنان تعمل في غمار كابوس، وثالث يتردّد كصدى لا هدف له بين الضّلوع.

انبعث واقفاً من جديد، وتساءل مرّة أخرى عمّا إذا كان سيبلغ البوّابة الجبليّة. لم يكن بوسعه، وهو يواصل المسير، إلاَّ أن يُحصي عدد الظّلال المترامية أمامه. ترى كم من الظّلال الأخرى يمكنه أن يشقّ طرقه عبرها في وقدة الحرّ وعذاب المُرتقى؟ ولكنّه اجتاز ثلاثة منها بالفعل، منذ بدأ بالإحصاء. وارتمى ظلّ نصفه على الطّريق والنّصف الآخر خارجه. هل ينبغي أن يَعُدَّه ظلاً كاملاً أم نصف ظلّ.

كانت هناك أجمات خيزران، عند تقوّس الطّريق برفق إلى اليسار، وبدت كالمستوطنات في عالم الإنسان. وتزاحمت الوريقات الرّقيقة، على نحو كثيف، إحداها في مواجهة الأخرى، وقد بدا بعضها خفيفاً كالهليون، والبعض أسود يوحي بخبث وارتكاس قويّين.

لدى جلوسه ومسحه العرق من جديد، رأى فراشة هي الأولى. كانت خطاً خارجياً يلوح في البعيد، ولدى دنوّها وشّى بياض فضّيٌ اللّونَ الخمريَّ للأجنحة.

وصل إلى مستنقع، ونال قسطاً من الرّاحة تحت الخضرة الوارفة لشجرة كستناء عند الحافة. ولم تكن هناك نسمة تحرّك الهواء. وامتدّت شجرة صنوبر ميتة، كالجسر عبر ركن من أركان المستنقع الجامع بين اللّونين الأصفر والأخضر، الّذي لم يحرّك سطحه إلاّ انطلاقات بقّ طويل القوائم من النّوع الّذي يجري فوق الماء الرّاكد، وتألّقت حوله تموّجات صغيرة، محرِّكة الانعكاس الأزرق الكئيب للسماء. كانت الشّجرة الميتة ذات لون بنّيّ مُحْمَرّ حتّى أطراف إبرها، وبدا أنّ الجذع الّذي يعلو الماء تدفعه أغصان إلى قاع المستنقع، ولاح أحمر اللّون صَدِئاً في بحر من الخضرة، وشكله

الأصلي على حاله لم يمسّ، وواصل كونه، دونما شكّ، شجرة صنوبر.

شرع في المسير من جديد وكأنّه يتبع الفراشة الّتي انطلقت بسعادة من بين الأعشاب والذّنبيات الّتي لم تطلّ منها البراعم. انتشرت خضرة أشجار السّرو الّتي فقدت بريقها عبر المستنقع إلى الجانب القريب، وشيئاً فشيئاً ازداد الظلّ كثافة.

كان بمقدوره الشّعور بالعرق وهو يتخلّل قميصه، ويبلّل ظهر سترة حُلّتِه. ولم يستطع التّأكّد ممّا إذا كان عرقاً صحّياً بتأثير الحرارة، أم عرقاً زيتياً بارداً، وعلى أيّة حال فإنّه لم يتعرّق بمثل هذه الغزارة منذ بلغ الكهولة.

في موضع إفساح أجمة السّرو المجال لأجمة سرو اليابان، انتصبت شجرة نيمو وحيدة. وقد بدت الكتل الرّقيقة من الوريقات وسط الإبر الصّلبة لأشجار سرو اليابان كالأطياف المُنْذِرة، كهجعة الأصيل، وجعلته يفكّر في تايلاند، وقادته على طريقه فراشة بيضاء انبعثت من شجرة النّيمو.

كان الطّريق أكثر انحداراً. ولسوف تكون البوّابة الجبليّة قريبة. وقد غدت أشجار سرو اليابان أكثر كثافة، وهبّ نسيم بارد من وسطها، وأصبح السّير الآن سهلاً. كانت النّطاقات عبر الطّريق حتّى الآن ظلال أشجار، وأمّا الآن فقد غدت امتدادات طوليّة من ضوء الشّمس.

شقّت الفراشة طريقاً متعرّجاً عبر ظلمة أجمة أشجار سرو اليابان، ورسمت خطّاً خفيضاً خلال السّرخيات المتألّقة كالسّائل في سنى

الشّمس، إلى البّوابة السّوداء بعدها. وحدَّث هوندا نفسه بأنّه لسبب ما فإنّ كلّ الفراشات في هذه الأرجاء تطير على ارتفاع خفيض، غير بعيد عن الأرض.

اجتاز البوّابة السّوداء. ولاحت بوّابة الجبل أمامه. وهكذا ألفى نفسه، في نهاية المطاف، عند جيشوجي. لقد عاش هذه السّنوات السّتين لا لشيء إلاّ ليجيء إلى هنا من جديد.

راح يحدّق في شجرة الصّنوبر الّتي تشبه مقدّمة السّفينة، والمستخدمة كمحطّة توقّف للمركبات، ووجد من الصّعب تصديق أنّه هنا، وشعر بالانتعاش على نحو غريب، بل وبالتردّد في بلوغ مقصده. وقف عند عمود من أعمدة البوّابة الجبليّة الّتي أحاطت بجانبيْها بوّابتان أصغر منها وأقلّ ارتفاعاً بكثير. وتشكّلت زهور أقحوان كلّ منها تتألّف من ستّ عشرة بتلة على آخر قمّة التّل. على العمود الأيسر كانت هناك لافتة نسائيّة الطّابع تشير إلى أنّ المعبد هو معبد جيشوجي، وإلى أنّه تحت حماية العائلة الأمبراطوريّة. وعلى العمود الأيمن كان هناك نقش معتم بالحروف البارزة «السّلام على الأرض. بالدّاخل أودع النّصّ التّرتيلي الأمبراطوري لبراجنا باراميتا سوترا. قلعة لقانون سمّوه الأمبراطوري الرّفيع الشّأن».

كانت هناك خمسة خطوط على الجدار الطّيني ذي اللّون الأصفر، لتشير إلى المرتبة الرّفيعة الّتي يحظى بها المعبد. وأفضت درجات حجريّة عبر الحصى الأصفر إلى المدخل على نحو متقاطع، أحصاها هوندا بالاستعانة بعصاه، وعندما بلغ رقم التّسعين كان قد وصل إلى الباب الموصد. في المقبض المسنّن مسّت يده زهرة أقحوان، وسحب قصاصات من ورق أبيض.

عادوته ذكرى أبعد أركان الدّاخل، فوقف ساكناً، ناسياً إعلان قدومه. لقد وقف هوندا الشّاب، قبل ستين عاماً، على هذه العتبة نفسها، أمام هذا الباب عينه. وربّما كان الورَق قد تغيّر مائة مرّة، في غضون تلك السّنوات، ولكن مدى صافياً أبيض سدّ الطّريق الآن، على نحو ما فعل في ذلك اليوم الرّبيعي البارد. وعلى الرّغم من أن تجزُّع الخشب ربّما كان أكثر بروزاً بقليل، فإنّه لم يفصح إلاّ عن قليل من تأثير الرّياح والثّلوج، وكأنّما لم تنقض إلاّ لحظة واحدة.

كان كيواكي الّذي رقد في فراش المرض في نزل أوبيتوكي، قد راهن بكلّ شيء على هذه الرّحلة إلى جيشوجي، وربّما كان مايزال، محموماً، بانتظار عودة هوندا. وما الّذي عساه يعتقده إذا رأى في تلك اللّحظة أنّ هوندا قد أصبح عجوزاً أجناً، لا يُحير حراكاً؟

أقبل مدبّر لأمور المعبد ربّما كان في السّتين من عمره، في قميص مفتوح العنق، لاستقباله. وكان بحاجة إلى العون للتغلب على عقبة الدّرجة الأخيرة المرتفعة. ومضى به إلى جناح يضمّ مجموعة من الغرف تمتدّ كلّ منها بطول ثماني حصر وعرض ستّ حصر. وفي القاعة الرّئيسيّة، قال الرّجل، على نحو مهذّب، إنّهم قد تلقّوا رسالته، وتمعّنوا في قراءة مضمونها، ودعاه إلى الجلوس على حشيّة وُضِعت بدقّة هندسيّة على حصيرة محدّدة الحوافّ بأشكال بيضاء على أرضيّة سوداء. ولم يتذكّر هذه الغرف من زيارته الأولى قبل ستّة عقود من الزّمان.

على اللّوحة الطّويلة الموجودة بتجويف في الجدار، التوى تنّين مرسوم بطريقة سيشو، وتقلّب وسط عواصف رعديّة، وتحته امتدّت

باقة صغيرة، ناعمة، منمّقة من القرنفل البرّي. وجلبت كاهنة عجوز ترتدي كيمونو أبيض من قماش قطني رقيق وتتمنطق بزنّار أبيض، حلوى حمراء وبيضاء وشاياً مثلّجاً، على صحفة ذات حوافّ. وعبر الأبواب المفتوحة طفت الخضرة مقبلة من الحديقة. كانت هناك وفرة من أشجار القيقب وأشجار الحياة، وفيما وراءها رواق أبيض، ولا شيء غير ذلك.

تحدّث المدبّر عن هذا الأمر وذاك، ومرّت اللّحظات. وجلس هوندا هادئاً في مهبّ النّسيم. ولم يعد ثمّة عرق ولا ألم فأحسّ بأنّ الانقاذ قد تمّ.

كان في إحدى غرف جيشوجي الّذي ظنّ أنّ زيارته مستحيلة. ولقد جعل دنوّ الموت الزّيارة سهلة، ورفع الثّقل الّذي أمسك به في أعماق الوجود، بل لقد كان مصدر ارتياح أن يفكّر من الاسترخاءة الخفيفة من عناء المجالدة في صعود التّلّ، في أنّ كيواكي الّذي جالد المرض في غمرة صعود الدّرب نفسه، قد مُنح جناحين ليحلّق بهما، من خلال النّكران الّذي كان بانتظاره.

ظلّ صرير الزّيزان العالي في أذنيه، ولكنّه هنا في الغسق كان وانياً، مثل الصّدى المُحْتَضَر الصّادر عن جَرَس. واصل المدبّر العجوز حديثه، دون إشارة أخرى إلى الرّسالة، ولم يستطع هوندا إجبار نفسه على السّؤال عمّا إذا كانت ستُتاح له رؤية رئيسة الكاهنات.

بدأ الخوف يساوره من أنّ المرور الخاوي للحظات لم يكن إلاّ وسيلة حذرة لإبلاغه بأنّ رئيسة الكاهنات لن تستقبله. فربّما كان

المدبّر العجوز قد قرأ المقال الّذي نشرته المجلّة الأسبوعيّة، وربّما نصحها بالاعتذار بعدم الاستعداد لمقابلته.

لم يشعر بالخشية من مقابلتها، وإن أثقله الذّنب. فمن دون الجريمة والذّنب والموت لم تكن الشّجاعة لتواتيه للمضيّ صعداً عبر هذا الطّريق. وأدرك الآن أنّ الفضيحة قد أمدّته بأجله المعتم الأوّل. لقد أشار إلى انتحار تورو وعماه ومرض هوندا، وحمل كينوي إلى البقعة ذاتها. كان ذلك صحيحاً: لقد تجمّدوا متحولين إلى كتلة، وأرغموه على الانطلاق صعداً، عبر ذلك الطّريق، وبدونهم ما كان بمقدوره إلاّ أن يتطلّع إلى ألق جيشوجي فوق قمّة نائية.

لو أنّ رئيسة الكاهنات رفضت بعد هذا كلّه مقابلته بسبب الحادث لكان بوسعه أن يُسمِّي ذلك قدراً. إنّه لن يراها في هذا الحياة. ورغم ذلك كان على يقين من أنّه سيراها يوماً ما، حتّى وإن حُرم المقابلة في هذه البقعة الأخيرة، في هذه السّاعة الأخيرة في هذا العالم.

حلّ الاسترخاء الفاتر محلّ الاضطرابِ الجامح، والاستسلام محلّ الأسى، لجعل مرور الوقت أمراً محتملاً.

ظهرت الكاهنة العجوز، وهمست شيئاً في أذن مدبّر أمور المعبد.

قال بلكنة هذا الرّيف الغربي:

ـ لقد أبلغتنا نيافتها بأنّها على استعداد لرؤيتكم، فهلمّ معي، لطفاً!

لم يكد هوندا يصدّق أذنيه.

كان الضّياء الصّادر من الحديقة الشّمالية بالغ الشّدّة، وللحظة لم يتعرّف المكان، ولكن ها هنا استقبلته رئيسة الكاهنات السّابقة قبل ستين عاماً.

تذكّر المشهد المتألّق للفصول على ذلك السّتار السّابق، وقد حلّ محلّه ستار بسيط من الأعشاب المضفورة مع الأغصان والقصب. وفيما وراء الشّرفة اتّقدت خضرة حديقة شاي صغيرة، وقد بعثت الزّيزان الحياة فيها. وفيما وراء وفرة من أشجار القيقب والخوخ وشجيرات الشّاي تألّقت براعم الدّفلى الحمراء. وسقط ضياء الصّيف بحدّة على الحراب البيضاء لشجرة خيزران قزمية وسط مواطئ الأقدام الصّخريّة، مكرّراً الضّوء الأشهب المنهلّ من السّماء فوق التّلال الغابيّة.

أوشك خفق أجنحة على الارتطام بالحائط. وحلّقت قبّرة مقبلة من الرّواق، وواصلت طيرانها وظلُّها يتذبذب في مواجهة الحائط الأبيض.

انزلق الباب المفضي إلى الغرف الدّاخليّة، ولاحت أمام هوندا، الّذي ضمّ ركبتيه معاً في وضع رسمي متصلّب، رئيسة الكاهنات العجوز، تقودها راهبة مبتدئة ترتدي زيّاً أبيض. سيكون القوام الشّاحب الّذي انسدل عليه الكيمونو الأبيض والعباءة الأرجوانيّة القاتمة، ساتوكو، وقد غدت الآن في عامها الثّالث والثّمانين.

أحسّ هوندا بالدّموع تطفر من عينيه. وعجز عن رفع ناظريه إليها.

واجهته عبر المنضدة. كان الأنف هو الأنف البديع التّكوين المنتمي إلى هاتيك السّنين، والعينان هما نفسهما العينان الجميلتان. لقد تغيّرت ساتوكو تغيّرا تاماً، ومع ذلك فقد عرف بنظرة واحدة أنّها ساتوكو. غدا ريعان الشّباب، في قفزةٍ قوامُها ستّون عاماً، الشّيخوخة الموغلة في الرّحيل. لقد أفلتت ساتوكو من الرّحيل عبر العالم الكئيب. من يعبر جسر حديقة من الظّلّ إلى النّور قد يبدو وكأنّه غيَّر

وجهه. ولو أنّ الوجه الفتيّ الجميل كان هو الوجه القابع في الظّلّ، فإنّ تغيّره لا يعود كتغيّر الوجه المكتهل الجميل الماثل الآن في سنى الشّمس. وتذكّر كيف أنّ وجوه كيوتو قد بدت، وهو يغادر الفندق، متألّقة وداكنة تحت المظلّات الواقية، وكيف أنّ المرء كان بمقدوره التنبّؤ بنوعية الجمال من التّألق والإعتام.

لقد امتدّ الأمر بالنّسبة إلى هوندا ستّين عاماً. تُرى هل كان بالنّسبة إلى ساتوكو الوقت الّذي يستغرقه عبور جسر حديقة من الظّلّ إلى ضياء الشّمس؟

أسرع العمر منطلقاً، لا باتّجاه التحلّل، وإنّما باتّجاه التطهّر. وقد بدت البشرة متوهّجة بنور ساكن، وكان جمال العينين أكثر وضوحاً وتألّقاً خلال شيء يشبه غشاء العتق. تبلور العمر متحوّلاً إلى جوهرة كاملة النّقاء. كانت جوهرة باردة، رغم شفافيتها، ليّنة الدّوران، رغم صلابتها، والشّفتان مازالتا نديتين. كانت هناك تجاعيد غائرة لا حصر لها، ولكنّها كانت منيرة، وكأنّما أزيلت واحدة إثر الأخرى. كان هناك شيء قوي على نحو متألّق فيما يتعلّق بالقوام النّحيف الّذي ناله شيء من الانحناء.

حجب هوندا دموعه، ورفع عينيه متطلّعاً.

قالت رئيسة الكاهنات بلطف:

ـ كان طيّباً منك أن تحضر إلى هنا.

ـ كان تجاوزاً للحدود من جانبي أن أقدّم نفسي، دونما سابق إنذار، ومن اللّطف البالغ منك التّفضّل بمقابلتي، رغم ذلك.

أراد هوندا، في المقام الأوّل، تجنّب الألفة، فألفى نفسه يستخدم

أكثر التحيّات إيغالاً في الطّابع الرّسمي. وخجل من الصّوت الّذي يأخذ البلغم بخناقه، فأرغم نفسه على مواصلة الحديث:

ـ لقد كتبت إلى مدبّر أمور المعبد، وأتساءل عمّا إذا كان قد أطلعكِ على رسالتي.
ـ نعم، رأيتها.

ساد صمت قصير انتهزته الكاهنة المبتدئة لتنسحب.

استمدّ شجاعة من قراءتها لرسالته فواتته الكلمات منقادة:
ـ لشدّ ما تعاودني الذّكريات! وكما تَرَيْن فإنّني من الإيغال في العمر بحيث لا أستطيع التيقّن من أنّني سأحيا ليلتي هذه.

ضحكت رئيسة الكاهنات، وبدا أنّها تميل برفق، وشأن المدبّر تحدّثت بلكنة الرّيف الغربي:
ـ بدت رسالتك متلهّفة كثيراً. ظننت أنّه لابدّ أنّ هناك رابطة مقدّسة من نوعٍ ما تربطنا.

تقافزت القطرات الأخيرة للشباب في أعماق هوندا. عاد إلى ذلك اليوم، قبل ستّين عاماً، عندما طرح عذر اندفاع الشّباب أمام رئيسة الكاهنات السّابقة فنحّى تحفّظه جانباً.
ـ رفضت نيافة رئيسة الكاهنات السّابقة السّماح لي برؤيتك عندما جئت بطلب كيواكي الأخير. كان ينبغي أن يكون الأمر كذلك، ولكن الغضب استبدّ بي. فقد كان كيواكي ماتسوجاي أقرب أصدقائي إليّ، في نهاية المطاف.
ـ كيواكي ماتسوجاي. من عساه يكون؟
تطلّع إليها هوندا بدهشة.

ربّكا يكون قد غدا السّمع متعذّراً بالنّسبة إليها، ولكنّها لا يمكن أن تكون قد أخفقت في سماعه، غير أنّ كلماتها كانت موغلة في النّأي للغاية، بحيث لا يمكن إلاّ أن يعتقد أنّه قد أُسيء فهمه.

أرادها أن تكرّر ما قالته:

ـ عفواً؟

لم يكن ثمّة أثر للخداع وهي تكرّر الكلمات، وإنّما كان هناك فضول صبياني في عينيها، وتحتهما ارتسمت ابتسامة هادئة:

ـ من عساه يكون؟

أدرك هوندا أنّها تريد أن يحدّثها عن كيواكي فراح في تهذيب يواكبه الحرص، يعيد سرد ذكرياته عن قصّة حبّ كيواكي ونهايتها الحزينة.

جلست رئيسة الكاهنات ساكنة، على امتداد القصّة الطّويلة، وقد ارتسمت على الدّوام ابتسامة على شفتيها، وراحت تومئ برأسها بين الحين والآخر. أصغت بعناية حتّى وهي تلتقط برشاقة المرطّبات الباردة الّتي جلبتها الكاهنة العجوز.

قالت بهدوء، ودون مسحة انفعال:

ـ كانت قصّة مثيرة للاهتمام إلى أبعد الحدود، ولكن من سوء الحظّ أنّني لم أعرف السّيد ماتسوجاي، وأخشى أن تكون قد خلطت بيني وبين غيري.

سعل هوندا في غمرة تعجّله الحديث:

ـ لكني أعتقد أن اسمك ساتوكو أياكورا؟

ـ كان هذا اسمي قبل رسامتي.

غضب، وقال:

ـ إذن، لابدّ أنّكِ عرفت كيواكي!

لابدّ أنّ الأمر ليس نسياناً، بل مراوغة لا ترعوي. كان يعرف أنّ رئيسة الكاهنات لديها من الأسباب ما يحدوها للتظاهر بالجهل، ولكن كون امرأة بعيدة كلّ البعد عن العالم المبتذل، وتحظى بمكانتها الرّفيعة، تُقْدِم على الكذب بجلاء فهذا يُقدِّم مبرّرات للشكّ في عمق ما تؤمن به. وإذا كانت ماتزال تحمل معها كلّ نفاق ذلك العالم الآخر، فلابدّ أنّ هناك شكوكاً حول سلامة تحوّلها عندما ولجت هذا العالم. لقد بدا حلم ستّين عاماً وقد تعرّض للخذلان في تلك اللّحظة.

تجاوز إلحاحه حدّاً معقولاً، ولكنّها لم يبدُ عليها الضّيق من جرّاء ذلك. ورغم كلّ هذا القيظ الشّديد فقد بدت عباءتها الأرجوانيّة باردة، ولاح صوتها الجميل دوماً وعيناها تجسيداً للصفاء والسّكينة.

ـ لا، يا سيّد هوندا، لم أنسَ شيئاً من البركات القدسيّة الّتي حظيت بها في العالم الآخر، ولكني أخشى أن لا أكون قد سمعت باسم كيواكي ماتسوجاي قطّ. ألا تفترض يا سيّد هوندا أنّه لم يوجد قطّ مثل هذا الشّخص؟ إنّك تبدو مقتنعاً بأنّه كان على قيد الوجود، ولكن ألا تفترض أنّه لم يكن هناك مثل هذا الشّخص منذ البدء في أي مكان؟ لم يكن بمقدوري وأنا أصغي إليك مَنْعُ نفسي من التّفكير في ذلك.

ـ لماذا إذن يعرف أحدنا الآخر؟ ولا بدّ أنّ آل أياكورا وآل ماتسوجاي مازالوا يحتفظون بسجّلات عائليّة.

ـ نعم، مثل هذه الوثائق قد تحلّ مشكلات في العالم الآخر.

ولكن هل عرفت حقاً شخصاً يُدعى كيواكي؟ وهل يمكنك القول، على وجه القطع، بأنّنا قد التقينا كلانا من قبل؟

ـ لقد جئت إلى هنا، قبل ستّين عاماً.

ـ الذّاكرة مثل مرآة شبحيّة. وهي في بعض الأحيان تُظْهِر أشياء أبعد من أن تُرى، وتُظْهِرها في أحيان أخرى كما لو كانت هنا.

ـ ولكن، إذا لم يكن هناك كيواكي منذ البداية...

راح هوندا يتلمّس مساره عبر الضّباب. وبدا له لقاؤه هنا مع رئيسة الكاهنات شبيهاً بالحلم. وتحدّث بصوت عال كأنّما ليستعيد الذّات الّتي تراجعت إلى البعيد، مثل آثار نَفَس يختفي من صحفة شراب. قال:

ـ إذا لم يكن هناك كيواكي منذ البداية، فليس هناك إذن إيساو، وليس هناك ينج تشان، ومن يدري، ربّما لم يكن هناك أنا.

للمرّة الأولى تجلّت القوّة في عينيها.

ـ ذلك، أيضاً، يتقرّر حسبما هو في كلّ فؤاد.

أعقب ذلك صت طويل. صفّقت رئيسة الكاهنات برفق، فبدت الكاهنة المبتدئة، وانحنت لدى الباب.

ـ كان السّيّد هوندا من الرّقّة بحيث تكبّد عناء قطع كلّ هذه المسافة. وأحسب أنّه ينبغي أن يشاهد الحديقة الجنوبيّة. سأصحبه إلى هناك.

قادتها الكاهنة المبتدئة، ممسكة بيدها. وانبعث هوندا واقفاً وكأنّ خيوطاً اجتذبته، وتبعهما، عبر القاعات المعتمة.

أزاحت الكاهنة المبتدئة أحد الأبواب جانباً، ومضت به إلى

الشّرفة فألفى الحديقة الجنوبيّة الرّحبة أمامه.

تـألّقـت المـرجـة، مـع التّـلال الّتـي تشمـخ وراءهـا، تحـت شمـس الصّيف.

قالت الرّاهبة المبتدئة:

ـ أقبلت إلينا طيور وقواق، منذ الصّباح.

هيمنت أشجار القيقب على الأجمة، فيما وراء المرجة، وأفضت بـوّابـة مضفـورة مـن الأغصـان والأعشـاب إلـى التّـلال. ولاح بعـض أشجار القيقب حتّى الآن في الصّيف أحمر اللّون، ألسنة لهب وسط الخضرة. وتنـاثـرت مـواطـئ القـدم الصّخريّة على نحو متقارب عبر المـرجـة، وازدهـرت قـرنفـلات بـريّة بينهـا علـى استحيـاء. وفـي أحـد الأركـان إلـى اليسـار كـانـت هنـاك بئر وعَجَلَتهـا. وبـدا مقعـد شـاحـب الخضرة متوهّجاً بالحرارة، تحت الشّمس، إلى حدٍّ كان من المؤكّد أنّه يلسع من يحاول اقتعاده. وأراحت سحب الصّيف أكتافها المثقلة بالدّاور على التّلال الخضراء.

كانت حديقةً متألّقة، هادئة، دون معالم تجذب الأنظار، وشأن مسبحة تحتكّ بين اليدين، مضى صرير الزّيزان يتناهى متهاوياً.

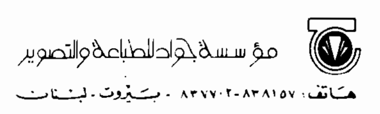
لم تصدر نأمة أخرى. كانت الحديقة خاوية. وحدّث هوندا نفسه بأنّه جاء إلى مكان خلا من الذّكريات، ومن كلّ شيء.

وتدفّق سنى شمس الظّهيرة الصّيفيّة، فغمر الحديقة السّاكنة.

نهاية

بحر الخصب

٢٥ نوفمبر ١٩٧٠


مؤسسة جواد للطباعة والتصوير
هاتف: ٨٣٨١٥٧-٨٣٧٧٠٢ - بيروت - لبنان

بالمجلّد الرابع الموسوم «سقوط الملاك» ينهي ميشيما رباعيّته الهائلة «بحر الخصوبة» لنجد أنفسنا في مواجهة نهاية هوندا نفسه، الذي وقف شاهداً على كلّ النهايات، ونهاية رحلة التّناسخ الهائلة ذاتها.

وتنفرد رواية «سقوط الملاك» بأنَّها كتبت بكاملها بعد أن اتَّخذ ميشيما قراره بإنهاء حياته، بعد الفراغ من رباعيّته؛ ومن ثم فإنَّها تعكس فلسفته ورؤيته للعالم على نحو أكثر امتلاءً وزخماً من أي عملٍ من أعماله المئة، التي تركها لنا ميشيما في ستة وثلاثين مجلّداً تضمّ أعماله الكاملة.

إنَّ الأمر الذي يلفت نظرنا هنا حقّاً أنَّ ميشيما ينهي «سقوط الملاك» بزيارة يقوم بها هوندا إلى معبد جيشو، حيث يلتقي ساتوكو، بطلة «ثلج الرّبيع»، بعد أن علا بها العمر، الذي أمضته كاهنة أدارت ظهرها للدنيا. ويصعق هوندا، عندما يجد أنَّ ساتوكو لا تذكر حبيبها القديم كيواكي، بل إنَّها تتساءل عمّا إذا كان قد قدّر لإنسان يحمل هذا الاسم أن يوجد قطّ، عندئذ يشعر هوندا بأنه إذا لم يكن هناك وجود لكيواكي، فليس هناك وجود لإيساو ولا ينج سان، بل وربّما لا وجود لهوندا نفسه، ربّما ما مضى كان بكامله حلماً وارتحالاً في السّديم. وأمام التّساؤل المرير الذي يطرحه هوندا في هذا الشأن تبتسم الكاهنة، مشيرة إلى أنّه على كلّ منّا أن يقرِّر الأمر لنفسه، انطلاقاً ممّا يحدّثه به قلبه.

تصميم الغلاف



